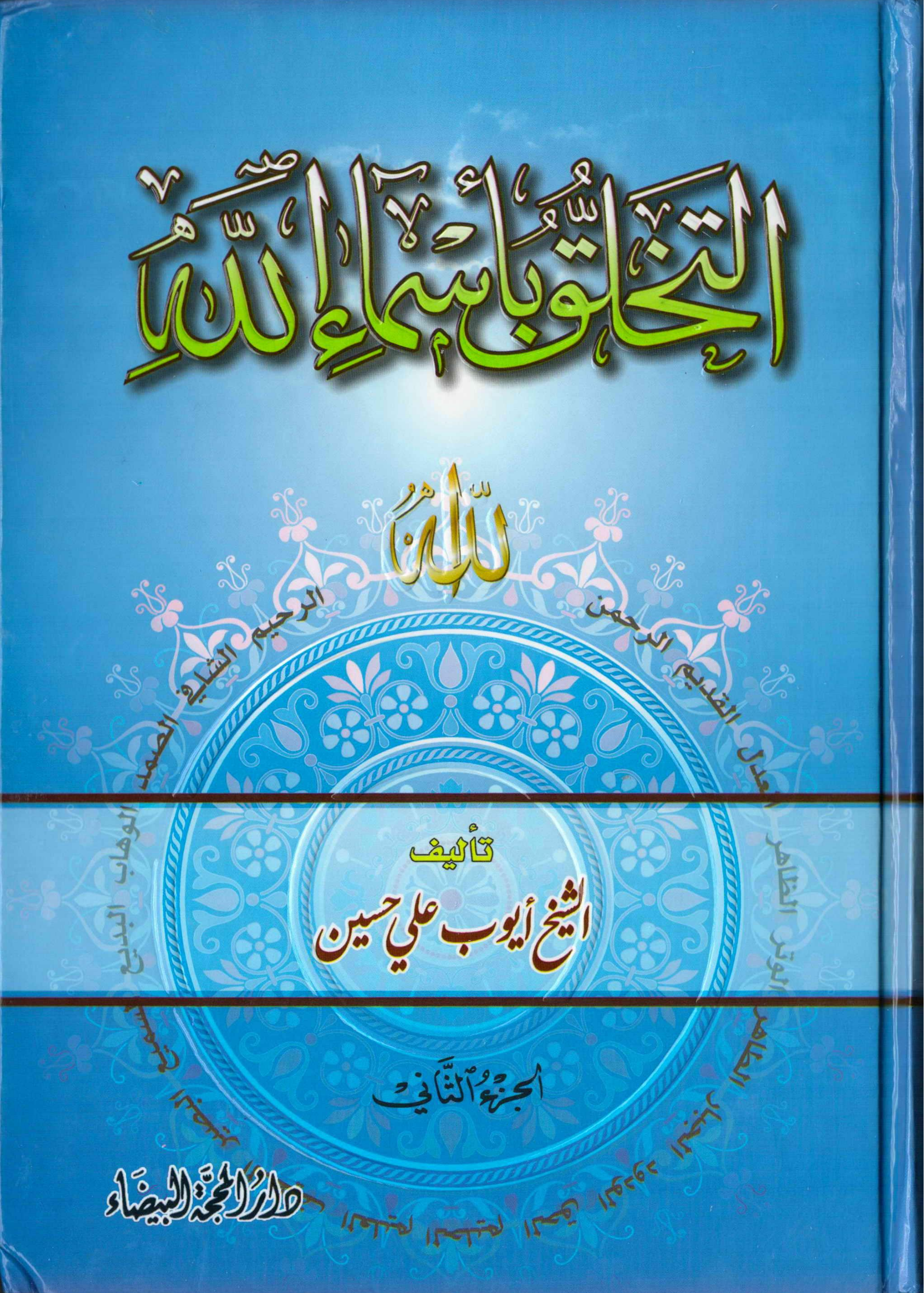
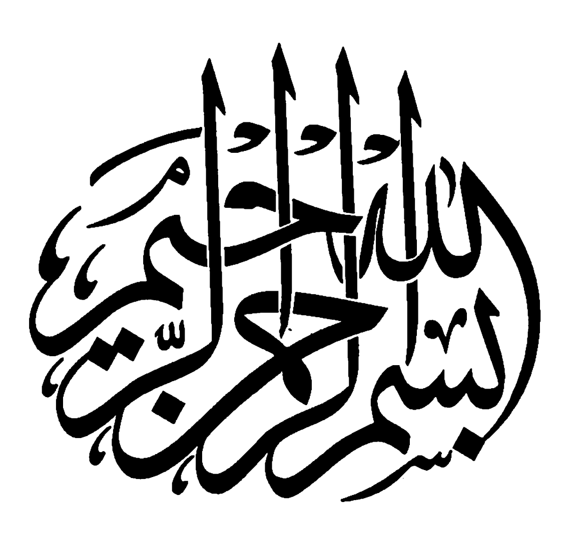


التخلق بأسماء الله
الله
الرحيم
الرحمن
القديم
الشافي
العدل
الصمد
الظاهر
الوهاب
تأليف
الشيخ أيوب علي حسين
الجزء الثاني
دار المحجة البيضاء



التَّخلُّقُ بِأَسْمَآءِ اللّٰه


بسم الله الرحمن الرحيم

التَّخلُّقُ بِأَسْمَاءِ الله

الجُزْءُ الثَّاني

تأليف

أيّوب علي حسين

دار المحجة البيضاء

الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م



الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمّال
ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ ـ هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ ـ ٠١/٥٤١٢١١
تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ ـ E-mail: almahajja@terra.net.lb
www.daralmahaja.com info@daralmahaja.com



الموضوع الثاني والعشرون:

الحَسِيب

١- تجلّيات الحسيب.

٢- العبد والحسيب.

٣- أصناف المحاسبة يوم الحساب.

أ- الّذين يدخلون الجنّة بغير حسابٍ.

ب- الّذين يحاسبون حساباً يسيراً.

حـ- الّذين يحاسبون حساباً عسيراً.

د- الّذين يدخلون النار بغير حسابٍ.

٤- طرق النجاة.

٥- كيف نحاسب أنفسنا؟

٦- العزم على عدم العود.

٧- ذكر الحسيب.

الحَسِيب

قال تعالى: ﴿...وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾[2].

ذكر الشيخ الصدوق رحمه الله لهذا الاسم معانٍ ثلاثة:

«**الأوّل:** الحسيب: معناه أنّه المحصي لكلّ شيءٍ، العالم به، لا يخفى عليه شيءٌ.

الثاني: إنّه المحاسب لعباده، يحاسبهم بأعمالهم، ويجازيهم عليها، وهو فعيلٌ على معنى مفاعِل، مثل جليس ومجالِس.

الثالث: إنّه الكافي، والله حسبي وحسبك، أي كافينا، وأحسبني هذا الشيء أي:

---

(١) سورة النساء: الآية ٦.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٤٧.

كفاني، ومنه قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾[(١)] أي: كافياً»[(٢)].

ونقتصر في الحديث على المعنى الثاني من كلامه رَحِمَهُ اللهُ:

«**فالحسيب**: بمعنى المحاسب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[(٣)]، أي: محاسباً، ولعلّ منه قوله تعالى: ﴿...وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾.

واعلم أنَّ محاسبة الله للعبيد تذكيرهم بما عملوا في الدنيا من الحسنات والسيئات، وتعريف جزاء أعمالهم من الثواب والعقاب، فيرجع ذلك أيضاً إلى صفات الفعل»[(٤)].

تجلّيات الحسيب:

أيّها العزيز، إنّك لتعلم أنّه في يومٍ من الأيام ـ وإنْ بَعُد ـ سوف نُلبّي دعوة الحقّ، فتموت، ونموت جميعاً، فهي سُنَّةٌ كونيّةٌ قدّرها الله تَعَالَى على الخلق، قال تَعَالَى كاشفاً عن تلك السُنّة، وذلك القانون: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ

---

(١) سورة النبأ: الآية ٣٦.

(٢) التوحيد- الشيخ الصدوق، ص٢٠٢.

(٣) سورة الإسراء: الآيتان ١٣،١٤.

(٤) شرح الأسماء الحسنى- الرازي، ص٢٦١.

وَالْإِكْرَامِ﴾[(١)].

وإنّك لتعلم ـ أيضاً ـ بأنّنا سوف نُحشَر بعد الموت للعرض على الله ﷻ في يوم القيامة، وهو يوم الحسرة والندامة، ويوم الجزاء، وهو إمّا جنّةٌ أو نارٌ، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[(٢)].

ولا محالة سوف يدور بيننا وبين بارئنا حوارٌ، وحديثٌ، وحسابٌ، وسوف ينتهي بعتابٍ، أو عقابٍ، أو بمدحٍ، وعطاءٍ في نهاية المطاف.

فهل تصوّرت نوع ذلك الحوار الّذي سوف يكون آجلاً أم عاجلاً؛ لتستعدّ له؛ ولتحظى بالفوز الأبديّ، والنعيم السرمديّ بدل الخسارة الأبديّة، والتعاسة السرمديّة - والعياذ بالله- ؟! إنّ ما بين يديك هي محاولةٌ لبيان جانبٍ يسيرٍ جداً من ذلك الحوار الموعود الحتميّ؛ لتستعدّ له عملاً بعد علمٍ، وبالله نستعين.

إنّ ذلك الحوار ـ الّذي سوف نحاول تخيّله ـ سوف يبدأ بنداء الباري ﷻ لعباده بعد أن يحشرهم، فيقفون بين يدي الله ﷻ بعرصة يوم القيامة. يقول الباري ﷻ: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا

(١) سورة الرحمن: الآيتان ٢٦،٢٧.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٨٥.

تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾(١).

- يقول المنعم الكريم: عبدي، ألم أخلق الدنيا وما فيها من أجلك؟! وقد أخبرتك بذلك، فقلتُ ـ فيما قلتُ لك ـ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾(٢).

- فيقول العبد: نعم، يا ربّي.

- فيقول الباري: ألمْ أقلْ: عبدي هذه النعم كلّها لك، استعملها حلالاً، طيّباً، هنيئاً مريّاً، ولكن حذارِ حذارِ من الشيطان، وخطواته؟! حيث قلتُ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾(٣).

- فيقول العبد: بلى.

- فيقول الباري الحكيم: ألم أبيِّن لك سبب نهيي إيّاك من اتّباع الشيطان، حينما قلتُ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ

---

(١) سورة الصافات الآيات ٢١ – ٢٧.

(٢) سورة لقمان: الآيتان ٢٠،٢١.

(٣) سورة البقرة: الآيتان ١٦٨،١٦٩.

عَلِيمٌ﴾(١)؟!

- وأكّدتُ عليك مرّةً أخرى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾(٢).

- فيقول العبد - بصوتٍ ضعيفٍ -: نعم، قلتَ ذلك.

- فيقول له: ألم أؤكّد عليك مراراً وتكراراً أنّنا سنحييك، ونخرجك من قبرك، ثمّ نريك أعمالك كلّها جميعاً، صالحها، وطالحها، من دون أنْ نترك مثقال ذرّةٍ منها؟! ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾(٣).

- وقلتُ - محذّراً لك من هذا اليوم -: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾(٤).

- فيقول العبد: بلى، ربّي.

- الهادي الحكيم: عبدي، ألم أرسل الرسل هادين، ومهديّين، ومبشّرين،

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٦٨.

(٢) سورة المائدة: الآية ٩١.

(٣) سورة الزلزلة: الآيات ٦-٨.

(٤) سورة الأنبياء: الآية ٤٧.

ومنذرين إليك لهذا اليوم العسير، إتماماً للحجّة عليك: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾(١)؟!

– وقلتُ فيما قلت: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(٢).

– فيقول – عزّ اسمه –: ألم أبيّن أنّ النجاة في اتّباع الأنبياء والرسل في قولي: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٣)؟!

– الحسيب الرقيب: ألم أنصب لك بعد ذلك العلماء، وجعلتهم ورثة الأنبياء، وأمرتهم بالسعي الجادّ، والعمل الدؤوب لتعليمك، وتعليم أمثالك، ويحذّروكم من النار وبئس القرار؟!

– فقلتُ آمراً لهم: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾(٤).

---

(١) سورة النساء: الآية ١٦٥.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢١٣.

(٣) سورة الأنعام: الآية ٤٨.

(٤) سورة التوبة: الآية ١٢٢.

- العبد: نعم، صحيح.

- الحقّ المتعال:إذن أين أنت منهم؟! لِـمَ لمْ أَركَ بينـهم، في مجالسـهم، تـزاحمهم بركبتيك؟!

- العبد: يبكي، ولا ينفع البكاء.

الغفور الرحيم: عبدي، ألَم أفـتح أمامـك طريـق المغفـرة، والرحمـة، والتوبـة، والاستغفار؛ رحمةً بك؛ وحبّاً لك، وقلت: إنِّي توَّابٌ أحبُّ التوّابين؟!

فقلتُ لك: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾(١)؟

فلِمَ لم تَتُبْ، وإلى ربّك تَعُـد؟!!

- الغفور الرحيم: ألم أرغّبك مـرّةً بعـد مـرّةٍ، ووعـدتك بـأنْ أبـدّل سـيّئاتك حسناتٍ؛ لحبّي إيّاك، إن تُبتَ، وعُدت؟! كمـا في سـورة الفرقـان: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾(٢).

- الغفور الرحيم: فـلِـمَ لمْ تعد، وإلى ربك تَتُوب؟! ألم أُقل بعد ذلك: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾(٣)؟!.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٢٢.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٧٠.

(٣) سورة النساء: الآية ١١٠.

- غفّار الذنوب: إذن أين الاستغفار؟! أين الذريعة الّتي أعطيتني إيّاها كي أغفر لك؟!!

- ألستُ بغفّار الذنوب؟! ألستُ أرحم الراحمين؟!

- يطأطئ العبد رأسه خجلاً أمام كلّ هذه النعم الّتي تتراءى بين يديه، ولا يملك جواباً، فيتابع المولى كلامه:

- فأين كنتَ مِنْ كلّ ذلك؟!! ارفع رأسك وأجبني.

- العبد: يخرّ على الأرض، باكياً، نادماً، فلا جواب يمكن أن يجيب به، ولا عذر له فيعتذر، يبكي أسفاً، يمرّغ وجهه على الأرض؛ لما فرّطه في دهره وأوقاته، ولكن هلْ ينفع الأسف والندم؟!

- الهادي اللطيف: يا فلان، أسمعت ندائي ودعوتي إيّاك بامتثال الأحكام الشرعيّة؟! والتقيّد بشرع الإسلام الحنيف؟! وأنْ لا تموتُنّ إلا وأنتم مسلمون؟! أسمعت هذا الخطاب: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾(١)؟!.

وقولي: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(٢)؟!.

العبد: منكوس الرأس، جالسٌ خجلٌ، لا يقوى على القيام، ولا يعرف إلاّ

---

(١) سورة النساء: الآية ١٢٥.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٨٥.

البكاء جواباً.

- العدل الحكم: قُمْ، فلا ينفع البكاء، انهض: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[1].

- العبد: يصرخ من أمِّ رأسه، ولم يُعهد له أنْ صرخ مثل ذلك من قبل، يبكي بدل الدموع دماً، ولكن لا ينفع البكاء، ينظر إلى كتابه، وفيه ما فيه من الذنوب، والتجاوزات، قائلاً بلسان الحال - أو المقال -: ﴿يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[2].

- العبد: إلهي، وسيّدي، ومولاي، الشيطان قد أغواني، وخدعني، جعلني متهاوناً بالأحكام، بالصلاة، والصيام، وحقوق الناس، هو المقصِّر، نعم، هو...

- الشيطان: إلهي، وربّي، إنّك تعلم، وهو يعلم أنّي لم أجبر العباد على معصيتك؛ إذ لا أملك القدرة والسلطة عليهم لإجبارهم على مخالفتك، ولكنّ سلاحي الوحيد هو الوسوسة لهم، فلِمَ انقادوا لوساوسي واقتراحاتي الشيطانيّة؟! ألمْ يعلم قبل الفعل - وحينه، وبعده - أنّها شيطانيّة؟! لماذا انصاع وأطاع تلك الوساوس؟! ولَمْ يصغِ إلى آياتك، وأمرك، ونهيك؟! ولإرشادات الأنبياء والأوصياء عليهم السلام؟! أو إلى إلهامات قلبه؟!

---

(١) سورة الإسراء: الآية ١٤.

(٢) سورة الكهف: الآية ٤٩.

إنّه كذّابٌ، وعُذره واهٍ واه! ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[(١)].

- العدل الحكم: أيّها العبد، ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[(٢)].

﴿هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ (٣٥) وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٧) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالأَوَّلِينَ (٣٨) فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (٣٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾[(٣)].

- العبد: يقف مبهوتاً من جواب إبليس، ودليله المنطقيّ، يبحث عن العذر، فلا يجد ما يعتذر به، ويبحث عن مفرٍّ، ولا مفرّ له.

- نداء الحقّ: أيّها العبد اللئيم، كم وكم حذّرتك من أنْ يستحوذ عليك الشيطان وجنوده، وبأنْ لا تجعله قرين سوءٍ لك؟! ألم أحذّرك من نسيان ذكري، والاغترار بالشيطان؟! فلِمَ أصبحتَ له جنديّاً ولبّيتَ نداءه؟! ولم تلبِّ ندائي الّذي فيه كلّ الخير والصلاح لك، ألم أقل: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ

---

(١) سورة إبراهيم: ٢٢.

(٢) سورة الإسراء: الآية ١٤.

(٣) سورة المرسلات: الآيات ٣٥- ٤٠.

بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (٣٨) وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾[١]؟!.

- ألم أبيّن في القرآن عاقبة استحواذ الشيطان عليكم، ونسيانكم ذكري: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٢]؟!

- المتكبِّر الجبّار: قُم، ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[٣].

- العبد: يريد أنْ يقرأ، فلا يستطيع، وماذا يقرأ؟! مخالفاتٌ صريحةٌ وجريئةٌ لجبّار السماوات والأرض؟! أم يقرأ تلك الذنوب والمعاصي الّتي واجهه بها الله في خلواته، وقد سترها الله عليه؟! أو يعترف أنّه جابهَ الخير بالشرّ، والنعمة بالإساءة، وتقوّى بها على المعصية؟!

---

(١) سورة الزخرف: الآيات ٣٦- ٣٩.

(٢) سورة المجادلة: الآية ١٩- ٢٢.

(٣) سورة الإسراء: الآية ١٤.

ولعلّه يريد أنْ يُنكر أنَّ هذه من أفعاله، فلعلّ الحيلة والإنكار ينفعه.

- وإذا بالرقيب والعدل يقول له قبل أنْ يتفوّه: ألم أكن الشاهد عليك؟! اسكت، لا داعي للكلام، فنحن عن كلامك في غنىً هذا اليوم، ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[١].

﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٢].

ثمّ يتمّ المولى عتابه: عبدي: أليستْ هذه نعمي الّتي أنعمتُ بها عليك؛ لتيسّر بها أمورك؟! وكنت بها في خيرٍ وعافيةٍ، لم تحتج لغيرك؟!

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٣]، وغيرها الكثير الكثير، ثمّ حذّرتك من أنْ تستعملها في معصيتي، ألم أحذّرك قائلاً: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾[٤]؟!

- العبد اللئيم: إلهي، نفسي خلقتَها ضعيفةً، تميل إلى المعاصي والذنوب، فما

---

(١) سورة النور: الآية ٢٤.

(٢) سورة فصلت: الاية ٢١.

(٣) سورة النحل: الآية ٧٨.

(٤) سورة الإسراء: الآية ٣٦.

ذنبي أنْ كانت ضعيفةً وخطَّاءةً؟

- الملك الحقّ: عجباً منك! ومن برهانك وذريعتك!! أتُعيب على خلقي وصنعي؟! وأنا الصانع، الخبير، اللطيف، الحكيم، العليم! ألم تأمرك بفعل الخيرات، وتحثّك على الصالحات، والمبرَّات؛ لتفوز بجنّة المأوى، فلم تصغِ لها؟! ألستُ أنا مَنْ سوّاها، وخلقها: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[1].

أليستْ هذه النفس هي الّتي كانت عند الأبرار والمتّقين؟! فنهوها عن الرذائل، فنالوا مرتبة النفس المطمئنة، وفازوا بالجنان الّتي خلقتُها لكم، أين أنت من قولي: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[2]؟!

وقد مدحتها قائلاً: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[3].

- شديد العقاب: يا لئيم، يا فاسق، يا منافق، يا عاصي، قلت لك: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[4].

---

(١) سورة الشمس: الآيات ٨- ١٠.

(٢) سورة النازعات: الآيتان ٤١،٤٠.

(٣) سورة الفجر: الآيات ٢٧-٣٠.

(٤) سورة الشمس: الآية ١٠.

– المنتقم الجبار: خذوا هذا الفاسق الفاجر، والمتجاسر بالمعاصي والذنوب، ثمّ اجعلوا عليه السلاسل والأغلال في رقبته، ويديه، ورجليه، وارموا به في النار بذلٍ، وهوانٍ.

– العبد الخاسر: يقع على الأرض، وكاد أنْ يُغشى عليه من هول العذاب الّذي كُشِفَ له، قد خارت قواه، فلا يقدر على حركةٍ، ينظر إلى صحيفة أعماله الّتي أُعطي بشماله، ويتأمّل في ماضيه نظرةً خاطفةً، يتمنّى أنْ لم تكن منه هذه الذنوب، أو لم تُعْطَ له تلك الشهادة المخزية، ولم تنكشف له تلك الفعال القباح.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾[١].

يتمنّى لو كانت تلك الموتة الّتي ماتها في الدنيا أنّها كانت هي النهاية والخاتمة، بعد أنْ كان لا يحبّ الموت، ولا التفكّر فيه، ولسان حاله يقول: ﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾[٢].

– ينظر إلى تلك الأموال الّتي سعى من أجل تحصيلها بكلّ الوسائل المشروعة وغير المشروعة، ولم يؤدِّ حقوقها؛ حرصاً عليها؛ لأنّها سبب الغنى والسعادة الحقيقية، الآن كُشف له حقيقة الأمر، أنْ لا خير فيها ما لم تكن في مرضاة الله تعالى.

فيقول: ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ﴾[٣]؟!

---

(١) سورة الحاقة: الآيتان ٢٥،٢٦.

(٢) سورة الحاقة: الآية ٢٧.

(٣) سورة الحاقة: الآية ٢٨.

ويرجع وينظر إلى الوجاهة الّتي كان يسعى لها، بكـل مكـرٍ، وحيلـةٍ، وغـشٍّ، فيجد أنّها كذلك لم تنفعه، هنا، يقول: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾(١).

- يخاطب الجبّارُ ملائكته قـائلاً: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ﴾(٢).

العبد اللئيم: ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ...﴾(٣).

المولى ﷻ: ﴿...كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ

---

(١) سورة الحاقة: الآية ٢٩.

(٢) سورة الحاقة: الآيات ٣٠-٣٧.

(٣) سورة المؤمنون: الآيتان ٩٩،١٠٠.

(١٠٩) فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ﴾[1].

نعم، خلاصة مطاف المجرمين: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾[2].

ولكنّ الحال بالنسبة إلى الأبرار، والأتقياء، وخيار المؤمنين ليست كذلك؛ فإنَّ نهاية مطافهم سعيدةٌ، كما كانت بدايتها كذلك، حيث إنَّهم - بعد العرض على الله تعالى- يقفون هناك بكلّ بهجةٍ، وسرورٍ، وافتخارٍ.

وكيف لا يقف المطيع لربّه موقف المبتهج والمسرور، وقد رضي الله عنه، وقد أعطاه الله كتابه بيمينه؟! إنَّ المؤمن لينظر إلى أعماله فيرى أنّ تعبه وجهده في طاعة ربّه قد حُفظ له بتمامه، بل يرى أنّه أُعطي أفضل ممّا يستحقّ، ولله المنّة عليه، إنّه حين يرى ما أُعطي عوض تلك الأعمال الّتي وفّقه الله ﷻ إليها، وقوّاه عليها، يصرخ صرخة سرورٍ وفرحٍ؛ لما تجلّى له من الفوز العظيم الّذي ليس فوقه فوزٌ ولا نعيمٌ، ينادي بأعلى صوته - ولم يُعهد له أن صرخ في دنياه كهذه الصرخة- بصرخة سرورٍ، وفوزٍ حقيقيٍّ أبديٍّ.

- ينادي: يا أهلَ المحشر: انظروا إلى صحيفة أعمالي، انظروا إلى جِدِّي وسعيي في دار الشقاء، ودار التجارة والفناء، كم كنت حريصاً في جمع الخيرات ذرَّةً بعد ذرّةٍ، وحسنةً بعد حسنةٍ، حتّى ألقى الله وهو عني راضٍ، ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ

---

(١) سورة المؤمنون: الآيات ١٠٣- ١١٠.

(٢) سورة طه: الآية ٧٤.

هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾[(١)].

فإنّي -على خلاف الكثير الكثير من البشر- كنت على يقينٍ تامٍّ أنَّ عملي سيعرض على الله – تعالى – في يوم الحسرة والندامة، فعملت، وعملت جاهداً حتّى لا أرى الحسرة أو الندامة في هذا الموقف، هذه نتيجة الاستعداد لهذا اليوم العظيم، إذ العاقبة للمتّقين فقط.

﴿ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ﴾[(٢)].

إنّه – وبفضل الله ﷻ، وبسبب هذا اليقين، والعمل الدؤوب – تكون النتيجة أنَّه في عيشةٍ راضيةٍ، رضاً لا يمكن أنْ يوصف في الدنيا؛ حيث البشر فيها لا يعرفون الرضا حقيقةً؛ حيث إنهم – ومع كلّ ما أعطوا من الخيرات والثروات – تراهم يطلبون المزيد والمزيد، في أيّ حقلٍ من حقول الحياة، سواء كان في العلم، أو التجارة، أو المناصب، أو غير ذلك، لذا فإنَّ هذا المؤمن سيكون في عيشةٍ راضيةٍ، ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾[(٣)]، في الجنان، ولكن ليس أيّ جنانٍ، بل في أرقى مراتب الجنان، حيث لكلّ عملٍ درجةٌ، ولكلّ صالحٍ مقامٌ، وهذا الورع المثابر في الخيرات لم يكن كأيّ إنسانٍ، إنّه لم يعرف الاستراحة إلا في القبر، فكان يقول: إنَّ في القبر لوقتٌ طويلٌ للنوم والاستراحة، أمّا اليوم فيوم عملٍ لا كسلٍ، لذا كان عطاؤه عطاءً

---

(١) سورة الحاقة: الآية١٩.

(٢) سورة الحاقة: الآية ٢٠.

(٣) سورة الحاقة: الآية٢١.

غير طبيعيٍّ، مخالفاً لكثيرٍ من الناس، فاستحقّ أنْ يكون...﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾(١).

إنّ مِن جملة أوصاف تلك الجنة أنَّ كلّ شيءٍ هناك يكون في خدمة المؤمن، بعد أنْ كان في الدنيا في خدمة المؤمنين، والصالحين، والفقراء، والمحتاجين، فتبدّلت الأمور هناك، حتّى ثمارها ستكون في خدمته، قريبةً من يديه؛ حتّى لا يشقّ على نفسه مؤونة الاقتطاف، فياله من نعيمٍ، ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾(٢).

ويكتمل المشهد سروراً وسعادةً ـ والّذي هو بمثابة ملح الزاد ـ حينما يسمعون كلام الحقّ الّذي لا يوصف جمال ندائه، نداءٌ ملْؤه الحنان، والحبّ، والتقدير لكلّ جهدٍ بذلوه، أو أمرٍ أو نهيٍ امتثلوه، قد هيّئ لهم وسائل الرفاهية، والنعيم السرمد، يخاطبهم ربّ الجلال: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾(٣).

العبد والحسيب:

عزيزي، لعلّه غير خافٍ عليك أنَّ تفعيل حظٍّ العبد من هذا الاسم الشريف إنّما يكون من خلال محاسبة النفس قبل أنْ تُحاسب، وقبل أنْ يندم الإنسان ولا ينفع الندم، وهذا طبيعيٌّ لمن أراد الارتقاء أو الربح من دون خسارةٍ؛ فإنّه عليه أنْ يلتفت إلى موارد الخسارة والضرر، ويبحث عن موارد الربح والفائدة؛ كي ينال أعلى نسب الربح والفائدة، هكذا ينبغي أنْ تتعامل مع الأحكام الشرعيّة، فمواقع الخسارة هي

---

(١) سورة الحاقة: الآية ٢٢.

(٢) سورة الحاقة: الآية ٢٣.

(٣) سورة الحاقة: الآية ٢٤.

على مراتب عدّة، أعلاها وأعظمها الشرك بالله تعالى، ثمّ تتدرج شيئاً فشيئاً، وتبدأ من فعل المحرمات، وهو تمرّدٌ صارخٌ على الله تعالى، وكلّما كانت المعصية والحرمة أشدّ، كانت العاقبة والمآخذة أشدّ وأعظم، ثمّ تعاطي المكروهات الّتي كان في تركها أجرٌ، أو زيادة ثوابٍ وتقرّبٍ لله تعالى، وبعدهما هو الانشغال بالمباحات الّتي لا خير في كثيرٍ منها إلا التعب والعناء، فإذا كان يوم القيامة تجد العبد باكياً لِما فرّط وضيّع من أوقات، وما اكتسب من آثامٍ، نستجير بالله – تعالى – من ذلك اليوم.

أمّا موارد الفوز والربح فهي كثيرةٌ جدّاً، وأهمّها وأبرزها عبادة الواحد القهّار، وامتثال الواجبات، ثمّ الإكثار من فعل المستحبّات، والتقليل من فعل المباحات الّتي لا جدوى من ورائها، فإنّ التاجر الكيِّس هو الّذي لا ينشغل إلاّ في الأمور الضروريّة الموجبة للربح، أو ينشغل بما يزيد في الربح، وإنْ كان يسيراً، ولا يضيّع وقته في الجلوس في المقاهي، أو مشاهدة التلفاز، وغير ذلك؛ لأنّه يؤمن أنَّ وقته ثمينٌ، ولذا تجد أنَّ التاجر الكيِّس لا يكتفي بدوامه الرسميّ كغيره، بل تجد أنّ حياته كلّها تجارةٌ، فلو استطاع أنْ لا ينام – من شدّة حرصه على التجارة والفائدة – لَفَعَل، وهكذا هم عشّاق الله، بل لا يقاس هؤلاء العظماء بتجّار الدنيا؛ حيث تجارتهم أربح تجارةٍ، وأشرف معاملةٍ عرفتها البشر.

فكيف يكون التاجر أعلا همّةً منهم، وأقوى عزيمةً؟! وهي تجارةٌ مخلوطةٌ بالشبهات والمكدّرات، وأعلا امتيازٍ لها أنّها مربحةٌ لدار الفناء في جانبها المالي، أمّا المتاجرة مع الله فهي تجارةٌ رابحةٌ في النشأتين، تعلّقٌ تامٌّ بالله، سُكُونٌ وطمأنينةٌ عاليةٌ لا يعرفها التجّار ولا غيرهم، خدمةٌ للعباد بأعلى المستويات، سرورٌ ورضا لا يعرفه إلا هم، فكيف يعرف ذلك تجّار الدنيا، وهم بين همٍّ وغمٍّ لتجارةٍ خاسرةٍ، أو ربحٍ

طال انتظاره بالخوف والجزع؟! فتجارة الآخرة هي التجارة، وتجّارها هم التجّار، ولا يدرك ذلك إلا ذو حظٍّ عظيمٍ.

وحتّى ينال العبد هذا المقام لا بدَّ من محاسبة النفس بأشدّ مراتبها، كما يحاسب التاجر شريكه، ففي الخبر عن رسول الله ﷺ: «**لا يكون الرجل من المتّقين حتّى يحاسب نفسه أشدَّ من محاسبة الشريك شريكه، فيعلم مِن أين مطعمه؟ ومِن أين مشربه؟ ومِن أين ملبسه؟ أمِنْ حلٍّ ذلك أم حرامٍ؟**»(١).

فكما أنَّ المحاسبة هي شعار التاجر الكيِّس، فإنّها أيضاً شعار المؤمن الكيِّس والفطن، وسمته، الّذي لم يعتمد على الأماني الباطلة، فقد قضى الله – تعالى – أنْ يكون الجزاء بالأعمال، لا بالتسويف، والأماني الباطلة الّتي هي ديدن البلهاء والحمقى، كما في روايةٍ عن رسول الله ﷺ ،يكشف الستار بها عن هذا الأمر قائلاً: «**أكيس الكيّسين مَنْ حاسب نفسه، وعمل لما بعد الموت، وأحمق الحمقاء مَنْ اتّبع هواه، وتمنّى على الله الأماني**»(٢).

أصناف المحاسبة يوم الحساب:

واعلم ـ أيّها الحبيب ـ أنَّ البشر في يوم القيامة – ولقاء الله تعالى – على طوائف عدّة، وهو رهن سلوك العبد في دار الدنيا، ونتاجٌ طبيعيٌّ لكيفيّة أعمالهم فيها، وهم – باختصارٍ – ينقسمون إلى هذه الطوائف:

---

(١) ميزان الحكمة – الشيخ محمد الري الشهري ج٢، ص ٤٠٨،ح٣٨٤٧.

(٢) ميزان الحكمة – الشيخ محمد الري الشهري ج٢، ص ٤٠٥، ح٣٨٣٧.

أ- الّذين يدخلون الجنّة بغير حسابٍ:

وهم أهل الورع والتقوى، وأصحاب الجدّ والسعي الحثيثين في الدنيا، والصبر والرضا، الّذين ابتعدوا عن كلّ شبهةٍ وحرامٍ، وسعوا لكلّ ما من شأنه أنْ يُقرِّبَ إلى الله تعالى، أصحاب الصبر والعزيمة، وأهل الحياء في السر والعلن، وهم الراضون باليسير من الرزق، الزاهدون في متاع الدنيا، والقانعون بما آتاهم ربّهم، وهذه الصفات – وغيرها– هي الّتي ميّزتهم عن غيرهم في يوم القيامة:

رُوي عن النبيّ ﷺ: **«إذا كان يوم القيامة أنبت الله تعالى لطائفةٍ من أمّتي أجنحةً، فيطيرون من قبورهم إلى الجنان، يسرحون فيها، ويتنعّمون كيف شاؤوا.**

فتقول لهم الملائكة: هل رأيتم الحساب؟

فيقولون: ما رأينا حساباً.

فيقولون: هل جُزتم الصراط؟

فيقولون: ما رأينا صراطاً.

فيقولون: هل رأيتم جهنّم؟

فيقولون: ما رأينا شيئاً.

فتقول الملائكة: مِنْ أمّة مَنْ أنتم؟

فيقولون: مِنْ أمّة محمّدٍ ﷺ.

فيقولون: نشدناكم الله، حدّثونا ما كانت أعمالكم في الدنيا؟

فيقولون: خصلتان كانتا فينا، فبلّغنا الله هذه الدرجة بفضل رحمته.

فيقولون: وما هما؟

فيقولون: كنّا إذا خلونا نستحي أنْ نعصيه، ونرضى باليسير مما قسم لنا.

فتقول الملائكة: حقٌّ لكم هذا(١).

وهي مرتبة الثلّة القليلة في كلّ زمانٍ، والعملة النادرة، رزقنا الله بفضله وبجوده وكرمه هذا المقام الشريف.

قال تعالى - مادحاً إيّاهم -:

﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٢)»(٣).

ب- الّذين يحاسبون حساباً يسيراً:

وهم أصحاب الخلق الرفيع، الّذين يعفون عن المسيئين، ويصِلُون من قطعهم، ويعفون عمّن ظلمهم، وما ذلك إلا لأنّهم يحبّون أنْ يعفو الله عنهم، وأرادوا أنْ يتخلّقوا بأخلاق الله، فقد يرتكبون ما يرتكبه بعض المتمرّدين والعصاة، ولكن سرعان ما أنْ يعودوا ويتوبوا إلى الباري ﷻ من تلك التقصيرات؛ لعلمهم أنَّ باب

---

(١) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ١٠٠، ص ٢٥، ح ٣١.

(٢) سورة الزمر: الآية ١٠.

(٣) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٧، ص٩٦.

التوبة والإنابة مفتوحٌ لهم؛ رحمةً من الباري لهم ولأمثالهم.

فمن هيمَنَ عليه فعل الخيرات، والخُلُق الحسن، ولم ينظر إلى اللذات، كان منهم -إن شاء الله تعالى-، وقد رُوي عمّن بُعث لتتميم مكارم الأخلاق صلى الله عليه وآله في أوصاف هؤلاء أنّه قال: «**ثلاثٌ مَنْ كنّ فيه حاسبه الله حساباً يسيراً، وأدخله الجنّة برحمته.**

قالوا: وما هي يا رسول الله؟

قال: تعطي مَنْ حرمك، وتصل مَنْ قطعك، وتعفو عمّنْ ظلمك»[1].

ومن جملة ما يخفّف الحساب يوم الحساب هي القناعة، وصلة الرحم، وحسن الخلق -كما ورد في الأخبار[2]-، وخصوصاً إدخال السرور في قلوب المؤمنين بشتّى الوسائل، كما عن أبي عبد الله عليه السلام في حديثٍ طويلٍ: «**إذا بعث الله المؤمن خرج معه مثالٌ يقدّمه أمامه، كلّما رأى المؤمن هولاً من أهوال يوم القيامة قال له المثال: لا تفزع، ولا تحزن، وأبشر بالسرور والكرامة من الله عزّ وجلّ، حتّى يقف بين يدي الله، فيحاسبه حساباً يسيراً، ويأمر به إلى الجنّة، والمثال أمامه.**

فيقول له المؤمن: يرحمك الله، نِعْمَ الخارج، خرجت معي من قبري، ما زلتَ تبشّرني بالسرور والكرامة من الله، حتّى رأيت ذلك، فمَنْ أنت؟

فيقول: أنا السرور الّذي كنتَ أدخلتَه على أخيك المؤمن في الدنيا، خلقني الله

---

(١) تفسير نور الثقلين- الشيخ الحويزي، ص ٥٣٧، ح١٢.

(٢) راجع ميزان الحكمة- الشيخ محمد الري الشهري ج٢، ص٤١٣،ح٣٨٦٩، ح٣٨٧١، ح ٣٨٧٣.

منه؛ لأبشّرك»(١).

أيّها العزيز، اسعَ أنْ يكون مآل أمرك من هذا القبيل، وها هـو الـرحيم الكـريم يرغّبك في الكدّ والسعي لعاقبةٍ منقطعة النظير، سرورٌ سرمديٌّ، ونعيمٌ لا ينتهي.

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾(٢).

ج- الّذين يحاسبون حساباً عسيراً:

إنّه لمن المؤلم أنْ أقول بأنّ هذا هو مصير أكثر أهل الإسلام، والسواد الأعظم من المؤمنين؛ وذلك لعدم اهتمامهم البالغ بالأحكام الشرعيّة المتمثّلة بحقوق الله، وحقـوق الناس، ولذلك سوف يتجلّى لهم في ذلك الموقف كم كانت غفلتهم عـن هـذا اليـوم الشديد والعسير كبيرةً، حينما تعرض الأعمال، والصحف، والكتـب، وحـين يعطـي البعض كتابه وقد كثـرت فيـه المعاصـي، والتجـاوزات الشـرعية، واختلطـت مـع الحسنات، قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾(٣).

---

(١) وسائل الشيعة- الشيخ الحر العاملي ج ١٦، ص ٣٥٢، ح١٠.

(٢) سورة الانشقاق: الآيات ٦- ٩.

(٣) سورة الكهف: الآية ٤٩.

وهنالك يبصر ببصرٍ من حديد كم أنّه فـرّط في جنـب الله، وينكشـف لأهـل الجرم والمعاصي مآل الاستخفاف بالدين والتديّن، ويرى عاقبة ما كان زاهداً فيه من طاعةٍ، وامتثالِ لحكم الله تعالى.

ونماذج الاستخفاف بالأحكام الشرعيّة كثيرةٌ لا حصر لها، نكتفي بثلاثة مـوارد منها؛ للاختصار:

١ - ما ورد عن محمّد بن مسلم قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿...سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ...﴾(١) فقال: «**يا محمّد، ما من أحدٍ يمنع مـن زكـاة ماله شيئاً إلا جعل الله ذلك يوم القيامة ثعباناً من نارٍ مطوّقاً في عنقه، ينـهش مـن لحمه حتّى يفرغ من الحساب، ثمّ قال: هو قول الله عزّ وجلّ : ﴿...سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ...﴾ يعني: ما بخلوا به من الزكاة**»(٢).

وليست الزكاة إلاّ مفردةً من مفردات الحقوق الماليّة، فليس من البعيد أنْ يكون هذا مآل مَنْ منع الخمس، وغير ذلك من الحقوق الماليّة.

٢- سوء الخُلق المُفْرِط، والاستعلاء على الآخرين، واستحقارهم، مـن الكبـائر الّتي لها سوء العقاب في يوم الحساب، كما عن داود بن فرقد، عن أخيه قال: سمعـت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**إنّ المتكبّرين يجعلون في صور الذرّ، يتوطّؤهم الناس حتّى**

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٨٠.

(٢) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٧، ص ١٩٥، ح٦٥.

يفرغ الله من الحساب»[١].

٣- الاستخفاف بحقوق الآخرين، والتعدّي عليها، من أمّهات الحقوق الّتي يؤاخذ بها العبد في ذلك اليوم، فقد يتجاوز الله عن حقّه، ولكنّ حقّ الناس بيد الناس، وهذا منشأ شدّة مؤاخذته بأشدّ أنواع الحساب يوم القيامة، كما هو واضحٌ في رواية يونس بن ظبيان، حيث قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: **«يا يونس، مَنْ حبس حقّ المؤمن أقامه الله عزّ وجلّ يوم القيامة خمسمائة عام على رجليه، حتّى يسيل عرقه أو دمه، وينادي منادٍ من عند الله: هذا الظالم الّذي حبس عن الله حقّه، قال: فيوبّخ أربعين يوماً، ثمّ يؤمر به إلى النار»**[٢].

فما بعد عسر الحساب إلا النار وبئس القرار، نستجير بالله تعالى، وذلك بخلاف مَن يفوزون بالجنان - في آخر المطاف - بلطفٍ من الله تعالى، أو بشفاعة الشافعين، رزقنا الله إيّاهما، وهو ما يظهر من النصوص، قال تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٣].

د- الّذين يدخلون النار بغير حسابٍ:

وهم الكفّار، والمشركون، وأهل الكبائر، والمنافقون، والفجّار، المتجاهرون بالمعاصي والآثام، أهل الفسق والفجور، والدعارة والزنا، وقد لقوا الله على ما هم

---

(١) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٧، ص ٢٠١، ح٧٩.

(٢) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٧، ص ٢٠١، ح٨٤.

(٣) سورة التوبة: الآية ١٠٢.

عليه، ولم يُنيبوا - أو يتوبوا - في دار الدنيا، أولئك لا ينظر الله لهم، ولا ينصب لهم ميزاناً، ولا حساباً، وإنّما يؤخذون إلى النار مباشرةً؛ وذلك لوضوح أعمالهم؛ وسوابق أفعالهم، أنْ لا عهد لهم بربٍّ معبودٍ، وكتابٍ منشورٍ، بل عهدهم بشيطانٍ معبودٍ، وهوى متبوعٍ، فكان نتاج ذلك أنْ كانوا في النار خالدين ومحشورين، وبالأصفاد مغلولين.

ذلك ـ أيضاً ـ لأنّهم لم يعتنوا بمكسبهم من أيّ طريقٍ اكتسبوه، أمِنَ الحلال أم الحرام والشبهة؟! وكانوا من أهل الحسد، والخيانة، والظلم، والجور، والعصبية المفرطة، وَمَنْ آذى المؤمنين الأخيار، فليتبوّأ مقعده معهم في قعر جهنم، وبئس القرار.

ففي وصيّة النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**يا أبا ذرّ، مَنْ لم يبال مِنْ أين اكتسب المال لم يبالِ الله مِنْ أين أدخله النار**»(١).

وعنه صلى الله عليه وآله: «**ستّةٌ يدخلون النار قبل الحساب بستّةٍ.**

قيل: يا رسول الله، مَنْ هم؟

قال: الأمراء بالجور، والعرب بالعصبية، والدهاقين بالكبر، والتجّار بالخيانة، وأهل الرستاق بالجهالة، والعلماء بالحسد»(٢).

وعن أبي عبد الله عليه السلام: «إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: أين الصدود لأوليائي؟

---

(١) وسائل الشيعة - الشيخ الحر العاملي ج ١٦، ص ٩٨،ح٧.

(٢) منية المريد - الشهيد الثاني، ص٣٢٤.

فيقوم قومٌ ليس على وجوههم لحمٌ.

فيُقال: هؤلاء الّذين آذوا المؤمنين، ونصبوا لهم، وعاندوهم، وعنّفوهم في دينهم، ثمّ يؤمر بهم إلى جهنّم»[١].

طريق النجاة:

إنَّ الإنسان حينما تنكشف له بعض تلك الأهوال ليوم القيامة، يبحث عن وسائل النجاة من ذلك اليوم العسير، ولا أنجع - ولا أفضل - من محاسبة الإنسان نفسه في الدنيا قبل أنْ يحاسب ويعاقب، فمَنْ حاسبها أفلح، وفاز، ومَنْ تركها خاب، وخسر خسراناً مبيناً.

هذا مع بديهيّتها، إلا أنَّ العاملين بها قليلون، بل نادرون في كلّ زمانٍ:

ولو أنّا إذا متنا تركنا   لكان الموت راحة كلّ حيّ

ولكنّا إذا متنا بعثنا   ونُسأل بعده عن كلّ شيّء[٢]

كيف نحاسب أنفسنا؟

عن عليٍّ عليه السلام، عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: «**أكيس الكيّسين مَنْ حاسب نفسه، وعمل لما بعد الموت.**

فقال رجلٌ: يا أمير المؤمنين، كيف يحاسب نفسه؟

---

(١) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٧، ص٢٠١،ح ٨٢.

(٢) محاسبة النفس- الشيخ إبراهيم الكفعمي، ص ٤٠.

قال: إذا أصبح ثمّ أمسى رجع إلى نفسه.

وقال: يا نفسي، إنَّ هذا يومٌ مضى عليكِ، لا يعود إليكِ أبداً، والله يسألكِ عنه بما أفنيتِه، فما الّذي عملتِ فيه؟ أذكرتِ الله أم حمدته؟ أقضيت حوائج مؤمنٍ فيه؟ أنفّستِ عنه كربةً؟ أحفظتِه بظهر الغيب في أهله وولده؟ أحفظتِه بعد الموت في مخلّفيه؟ أكففتِ عن غيبة أخٍ مؤمنٍ؟ أأعنتِ مسلماً؟ ما الّذي صنعتِ فيه؟ فيذكر ما كان منه، فإنْ ذكر أنَّه جرى منه خيرٌ حمد الله، وكبّره على توفيقه، وإنْ ذكر معصيةً أو تقصيراً، استغفر الله، وعزم على ترك معاودته»[1].

العزم على عدم العَوْد:

قيل: «الوقاية خيرٌ من العلاج»، وقالوا: «ترك الذنب ولا الاستغفار»، فإذا رأى العبد المحاسب نفسه أنَّه قد فعل محرّماً من المحرّمات، وجب عليه الاستغفار والتوبة؛ لدرأ العواقب الوخيمة، والمفاسد المترتّبة على المعصية والمخالفة، وحيث إنَّ التوبة والاستغفار بمنزلة العلاج للمعصية، فترك أسباب المرض أفضل من علاجها، فكم مِنْ مريضٍ لم ينفع معه العلاج؟! وكم مِنْ عاصٍ لم يوفّق للتوبة والاستغفار؟! ومع توبته لا يعرف أنَّهما قد قبلتا أم لا، وهل سيؤاخذ ويعاقب على معاصيه العظام أم لا؟

فالطريق الأمثل أنْ يعزم أنْ لا يعود إلى المعصية بتاتاً، ويراقب نفسه في كلّ حركاته وسكناته بدقّةٍ فائقة، وليعلم أنَّ جوارحه، وملكَيه، والله مِنْ ورائهم شاهدٌ على أفعاله، محيطٌ به، وقبيحٌ أنْ يعصي الله في محضره وحضوره ﷻ.

---

(١) وسائل الشيعة – الشيخ الحر العاملي ج ٦١، ص ٩٨،ح٨.

وليذكّر نفسه دائماً أنّه ملاقي الله – تعالى – في يومٍ لا ريب فيه، وأنّ تلك المعاصي والذنوب هي أسباب التعاسة والخسران في النشأتين، وأنّ ما يناله العبد من كرامةٍ، وتوفيقٍ، وقُربٍ من الله – تعالى – في النشأتين، هما أعظم النعم والسعادات.

ثمّ إيّاك إيّاك أنْ تضعف أمام وساوس الشيطان، والنفس الأمّارة بالسوء، فيقول لك: إنّه من الصعب أنْ لا أعصي طول عمري، بل من المستحيل.

فقل لهما بكلّ جرأةٍ وشجاعةٍ: إنّ هناك الكثير الكثير ممّن كان في معسكر الفسق والفجور، فتحوّل إلى معسكر الأولياء والأبدال، ونال مقام العصمة المكتسبة، بعزمٍ راسخٍ، فنالوا بذلك كرامة الدنيا والآخرة(١).

وهذه العزيمة مودعةٌ في كلّ البشر، وهي جوهرة الإنسان الّتي بها صار الإنسان إنساناً، وبها نمتاز عن الحيوانات والطيور، ولولاها لما كان يحسن أنْ نكلّف بالتكاليف الشرعيّة وغيرها.

وإنّ هذه العزيمة لا تحتاج إلاّ إلى تفعيلٍ وتدريبٍ في الميادين العمليّة، وبذلك نفوز بالسعادتين في النشأتين، كسائر العظماء والأولياء الّذين نالوا هذا المقام المحمود.

وإنْ أخفقتُ في موردٍ أو موردين، وسقطتُ، فهذا لا يمنع من أنْ أنهض وأنهض، فالطير إنْ لم يعزم بعد سقوطه في بداية طيرانه، لم يستطع الطيران والتحليق، ولي فيه عبرةٌ(٢).

---

(١) والنماذج التاريخية كثيرة، ولا حصر لها، من قبيل بشر الحافي المتقدمة قصته، تحت عنوان "العبودية لله"، وفُضيل بن عياض، تحت عنوان " شوق اللقاء".

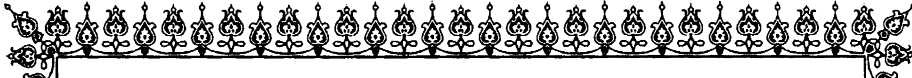
(٢) للسيد الإمام الخميني ﷺ بحث شريف ومفيد جداً، يُرجى قراءته في بداية كتابه "الأربعون

ذِكرُ الحسيب:

الشيخ الكفعميّ: نقلاً عن الشيخ البرسيّ: «مَن قال سبع مرّاتٍ "حسبيَ اللهُ الحسيبُ"، ويبدأ من يوم الخميس، يقول ذلك في كلّ يومٍ من كلّ أسبوعٍ سبعين مرَّة، كُفي مؤنة ما يطلبه، ونجا ممَّا يخافه»[1].

حديثاً".

(١) المصباح – الكفعمي، ص ٤٧٩.



الموضوع الثالث والعشرون:

الحَمِيد

١- تجلّيات الحميد.

٢- يا موسى، الآن شكرتني.

٣- حمد الله للعباد.

٤- العبد والحميد.

٥- إحياء العقل والفطرة.

٦- مات الكلب حياءً.

الحَمِيد

قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[2].

قال الشيخ الصدوق رحمه الله:

«**الحميد**: معناه المحمود، وهو: فعيلٌ، في معنى: المفعول، والحمد نقيض الذمّ، ويُقال: حمدتُ فلاناً، إذا رضيتَ فعله، ونشرتَه في الناس»[3].

وقال الرازي: «اعلم أنّه - أي الحميد - فعيلٌ، إمّا بمعنى: فاعلٌ، فإنّه تعالى حامدٌ لم يزل بثنائه على نفسه، وهو قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[4]، وبثنائه على المؤمنين الّذين سيوجدون.

---

(1) سورة لقمان: الآية ٢٦.

(2) سورة فاطر: الآية ١٥.

(3) التوحيد- الشيخ الصدوق، ص ٢٠٢.

(4) سورة الفاتحة: الآية ٢.

وإمّا بمعنى: مفعولٌ، كقتيلٍ بمعنى: المقتول، أي: محمودٌ بحمده لنفسه، وبحمد عباده له، ومنه قوله: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[1]، ومنهم من قال: الحميد معناه: المستحقّ للحمد والثناء»[2].

تجلّيات الحميد:

يمكن بيان تجلّي هذا الاسم الشريف في جوانب عدّة، منها: أنّه موضع حمد الحامدين، وشكر الشاكرين، فهو محمودٌ من هذه الجهة، ومن جهةٍ أخرى فإنّه ﷻ يحمد الحامدين على حمدهم له، ويجزيهم على حمدهم، ويرفع درجاتهم بحمدهم، فهو حامدٌ بهذا اللحاظ.

تقريب ذلك: إنّك حينما تلتفت إلى ذاتك، وكمالاتك الجسديّة، والخُلقيّة، والفكريّة، وغير ذلك، تجد أنّها ليست نتاج فعلك وعملك، فجمالك الخَلقيّ، وكذلك الخُلُقي، والذكاء، والفطنة، وغير ذلك، إنّما هي فيضٌ من فيوضات الباري ﷻ عليك، وتسديدٌ من تسديداته – سبحانه – لك، وما دورك – إنْ تأمّلتَ – إلا دور المستفيد والمغتنم لهذه الإمكانات الكماليّة – بنحوها المناسب والأمثل– أكثر من غيرك.

وهذا النحو من الاستفادة – كذلك– رهن توفيق الله – تعالى– لك، فهو إنْ وفّقك لهذا العمل والاغتنام من هذه الفيوضات بلغت المناصب العالية، أو نِلتَ ذلك الكمال، وهذا – كما لا يخفى – نتاج فيض رحمة الله وكرمه – سبحانه – عليك،

---

(١) سورة البقرة: الآية ٣٠.

(٢) شرح أسماء الله الحسنى– الرازي، ص ٢٨٨– ٢٨٩.

ولو لا ذلك الفيض والتوفيق الإلهيّ لما أمكنك نيل تلك الدرجات الكماليّة الراقية، حتّى توفيق العبادة والعلم، فهما من النعم المفاضة على العبد، فلو لا فيضه علينا أنْ جعلنا من أمّة الإسلام، ولم يجعلنا من الأمم الضائعة والضالّة، لما وفّقنا لهذا التوفيق الإلهيّ العظيم لفهم معنى العبوديّة والألوهيّة، ولو لا الصحة، والفراغ، والشوق إلى العبادة، أو لتحصيل العلوم، والمعارف، لما تيسّر لنا عبادة المعبود الحقّ، فكم من عاصٍ ولاهٍ تراهم بين يديك لا يعرفون معنى العبادة - فضلاً أنْ يعيشوا لذّتها وشوقها؟! فهذا وغير ذلك، من أسباب ودواعي الفيض الإلهيّ على العباد لتوفيقهم للعبادة والطاعة، وتحصيل العلم، وهذا يحتاج إلى شكرٍ، وحمدٍ لله تعالى، على توفيره وتهيئته لتلك الأسباب المُفضية لتلك الكمالات، لذا تجد مولانا الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام يكشف الستار عن هذه الحقيقة قائلاً:

«إلهي، ونعماؤك كثيرةٌ قصُر فهمي عن إدراكها فضلاً عن استقصائها، فكيف لي بتحصيل الشكر، وشكري إيّاك يفتقر إلى شكرٍ؟! فكلّما قلتُ: لك الحمد، وجب عليّ لذلك أن أقول: لك الحمد.

إلهي، فكما غذّيتنا بلطفك، وربّيتنا بصنعك، فتمّم علينا سوابغ النعم، وادفع عنا مكاره النقم، وآتنا من حظوظ الدارين أرفعها، وأجلّها، عاجلاً وآجلاً»[١].

«إلهي، أحمدك وأنت للحمد أهلٌ، على حسن صنيعك إليّ، وسبوغ نعمائك عليّ، وجزيل عطائك عندي، وعلى ما فضّلتني به من رحمتك، وأسبغتَ عليَّ من

---

(١) الصحيفة السجادية، ص ٤٠٩، مناجاة الشاكرين.

نعمتك، فقد اصطنعت عندي ما يعجز عنه شكري، ولو لا إحسانك إليَّ، وسبوغ نعمائك عليَّ، ما بلغت إحراز حظّي، ولا إصلاح نفسي، ولكنّك ابتدأتني بالإحسان، ورزقتني في أموري كلّها الكفاية، وصرفت عنّي جهد البلاء، ومنعت منّي محذور القضاء، إلهي، فكم من بلاءٍ جاهدٍ قد صرفت عنّي؟! وكم من نعمةٍ سابغةٍ أقررت بها عيني؟!»(١).

وفي موضعٍ آخر:

«اللهم إنّ أحداً لا يبلغ من شكرك غايةً إلا حصل عليه من إحسانك ما يلزمه شكراً»(٢).

يا موسى: الآن شكرتني:

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: **«فيما أوحى الله عزّ وجلّ إلى موسى عليه السلام: يا موسى، اشكرني حقّ شكري.**

فقال، يا ربّ، وكيف أشكرك حقّ شكرك، وليس من شكرٍ أشكرك إلاّ وأنت أنعمت به عليّ؟!

قال: يا موسى، الآن شكرتني حين علمت أنّ ذلك منّي»(٣).

وفي هذا المضمار رُوي عن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: **«مَنْ شكر الله – سبحانه –**

---

(١) الصحيفة السجادية الكاملة، ص ٢٩٧– ٢٩٨، دعاؤه في التضرع والاستكانة.

(٢) الصحيفة السجادية الكاملة، ص ١٨٤. "من دعائه عليه السلام إذا اعترف بالتقصير".

(٣) الكافي– الشيخ الكليني ج ٢، ص ٩٨، ح٢٧.

وجب عليه شكرٌ ثانٍ؛ إذ وفّقه لشكره، وهو شكر الشكر»[١].

إنَّ الالتفات إلى هذه الدقائق - أي لحاظ الكيف أكثر من الكمّ - هو الّذي يبرز مقام الأنبياء والأولياء عن غيرهم، وإلا فهم مع غيرهم يشتركون في العناوين العامّة من الصلاة، والعبادة، وغير ذلك، إلا أنَّ التنبّه لهذه الأمور الّتي طالما كانت - وما تزال - خافيةً على الأغلب والأكثر من البشر، جعلت للكمّل ميزةً على سواهم، فكانوا هم الخلّص والمصطفين الأبرار من البشر، جعلنا الله منهم بلطفه.

حمدُ الله للعباد:

مما يقشعرُّ منه البدن، ويخجل منه العرب والعجم، وتسيل منه دموع البشر حياءً تارةً، وتارةً من الخجل، هو ما يسمعه العبد من الباري، وأنّه يمتدح أهل الطاعة والانقياد على انقيادهم وطاعتهم له، في ملأٍ خيرٍ من هذا الملأ، مع أنَّ طاعة المطيع له - سبحانه - ممّا يأمر به العقل قبل الشرع، وهو أقلّ اليسير قبال ألطافه وفيوضاته الآبية عن الحصر والعدّ.

ومع ذلك، تسمع العجب العجاب، تسمع أنَّه يثني على المطيع أيّ ثناءٍ؟! ويثيبه أيّ ثواب؟! ويعطيه ما شاء من العطاء، وهذه إشارةٌ خاطفةٌ لما ورد في هذا المقام، واقرأ بقلبك وعقلك.

عن أبي عبد الله عليه السلام: **«سجدة الشكر واجبةٌ على كلّ مسلمٍ**[٢]**، تتمّ بها**

---

(١) ميزان الحكمة - الشيخ محمد الري الشهري ج٥، ص ١٤٥، ح٩٦٠١.

(٢) تأكيد للاستحباب، أي: كالواجبة في استحقاقها الاهتمام بها، هامش المصدر.

صلاتك، وترضي بها ربّك، وتعجب الملائكة منك، وإنَّ العبد إذا صلّى ثمّ سجد سجدة الشكر، فتح الربّ عَزَّوَجَلَّ الحجاب بين العبد وبين الملائكة فيقول:

يا ملائكتي، انظروا إلى عبدي، أدّى فرضي، وأتمّ عهدي، ثمّ سجد لي شكراً على ما أنعمت به عليه، ملائكتي ماذا له عندي؟!

قال: فتقول الملائكة: يا ربّنا رحمتك.

ثمّ يقول الربّ عَزَّوَجَلَّ: ثمّ ماذا له؟!

فتقول الملائكة: يا ربّنا جنّتك.

ثمّ يقول الربّ عَزَّوَجَلَّ: ثمّ ماذا؟!

فتقول الملائكة: يا ربّنا، كفاية مهمّة.

فيقول الربّ عَزَّوَجَلَّ: ثمّ ماذا؟!

قال: ولا يبقى شيءٌ من الخير إلا قالته الملائكة، فيقول الله عَزَّوَجَلَّ: يا ملائكتي، ثمّ ماذا؟!

فتقول الملائكة: ربّنا، لا علم لنا.

قال: فيقول الله عَزَّوَجَلَّ: أشكر له كما شكر لي، وأقبل إليه بفضلي، وأريه وجهي»[1].

---

(١) من لا يحضره الفقيه- الشيخ الصدوق ج ١، ص٣٣٣،ح٩٧٩. وراجع،مسكن الفؤاد- الشهيد الثاني، ص٢٧.

العبد والحميد:

من جملة النعم العظيمة الإلهيّة على بعض العباد، هو انشغالهم بالله عن كلّ انشغالٍ، وبذكره عن كلّ ذكرٍ، وحمده عن كلّ حمدٍ، والانقياد لأمره ونهيه عن كلّ أمرٍ ونهيٍ، وقد امتدح الباري أولئك، ويكفيهم ذلك كمالاً ومدحاً وثناءً، قال تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

ثمّ أضف إلى هذا الكمال كمالاً آخر، وهو أنّه بالحمد ينال مقام التخلّق بأخلاق أفضل الأنبياء والبشر، وهو المحمود الأحمد ﷺ، والأعظم من كلّ ذلك أنّه التخلّق بأخلاق الله تعالى.

ولكنّ السؤال هو: كيف المصير إلى مقام الحامدين، والشاكرين؟!

والجواب: بالمعرفة، ثمّ تلقين القلب به، وهذا شرحه:

أمّا المعرفة: فذلك أنَّ تعيَ مجموعة أمورٍ، منها:

١- **وجود ذاتك:** إنّك لم تخلقها، ولم يخلقك أبواك، وقد خلق لك السمع للاستماع، والعين للإبصار، والرجل للمشي، والمعدة للهضم، وغير ذلك من وسائل الراحة، والكمال، والبقاء.

---

(١) سورة التوبة: الآية ١١٢.

٢-**إيجاد المقتضي للكمال:** فما فيك من كمالاتٍ فطريّةٍ وغريزيّةٍ، والّتي هي منشأ كمالاتك، ونيلك لما أنت فيه من الخير، من حبّ الكمال، والعلم، والإدراك، والفطنة، والحافظة، والحياء، وبغضك للجهلٍ، وكلّ رذيلةٍ، وغيرها، من الله ﷻ لا غير.

وإنَّ هذه النعم المفاضة عليك أكثر بكثيرٍ ممّا بلغت إليه، حيث إنَّنا لم نفعّل الكثير الكثير من تلك الطاقات والإمكانيّات الإلهيّة المودعة فينا، أو إنَّنا استفدنا منها بدرجةٍ محدودةٍ ويسيرةٍ جدّاً.

٣-**رفع الموانع:** وهناك الكثير من الموانع الّتي كانت لتعرض عليك، وكانت لتمنعك من بلوغ كمالك، لو لا حفظ الله لك، «**وكم من بلاءٍ وقيته؟! وكم من مكروهٍ دفعته؟!**»[1].

ويكفي من الموانع الّتي تسلب التوفيق من الإنسان بشكلٍ كلّيٍّ أنْ يبتلى بآفة النسيان الشديدة، بحيث ينسى اسمه، ومكان سكناه مثلاً، ولا يمكنه حفظ ما يتعلّمه، فانظر ما سيؤول أمره، فهل له قيمةً بعد ذلك؟! فهذا حظُّ مَنْ سلب نعمةً أو نعمتين من نعم الله تعالى، فما حظّ مَنْ سلب أكثر من ذلك؟!

مِن هنا لو لم تكن هناك جنّةٌ ولا نارٌ، لكان ينبغي أنْ لا يُعصى الله – تعالى-؛ شكراً لنعمه الكثيرة، وأفضاله الجسيمة، فالعقل البشريّ يحكم بضرورة شكر هذا المنعم العظيم، وقباحة ردّ الإحسان بالسيِّئة، والمعصية سيِّئةً -كما هو واضحٌ-.

---

(١) دعاء كميل.

عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «**أقلّ ما يجب للمنعِـم أنْ لا يُعصى بنعمه**»[١].

وعنه عليه السلام أنّه قال: «**لو لم يتوعّد الله على معصيته لكـان يجـب أنْ لا يُعصـى شكراً لنعمه**»[٢].

إحياء العقل والفطرة:

اعلم أنَّه لا خير في المعارف لو لم تصل تلك إلى رفع الحجب عـن الإنسـان، ولم تصل تلك المعارف إلى القلب، و- للأسف الشديد- إنَّ جُلّ مـا نملـك مـن المعـارف والمفاهيم لا تعدو كونها من المفاهيم الّتي حظّها العقل، أو اللسان، من دون أنْ تتعدّى إلى القلب الّذي هو الموطن الحقيقيّ لتلك المعارف والعلوم، والّتي يترشّح من خلالهـا العمل الدؤوب، والارتباط بـالربّ العطـوف، ويجعـل الإنسـان في خشـيةٍ، وحيـاءٍ، وتعلّـقٍ بالباري الكريم.

نعم، من المؤسف أنّنا لم نسعَ أنْ نلقّن القلب بهذه المعـارف الحقّـة، حتّـى تُـأتي أُكُلها، وتنشر ريحها الطيّب على مملكة الجوارح والجـوانح الإنسـانيّة، وتبتعـد مـن الروائح النتنة والكريهة للمعاصي والذنوب، وحيث لم تصل تلك المعارف إلى القلب، فلن تجد من جوارحك وجوانحك الأثر المطلوب، وكلّ مخالفةٍ وعصـيانٍ نتـاج عـدم علم القلب بهذه الحقائق النورانيّة الشريفة.

بل كَشَفَ ذلك أنَّ القلب خالٍ وأسود، ليس فيه من هذه الحقائق النيِّرة شـيءٌ،

---

(١) ميزان الحكمة- الشيخ محمد الري الشهري ج٥، ص ١٣٩، ح٩٥٧٩.

(٢) وسائل الشيعة- الشيخ الحر العاملي ج ١٥، ص ٣٠٨، ح١٠.

لذا لم يرتّب الأثر المناسب لهذه المعارف الذهنيّة.

فخير مثالٍ لتقريب الأمر هو: ما نؤمن – عقلاً، وذهناً- أنَّ الأموات لا حياة لهم إلا يوم الحشر والبعث، وأنّهم لا يملكون ـ والحال هذه ـ أنْ يؤذوا بعوضةً، فضلاً من قتلها، ولكن لعدم بلوغ هذه المعرفة إلى القلب، وعدم تلقيننا بهذه المعرفة العقليّة، تجد أنّنا نخاف من النوم عندهم في حجرةٍ مظلمةٍ، مع أنَّ الّذين يقومون بتغسيل الأموات وتكفينهم لهم هذا اليقين القلبيّ نتيجة التكرار، وتلقين القلب بهذه المعرفة.

لذا اعتبر الشارع الأقدس المعرفة القلبيّة؛ أداءً لشكر المنعم، كما عن الإمام الصادق عليه السلام: «**مَنْ أنعم الله عليه بنعمةٍ فعرفها بقلبه، فقد أدّى شكرها**»[1].

وهذه المعرفة هي الّتي يترشّح منها الحياء من مخالفة المنعم الكريم.

مات الكلب حياءً:

قيل إنّه كان تاجرٌ يملك كلباً مخلصاً، يحرس مخازن تجارته، وكان يغدق عليه الكثير من النعم، ويلاطفه، ويعتني به، وفي يومٍ من أيّام الشتاء القارص ذهب التاجر – على خلاف عادته – إلى المخزن؛ متفقداً أموال تجارته، متلثّماً، ولابساً الكثيف من ثيابه؛ وقايةً من البرد، إلا أنّه بمجرد أنْ فتح باب المخزن، ظنّ ذلك الكلب الوفيّ أنَّ القادم لصٌّ جاء لسرقة أموال مولاه، فأسرع بالهجوم عليه، يهترشه بكلّ ما يملك من قوّةٍ، مدافعاً عن أموال صاحبه، ووليِّ نعمته من هذا اللص المتلثّم، فحاول التاجر

---

(١) ميزان الحكمة- الشيخ محمد الري الشهري ج٥، ص ١٤٧، ح٩٦١٣.

أنْ يكشف اللثام عن وجهه؛ ليعرّفه نفسه، ولكن بعد أنْ نهشه الكلب في يده وآلمه.

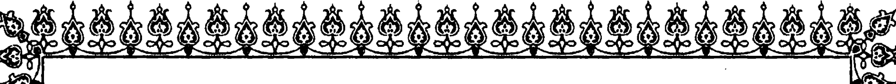
ولكن، سرعان ما التفت الكلب إلى أنَّ هذا مولاه، وليس بلصٍّ محتالٍ، وإذا به يطأطئ رأسه حياءً من مولاه، ولعدم معرفته له، وتجرّئه على مقام المنعم المفضِل، فاختار زاويةً من تلك الزوايا، تاركاً الأكل والشرب، يعيش ألم الحياء، والخجل، والندم، إلى أنْ فارق الحياة.

فكم نعصي ولا نستحي من وليّ النعم؟! وما ذلك إلا لأنَّنا لم نعش حقيقةً أنَّ المنعم هو الله تعالى، ولم نحيَ الحياء في قلوبنا ألبتّة، فالكثير من البشر يعيشون حياتهم دون مرتبة الحيوانات، من هذا الجانب وجوانب متعدّدة - للأسف الشديد-.

قال الحكيم تبارك وتعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾[1].

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٤٤.



الموضوع الرابع والعشرون:

الحَفِيُّ

١- تجلّيات الحفيّ.

٢- شواهد قرآنيّة.

٣- سعد وحبّ الدنيا.

٤- العبد والحفيّ.

أ- الرضا بقضاء الله.

ب- الله حفيٌّ يحبّ الحفيّ.

٥- العلويّة والمجوسيّ.

٦- قد أجيبت الدعوة.

٧- اهتمام الرسول بالسادة.

الحَفِيُّ

قال تعالى عن لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾[1].

«**الحفيّ**: مِن أسماء الله الحسنى، وقد ورد في القرآن وأريد منه أحد المعنيين.

الأوّل: إنَّ الحفيّ بمعنى العالم بالشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾[2]، أي: يسألونك عن الساعة كأنَّك عالمٌ بوقت مجيئها.

الثاني: إنَّه بمعنى اللطيف، والبارّ، الّذي يبرّك، ويلطّف بك، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾[3]، أي: إنَّه كان بي بارّاً، معيناً، ولطيفاً»[4].

---

(١) سورة مريم: الآية ٤٧.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٨٧.

(٣) سورة مريم: الآية ٤٧.

(٤) استلهمنا هذين المعنيين من كتاب "التوحيد" الشيخ الصدوق، ص ٢٠٢– ٢٠٣. وكذلك من كتاب "عدة الداعي" ابن فهد الحلي، ص ٣٠٣. و" المقام الأسنى في شرح الأسماء الحسنى " الكفعمي، ص ٧٣– ٧٤.

تجلّيات الحَفيّ:

من جملة أعظم النعم المعنويّة المفاضة على ذوي القلوب، وأصحاب البصيرة من المؤمنين، والعرفاء، والأولياء، هو إيقانهم بأنَّ الله عالمٌ بهم، وعارفٌ بكلّ ما يحتاجه العبد قبل أنْ يتفوَّه به، عالمٌ بما يحيطهم من المكاره والشدائد، لطيفٌ بالعباد، رحيمٌ، ودودٌ.

وهو «يعلم دقائق المصالح، وغوامضها، وما دقّ منها، وما لطف، ثمّ يسلك في إيصالها إلى المستحقّ سبيل الرفق دون العنف»(١).

فأوجب هذا العلم والاطمئنان القلبيّ بهذه الحقيقة النورانيّة لهم الراحة في دار الدنيا، والرضا، والشكر في جميع الأحوال؛ لعلمهم المسبق أنَّ كل ما يحدث - ويطرأ عليهم من أمورٍ خارجةٍ عن إرادتهم - هو من إرادة السماء، فيرضون بما قسّم وقدَّر لهم الحفيّ، اللطيف، الخبير، وهي نعمةٌ لا يستذوقها -ولا يعرفها- أبناء الدنيا، والجهلة من البشر.

إنّ أهل الرضا يعيشون حالة الرضا، والاطمئنان، والسرور، والبهجة في أحلك الظروف وأصعبها، وما ذلك إلا لأنَّهم عاشوا بمعرفة أنَّ الحفيّ الخبير عالمٌ بحالهم، بارٌّ ولطيفٌ بهم، لم يعطِ -ولم يمنع- إلا لمصلحةٍ حتماً، فكيف يختلج في قلوبهم الخوف أو الاضطراب، واللطيف الحفيّ يرعاهم، وحاضرٌ معهم أينما كانوا؟!

والأمثلة الّتي تكشف عن اهتمام ورعاية اللطيف الحفيّ بالعباد كثيرةٌ، والّتي

---

(١) المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، أبي حامد الغزالي: ١٦٤- ١٦٥.

تشير إلى أنَّ عطائه ﷻ - وكذلك منعه - نتاج حكمةٍ أو مصلحةٍ، وهذه إشارةٌ خاطفةٌ تكفي لذوي الألباب.

شواهد قرآنيّة:

القرآن الكريم مليءٌ بالآيات الدالّة على إسداء رحمة الله الواسعة على البشر، وعطفه، وحنانه على العباد، بأن يرفع الكرب، ويزيل الهمّ، والغمّ، والمصاعب من أمام عباده وخلقه، وما ذلك إلا لحبه لهم؛ ولأنَّه حفيٌّ، لطيفٌ بارٌّ بالعباد.

وهذه جملةٌ من تلك الآيات:

١- قال تعالى: ﴿...وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[1]، فهو - سبحانه - آلى على نفسه إلا لطفاً وبرّاً بالعباد، وأن يعفو، ويغفر لِمَنْ تاب وأناب؛ ليخرجهم من ظلمة المعاصي والانحراف، إلى نور الطاعة والانقياد؛ وليبعث فيهم روح الأمل بقبوله لهم، وبذلك يدفع عنهم اليأس من الفوز والنجاة، أليس من الحفاوة، واللطف، والبرّ أنْ فتح لعباده باب التوبة والإنابة؛ ليبدؤوا من جديدٍ؟! ولو لا ذلك الباب لطغى العبد، وأفسد بعد أنْ يئسَ من النجاة والفوز، فكان مقتضى أنَّه لطيفٌ حفيٌّ أنْ فتح باب العفو والمغفرة للعباد، لذا ربط إبراهيم الخليل بين الاستغفار وكونه - تعالى- حفيٌّ لطيفٌ، في قوله: ﴿...سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾[2].

---

(١) سورة النساء: الآية ١٥٢.

(٢) سورة مريم: الآية ٤٧.

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾(١)، تشير هذه الآية الشريفة إلى أنّ من ثمار الضرّ - وبعض الابتلاءات - هو إرجاع الإنسان إلى فطرته التوحيديّة الّتي انطمرت جرّاء النعيم، والانشغال بالدنيا، فهذه الفطرة المطمورة تنقى وتصفو حينما يرى البلاء والصعوبات، فيلتجئ إلى المنقذ الوحيد الّذي بيده ملكوت كلّ شيءٍ، فيدعو ربّه منيباً إليه، فكان في البلاء لطفٌ خفيٌّ من الحفيّ اللطيف.

وإلى ذلك أيضاً أشار المولى سبحانه: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾(٢).

٣- وقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾(٣)، إشارةٌ إلى أنّه ما من شيءٍ يحدث في عالم الإمكان إلا والله عالمٌ به، ومحيطٌ به، وهذا يعني أنّه - تعالى- يعلم بكلّ صغيرةٍ وكبيرةٍ تعرض على العبد من البلايا والرزايا، وحيث إنّه رحيمٌ، وحفيٌّ، وعطوفٌ بعباده من جهةٍ ثانيةٍ، لزم ـ بفيض عطفه ورحمته ـ أنْ يرفع ما تعرض على العبد من البلايا والرزايا الّتي تصبّ في تعاسته وشقاوته، وهكذا هو ﷻ، حيث يرفع البلايا والرزايا الّتي يكون رفعها في صلاح

---

(١) سورة الروم: الآية ٣٣.

(٢) سورة لقمان: الآية ٣٢.

(٣) سورة الأنعام: الآية ٥٩.

العبد، ولا يرفع البعض الآخر إذا كان صلاح العبد في البلاء، وقد قال ﷻ - كاشفاً عن هذه الحقيقة الّتي أبى الكثيرون قبولها -: ﴿...فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾(٢).

فما يعرض علينا من بلايا ومحن، فهي رحماتٌ وألطافٌ إلهيّةٌ، ولكنّ أكثرنا بذلك جاهلون، أو متجاهلون، كما يحسب الطفل الجاهل أنّ إرغام والده له بشرب الدواء المرّ عذابٌ وبلاءٌ، في حين أنَّ العالم العاقل يرى أنَّ ذلك في غاية الحكمة، والدراية، والودّ، والحنان.

ولو تأمّل الإنسان قليل تأمّلٍ في حياته، لرأى شواهد كثيرةً على ذلك.

ينقل الفيض الكاشانيّ ﷺ في محجّته عن مسروقٍ:

«كان في بني إسرائيل رجلٌ بالبادية له كلبٌ وحمارٌ وديكٌ، فالديك يوقظهم للصلاة، والحمار ينقلون عليه الماء، ويملأ لهم خباءهم، والكلب يحرسهم.

قال: فجاء الثعلب، وأخذ الديك، فحزنوا عليه، وكان الرجل صالحاً.

فقال: بقدرٍ عسى أنْ يكون خيراً، ثمّ أُصيب الكلب.

---

(١) سورة النساء: الآية ١٩.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢١٦.

فقال: بقدرٍ عسى أنْ يكون خيراً، ثمّ جاء ذئبٌ فخرق بطن الحمار، فقتله، فحزنوا عليه.

فقال: بقدرٍ عسى أنْ يكون خيراً.

ثمّ أصبحوا ذات يومٍ، فنظروا، فإذا قد سُبِيَ مَنْ كان حولهم، وبقوا هم.

قال: وإنّما أُخذوا أُولئك لما كان عندهم من أصوات الكلب، والحمار، والديك، وكانت الخيرة في هلاك هذه الحيوانات، كما قدّره الله تعالى، فمن عرف خفيَّ لطف الله رضى بفعله»[١].

سعد وحبّ الدنيا:

شاهدٌ آخر: رُوي عن أبي بصير قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «**كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله مؤمنٌ فقيرٌ شديد الحاجة، من أهل الصفة، وكان ملازماً لرسول الله صلى الله عليه وآله عند مواقيت الصلاة كلّها، لا يفقده في شيءٍ منها، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يرقّ له، وينظر إلى حاجته، وغربته.**

فيقول: يا سعد، لو قد جاءني شيءٌ لأغنيتك، قال: فأبطأ ذلك على رسول الله صلى الله عليه وآله، فاشتدّ غمّ رسول الله صلى الله عليه وآله لسعدٍ، فعلم الله – سبحانه – ما دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله من غمّه لسعد، فأهبط عليه جبرئيل ومعه درهمان، فقال له:

يا محمّد، إنَّ الله عزّ وجلّ قد علم ما قد دخلك من الغمّ بسعدٍ، أفتحبّ أنْ تغنيه؟

---

(١) المحجة البيضاء– الفيض الكاشاني ج٨، ص ٩٢.

فقال: نعم.

فقال له: فهاك هذين الدرهمين، فأعطهما إيّاه، ومُره أنْ يتّجر بهما.

قال: فأخذهما رسول الله ﷺ، ثمّ خرج إلى صلاة الظهر، وسعدٌ قائمٌ على باب حجرات رسول الله ﷺ ينتظره، فلمّا رآه رسول الله ﷺ قال: يا سعد، أتحسن التجارة؟

فقال له سعد: والله ما أصبحت أملك مالاً أتّجر به.

فأعطاه رسول الله ﷺ الدرهمين، وقال له: اتّجر بهما، وتصرّف لرزق الله تعالى، فأخذهما سعد، ومضى مع النبيّ ﷺ حتّى صلّى معه الظهر، والعصر.

فقال له النبيّ ﷺ: قم، فاطلب الرزق، فقد كنتُ بحالك مغتمّاً يا سعد.

قال: فأقبل سعد لا يشتري بدرهمٍ شيئاً إلا باعه بدرهمين، ولا يشتري شيئاً بدرهمين إلا باعه بأربعةٍ، وأقبلت الدنيا على سعدٍ، فكثر متاعه، وماله، وعظمت تجارته، فاتّخذ على باب المسجد موضعاً، وجلس فيه، وجمع تجارته إليه.

وكان رسول الله ﷺ إذا أقام بلال الصلاة يخرج وسعد مشغولٌ بالدنيا، لم يتطهّر، ولم يتهيّأ كما كان يفعل قبل أنْ يتشاغل بالدنيا، فكان النبيّ ﷺ يقول: يا سعد، شغلتك الدنيا عن الصلاة.

فكان يقول: ما أصنع؟! أضيّع مالي؟! هذا رجلٌ قد بعته، فأريد أنْ أستوفي منه، وهذا رجلٌ قد اشتريت منه، فأريد أنْ أوفيه.

قال: فدخل رسول الله ﷺ من أمر سعدٍ غمٌّ أشدّ من غمّه بفقره، فهبط عليه

جبرئيل عليه السلام.

فقال: يا محمّد، إنّ الله قد علم غمّك بسعد، فأيّما أحبّ إليك؟ حاله الأولى، أو حاله هذه؟

فقال له النبيّ صلى الله عليه وآله: يا جبرئيل، بل حاله الأولى قد ذهبت دنياه بآخرته.

فقال له جبرئيل عليه السلام: إنّ حبَّ الدنيا والأموال فتنةٌ، ومشغلةٌ عن الآخرة، قل لسعد: يردُّ عليك الدرهمين الّذين دفعتهما إليه، فإنَّ أمره سيصير إلى الحال الّتي كان عليها أوّلاً.

قال فخرج النبيّ صلى الله عليه وآله، فمرَّ بسعدٍ، فقال له: يا سعد، أما تريد أنْ تردّ عليَّ الدرهمين الّذين أعطيتكهما؟!

فقال سعد: بلى، ومئتين.

فقال له: لستُ أريد منك - يا سعد- إلا الدرهمين، فأعطاه سعد درهمين.

قال: فأدبرت الدنيا عن سعدٍ، حتّى ذهب ما كان جمع، وعاد إلى حاله الّتي كان عليها»[1].

العبد والحفيّ:

حينما يعلم عقل الإنسان، ويطمئنّ قلبه بأنَّ الله – تعالى- حفيٌّ ولطيفٌ بالعباد،

---

(١) قصص الأبرار من بحار الأنوار- السيد مرتضى الميلاني، ص ٥١٢- ٥١٣. نقلاً عن بحار الأنوار-العلامة المجلسي ج ٢٢، ص ١٢٢،ح ٩٢.

بارٌّ بهم، ومهتمٌّ بمصالحهم، وأمورهم، لا يعطي، ولا يمنع إلا جرّاء حكمةٍ، وكذلك العسر والشدّة تعرضان على العبد لغايةٍ وفلسفةٍ، فإنَّ ذلك يوجب عدم التفات العبد إلا إلى مولاه، ولا يطلب إلاّ من الحفيّ الكريم، والبارّ الرحيم، ويتلقّى تلك المصائب والمحن والشدائد بقلبٍ مطمئنٍّ، راضٍ تمام الرضا، لا تشوبه مثقال ذرّةٍ من الشكّ، أو السخط، أو الهمّ والغمّ؛ لعلمه – واطمئنانه – أنَّ وراء ذلك مصلحةً وحكمةً، وإنْ لم يعلم حقيقة تلك الحكمة والمصلحة.

لذا يمكن أنْ نقول: إنَّ حظّ العبد من هذا الاسم الشريف يمكن أنْ يتلخّص في أمرين: الرضا، وتفويض الأمر للحفيّ اللطيف، وأنْ يكون حفيّاً؛ إذ أنَّ الله حفيٌّ يحبّ الحفيّ.

أ- الرضا بقضاء الله:

إنَّ مقام الرضا من أعلى مقامات المقرّبين، وهو مقام المصطفين من الأخيار، والأبرار، ويكفيهم مدحاً أنْ نالوا رضا الربّ ﷻ، فقال – سبحانه – مادحاً لهم: ﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾(١).

وهم الثلّة القليلة، والجماعة النادرة جدّاً، الّتي تكاد أنْ تنعدم من قلّتها، وعن الرسول الأكرم ﷺ: «**إذا أحبّ الله عبداً ابتلاه، فإنْ صبر اجتباه، وإنْ رضي**

---

(١) سورة البيّنة: الآية ٨.

اصطفاه»[١].

إنّ أولئك الراضين بقضاء الله – تعالى – قد تزيّنت كتب التاريخ بذكر قصصهم وأحوالهم، فكانوا عبرةً وحجّةً على العباد، ومناراً لِمَنْ يريد الوصول إلى هذا المقام الشامخ، من قبيل المقدّس الأردبيليّ رحمه الله:

«يروي صاحب كتاب لآلئ الأخبار، عن أستاذه: أنَّ المقدّس الأردبيليّ كان في بداية تحصيله منفرداً في حجرةٍ، فشاقَّ واحدٌ من الطلاب أنْ يشاركه في الحجرة، فلم يرضَ، فألحَّ عليه كثيراً، وبالغ في الإصرار، حتّى رضي رضاً مشروطاً على أنْ لا يطلع أحداً على ما يطّلِع عليه من حالاته، فقبل الرجل، وكان عنده زماناً، فاتّفق لهما ضيق المعاش، بحيث لا يقدران على قوتٍ لا يموتان به، حتّى ظهر آثار ذلك في بشر الرجل، وعرض عليه الضعف، والانكسار، فمرَّ عليه رجلٌ، ورأى حاله، فاستفسر عن سببها، فكتم الرجل، ولم يبدِ له شيئاً، فلمَّا استكثر في الإلحاح، والالتماس، والإصرار، عرض عليه حالهما، فذهب وجاء بغذاءٍ ووجهٍ[٢]، وقال: هذا لك ولرفيقك، فلمّا جاء الأردبيليّ حكى له القصّة، وعرضها عليه.

فقال المقدَّس الأردبيليّ: لِمَ أظهرت الحال ونقضت القرار؟

فاعتذر منه الرجل بأنَّه بالغ في الإلحاح والإصرار.

فقال المقدَّس الأردبيليّ: بلغ أوان الافتراق، والغذاء والوجه لمّا كانا رزقاً من الله

---

(١) مستدرك الوسائل– الميرزا النوري ج ٢، ص٤٢٧، ح٣١.

(٢) أي: جاء له بمبلغ من المال من الحقوق الشرعية.

فنصفهما لي، ونصفهما لك.

فاتّفق له الاحتلام في الليلة، فتوجَّه إلى الحمّام للتهجّد، ولمّا لم يبلغ أوان فتحه، لم يفتح له الحماميّ، فزاد على الأجرة المرسومة، فلم يقبل، فزاد قليلاً فقليلاً حتّى أتاه بسهمه من الوجه، ففتح له الباب، ودخل، واغتسل، وجاء إلى منزله، واشتغل بالتهجّد وساير العبادات، فما أعطاه الله – تعالى – من المقامات العالية أعطاه في تلك الليلة»[(١)].

ورُوي أنَّ عيسى عليه السلام مرَّ برجلٍ أعمى، أبرص، مقعد، مضروب الجنبين بالفالج، وقد تناثر لحمه من الجذام، وهو يقول: «**الحمد لله الّذي عافاني ممّا ابتلى به كثيراً من خلقه.**

فقال له عيسى عليه السلام: يا هذا، وأيُّ شيء من البلاء أراه مصروفاً عنك؟

فقال: يا روح الله، أنا خيرٌ ممّن لم يجعل الله في قلبي من معرفته.

فقال له: صدقت، هات يدك، فناوله يده، فإذا هو أحسن الناس وجهاً، وأفضلهم هيئةً، قد أذهب الله عنه ما كان به، فصحب عيسى عليه السلام، وتعبّد معه»[(٢)].

ب- الله حفيٌّ يحبُّ الحفيّ:

جاءت النصوص الشرعيّة لتشير إلى أهمّيّة التخلّق بأخلاق الله، الّتي من جملتها

---

(١) لآلئ الأخبار- التوسيركاني ج١٢، ص ١١٥- ١١٦.

(٢) مسكن الفؤاد- الشهيد الثاني، ص ٨٧.

التخلّق بهذا الاسم الشريف " الحفي "، من جملة تلك النصوص ما ورد عن الرسول صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**إنّ الله يحبّ التقيّ النقيّ الحفيّ**»(١).

ولا يخفى أنّ الاتّصاف بهذا الاسم الشريف موجبٌ لنيل رضا الباري، واستحقاق حبّ الله – تعالى – للعبد، وشمول رحمته وبركاته عليه، وهي نعمةٌ لا تقدّر بقدرٍ، لذا تجد أهل الورع والتقوى والهمم العالية قد شمّروا عن سواعدهم لذلك، ساعين كلّ السعي لبلوغ مقام الحبّ الإلهيّ، ونيل رضاه، وتجد أيضاً أنّ الأنبياء والأولياء هم المصداق الأكمل والأبرز لهذا الاسم والصفة، فكانوا أكثر الناس حفاوةً، وبرّاً، وخدمةً، ولطفاً، وإكراماً لعباد الله؛ إذ هي وصيّة السماء لهم، وكانت وصيّة أنبياء الله للعباد على طول التاريخ، كما يتّضح من النصّ المرويّ عن الإمام الرضا عليه السلام، حيث قال:

«**وجد رجلٌ صحيفةً، فأتى بها رسول الله صلى الله عليه وآله، فنادى: الصلاة جامعةٌ، فما تخلّف أحدٌ، لا ذكرٌ ولا أنثى، فرقى المنبر، فقرأها، فإذا كتابٌ من يوشع بن نون وصيّ موسى عليه السلام، فإذا فيها: بسم الله الرحمن الرحيم، إنّ ربّكم بكم لرؤوفٌ رحيمٌ، ألا إنّ خير عباد الله التقيّ النقيّ الحفيّ...**»(٢).

ولهذا فقد كان ديدن العلماء بعد الأنبياء والأوصياء، أنْ كان همّهم هو إيصال الخير للعباد، ورفع العوز عنهم، وقضاء حوائجهم؛ إذ أنّ هذه الأمور من مفردات ومصاديق هذا الاسم الشريف، وهو حظّ العبد منه، والأخبار والقصص كثيرةٌ تدلّ

---

(١) عوالي اللآلي– ابن أبي جمهور الأحسائي ج ١، ص٢٨١.

(٢) مستدرك الوسائل– الميرزا النوري ج ٥، ص ٣٧٦، ح٨.

على الآثار العظيمة المترتّبة على هذا الفعل، إليك بعض ما ورد في هذا المضمار:

العلويّة والمجوسيّ:

نقل ابن الجوزيّ[1] في كتابه قال: «قرأت في الملتقط - وهو كتابٌ لجدّه أبي الفرج بن الجوزيّ - قال: كان ببلخ رجلٌ من العلويّين نازلاً بها، وله زوجةٌ وبناتٌ، فتوفّي.

قالت المرأة: فخرجتُ بالبنات إلى سمرقند خوفاً من شماتة الأعداء، واتّفق وصولي في شدّة البرد، فأدخلتُ البنات مسجداً، فمضيت لأحتال في القوت، فرأيت الناس مجتمعين على شيخٍ.

فسألتُ عنه، فقالوا: هذا شيخ البلد، فشرحت له حالي.

فقال: أقيمي عندي البيّنة أنّك علويّةٌ، ولم يلتفت إليَّ، فيئستُ منه، وعدتُ إلى المسجد، فرأيت في طريقي شيخاً[2] جالساً على دكّةٍ، وحوله جماعةٌ.

فقلت: مَنْ هذا؟

فقالوا: ضامن البلد، وهو مجوسيٌّ.

فقلت: عسى أنْ يكون عنده فرجٌ، فحدّثته حديثي، وما جرى لي مع الشيخ.

---

(١) يعني سبط ابن الجوزي مؤلف تذكرة الخواص، ومن هنا يعرف أنهم قد يطلقون " ابن الجوزي " على سبطه بتلك القرينة.هامش المصدر.

(٢) في هامش المصدر: شخصاً.

فصاح بخادمٍ له، فخرج، فقال: قل لسيّدتك تلبس ثيابها، فدخل، فخرجت امرأةٌ ومعها جوارٍ.

فقال لها: اذهبي مع هذه المرأة إلى المسجد الفلانيّ، واحملي بناتها إلى الدار. فجاءت معي، وحملت البنات، وقد أفرد لنا داراً في داره، وأدخلنا الحمّام، وكسانا ثياباً فاخرةً، وجاءنا بألوان الأطعمة، وبتنا بأطيب ليلةٍ، فلمّا كان نصف الليل رأى شيخ البلد المسلم في منامه كأنَّ القيامة قد قامت، واللواء على رأس محمّدٍ ﷺ، وإذا قصرٌ من الزمرّد الأخضر.

فقال: لمن هذا؟

فقيل له: لرجلٍ مسلمٍ موحّدٍ، فتقدّم إلى رسول الله ﷺ، فأعرض عنه، فقال: يا رسول الله، تعرض عنّي وأنا رجلٌ مسلمٌ؟!

فقال له: أقم البيّنة عندي أنّك مسلمٌ، فتحيَّر الرجل.

فقال له رسول الله ﷺ: نسيت ما قلت للعلويّة؟! وهذا القصر للشيخ الّذي هي في داره، فانتبه الرجل وهو يلطم، ويبكي، وبعث غلمانه في البلد، وخرج بنفسه يدوّر على العلويّة، فأُخبر أنّها في دار المجوسيّ، فجاء إليه، فقال: أين العلويّة؟

قال: عندي.

قال: أريدها.

قال: ما إلى هذا سبيلٌ.

قال: هذه ألف دينارٍ، وسلّمهنَّ إليَّ.

قال: لا والله، ولا مائة ألف دينارٍ، فلمّا ألحَّ عليه قال له: المنام الّذي رأيتَه أنت رأيتُه أنا أيضاً، والقصر الّذي رأيته لي خُـلِق[(١)]، وأنت تدلّ عليَّ بإسلامك، والله ما نمت ولا أحدٌ في داري إلا وقد أسلمنا كلّنا على يد العلويّة، وعاد من بركاتها علينا، ورأيت رسول الله ﷺ، وقال لي: القصر لك ولأهلك بما فعلت مع العلويّة، وأنـتم من أهل الجنّة، خلقكم الله مؤمنين في العدم[(٢)]»[(٣)].

فهذه القصّة ـ وغيرها الكثير ـ تدلّ على أهمّيّة التخلّق بأخلاق الحفيِّ سـبحانه، والاعتناء بالفقراء، وبالخصوص الفقراء والمعوزين من بـني هاشـم؛ إكرامـاً لرسـول الله ﷺ.

لاحظ كم كان للإحسان وقضاء حوائج الناس من أثرٍ، بحيـث لم يمنـع مجوسـيّة المجوسيّ من نيله لألطاف الله عزّ وجلّ والنبيّ ﷺ.

قد أجيبت الدعوة:

ونَقل أيضاً في كتابه عن أبي الـدنيا أنَّ رجـلاً رأى رسـول الله ﷺ في منامـه، وهو يقول: «امضِ إلى فلان المجوسيّ، وقل له: قد أجيبت الدعوة، فامتنع الرجل من أداء الرسالة؛ لئلا يظنّ المجوسيّ أنّه يتعرّض له، وكان الرجل في الدنيا واسعة، فـرأى رسول الله ﷺ ثانياً، وثالثاً، فأصبح، فأتى المجوسيّ، وقال له في خلوةٍ من الناس: أنا

---

(١) في المصدر: والقصر الذي رأيته أنت رأيته لي خُلِق. "هامش البحار وكذا الآتي".

(٢) في المصدر: في القدم.

(٣) قصص الأبرار، السيد مرتضى الميلاني، ص ٣٠٢- ٣٠٣، نقـلاً عـن بحـار الأنـوار- العلامـة المجلسي، ج ٤٢، ص ١٢- ١٣.

رسول رسول الله إليك، وهو يقول لك: قد أجيبت الدعوة.

فقال له: أتعرفني؟

فقال: نعم.

فقال: إنّي أنكر دين الإسلام، ونبوّة محمّدٍ ﷺ.

فقال: أنا أعرف هذا، وهو الّذي أرسلني إليك مرّةً، ومرّةً، ومرّةً.

فقال: أنا أشهد أنْ لا إله إلا الله، وأنَّ محمّداً رسول الله، ودعا أهله وأصحابه، وقال لهم: كنت على ضلالٍ، وقد رجعت إلى الحقّ، فأسلموا، فمَنْ أسلم فما في يده له، ومَنْ أبى فلينزع عمّا لي عنده، فأسلم القوم وأهله، وكانت ابنته مزوّجة مِنْ ابنه، ففرَّق بينهما.

ثمّ قال لي: أتدري ما الدعوة؟

فقلت: لا والله، وأنا أريد أنْ أسألك عنها الساعة.

فقال: لما زوّجت ابنتي صنعت طعاماً، ودعوت الناس، فأجابوا، وكان إلى جانبنا قومٌ أشرافٌ فقراء، لا مال لهم، فأمرت غلماني أنْ يبسطوا لي حصيراً في وسط الدار، فسمعت صبيّةً تقول لأمها: يا أمّاه، قد آذانا هذا المجوسيّ برائحة طعامه.

فأرسلتُ إليهنّ بطعامٍ كثيرٍ، وكسوةٍ، ودنانير للجميع، فلمّا نظروا إلى ذلك.

قالت الصبيّة للباقيات: والله ما نأكل حتّى ندعو له، فرفعن أيديهنّ، وقلن:

حشرك الله مع جدّنا رسول الله ﷺ، وأمّن بعضهنّ، فتلك الدعوة الّتي أجيبت».

اهتمام الرسول بالسادة:

ونَقل ابن الجوزيّ أيضاً في كتابه، عن جدّه أبي الفرج، بإسناده إلى ابن الخضيب قال: «كنت كاتباً للسيّدة أمّ المتوكّل، فبينا أنا في الديوان إذا بخادمٍ صغيرٍ قد خرج من عندها، ومعه كيسٌ فيه ألف دينارٍ.

فقال: السيّدة تقول لك: فرِّق هذا في أهل الاستحقاق، فهو من أطيب مالي، واكتب أسماء الّذين تفرِّقه فيهم؛ حتّى إذا جاءني من هذا الوجه شيءٌ صرفته إليهم.

قال: فمضيتُ إلى منزلي، وجمعت أصحابي، وسألتهم عن المستحقّين، فسمّوا لي أشخاصاً، ففرّقت فيهم ثلاثمائة دينار، وبقي الباقي بين يديّ إلى نصف الليل، وإذا بطارقٍ يطرق الباب، فسألته: مَنْ أنت؟

فقال: فلان العلويّ - وكان جاري -، فأذنت له، فدخل، فقلت له: ما شأنك؟

فقال: إنِّي جائعٌ، فأعطيته من ذلك ديناراً، فدخلت إلى زوجتي.

فقالت: ما الّذي عناك في هذه الساعة؟

فقلت: طرقني في هذه الساعة طارقٌ من ولد رسول الله صلى الله عليه وآله، ولم يكن عندي ما أطعمه، فأعطيته ديناراً، فأخذه، وشكر لي، وانصرف، فخرجت زوجتي وهي تبكي، وتقول:

أما تستحيي؟! يقصدك مثل هذا الرجل وتعطيه ديناراً، وقد عرفت استحقاقه؟! أعطه الجميع، فوقع كلامها في قلبي، وقمت خلفه، فناولته الكيس، فأخذه، وانصرف، فلمّا عدت إلى الدار ندمت، وقلت: الساعة يصل الخبر إلى المتوكّل، وهو يمقت

العلويّين، فيقتلني.

فقالت لي زوجتي: لا تخفْ، واتّكل على الله، وعلى جدِّهم، فبينا نحن كذلك إذ طُرق الباب، والمشاعل في أيدي الخدم.

وهم يقولون: أجب السيّدة، فقمتُ مرعوباً، وكلّما مشيت قليلاً تواترت الرسل، فوقفت على ستر السيّدة، فسمعتها تقول:

يا أحمد، جزاك الله خيراً، وجزى زوجتك، كنتُ الساعة نائمةً، فجاءني رسول الله صلى الله عليه وآله، وقال:

"جزاكِ الله خيراً، وجزى زوجة ابن الخضيب خيراً" فما معنى هذا؟

فحدّثتها الحديث وهي تبكي، فأخرجتْ دنانير وكسوةً وقالت:

هذا للعلويّ، وهذا لزوجتك، وهذا لك، وكان ذلك يساوي مائة ألف درهم، فأخذتُ المال، وجعلتُ طريقي على بيت العلويّ، فطرقت الباب.

فقال منْ داخل المنزل: هاتِ ما معك يا أحمد، وخرج وهو يبكي.

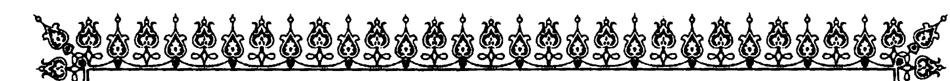
فسألته عن بكائه.

فقال: لمّا دخلتُ منزلي قالت لي زوجتي: ما هذا الّذي معك؟ فعرّفتها.

فقالت لي: قم بنا حتّى نصلّي وندعو للسيّدة، ولأحمد، وزوجته، فصلّينا، ودعونا، ثمّ نمتُ، فرأيتُ رسول الله صلى الله عليه وآله في المنام وهو يقول: قد شكرتم على ما فعلوا معك، فالساعة يأتونك بشيءٍ، فاقبل منهم»[1].

---

(١) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٤٢، ص ١٤- ١٥.



الموضوع الخامس والعشرون:

الرَّقِيب

١- تجلّيات الرقيب.

٢- حظّ العبد مِن الرقيب.

٣- أبو ذرّ وحُسن الطاعة.

الرَّقِيب

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[1].

وقال تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾[3].

قال العارف والمرجع الكبير، السيد عبد الأعلى السبزواري رحمه الله:

«الرقيب: هو المتفوّق، المطّلع على الأعمال والحركات عن كثبٍ وعنايةٍ،

---

(1) سورة النساء: الآية ١.

(2) سورة المائدة: الآية ١١٧.

(3) سورة الأحزاب: الآية ٥٢.

بخلاف الحارس»[١].

أي أنَّ الحارس وإنْ اجتهد في حفظ ما يحرسه، إلا أنَّه لا يستطيع حفظه وراعيته له دائماً؛ لما فيه من الضعف، والغفلة، وعدم الإحاطة التامّة بما يحاك ضدّه، فضلاً عمّا يحاك لما يحرسه، وهذا طبيعيٌّ في حقِّه؛ إذ أنَّه موجودٌ ضعيفٌ، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً، فكيف يملك لغيره؟!

أمّا الباري تعالى فهو المتفوِّق، والمطَّلع التامّ على أفعال العباد؛ لأنَّه حاضرٌ مع خلقه، أقرب إليهم من حبل الوريد، عالمٌ بالخفايا والسرائر، محيطٌ بنواياه وخواطره، فكيف بأفعال عباده الظاهرة والمعلنة؟! وإلى ذلك أشار المولى إلى هذه الحقيقة، لعلّ ذلك يولِّد في العبد الحياء من معصيته سبحانه، والتجاهر بالذنب والخطيئة في محضره، قال تعالى: ﴿وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ

---

(١) مواهب الرحمن– السيد عبدالأعلى السبزواري ج٧، ص ٢٠٦، تفسير الآية الأولى من سورة النساء.

(٢) سورة يونس: الآية ٦١.

(٣) سورة ق: الآية ١٦.

إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(١).

تجلّيات الرقيب:

إنَّ من جملة الفروقات الجوهريّة بين الأولياء وغيرهم من الناس، هو أنَّ الأولياء يعيشون حقيقة مراقبة الله – تعالى – لهم، أي أنّهم يستشعرون ويعيشون حقيقة قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(٣).

واستشعارهم لهذا الأمر جعلهم في ذكرٍ دائمٍ لله، وتوجّهٍ إلى الباري في كلّ الحركات والسكنات، وقد لهوا وانصرفوا عن كلّ شيءٍ إلا اللهو والانصراف إلى باب الله تعالى.

ولا غرابة في ذلك؛ فإنَّ العبد الحقير إنْ وُفِّق للتشرّف بلقاء أعظم ملوك الدنيا، وقد توجّه الملك بالنظر إليه، فهل يا ترى تجده يسهو عن هذا الملك، أو يلهو عنه ويغفل، والملك يخاطبه وينظر إليه؟! أم أنّك تراه متشاغلاً عن كلّ شيءٍ إلا عن الملك، ناسياً كلّ أمرٍ إلا حضور الملك، ملتذّاً، مستأنساً، فرحاً بهذا اللقاء، مستغلاًّ كلّ

---

(١) سورة المجادلة: الآية ٧.

(٢) سورة العلق: الآية ١٤.

(٣) سورة ق: الآية ١٨.

الأوقات والآنات الّتي في محضر الملك بالأنس والحديث معه.

فبالله عليك، أيساوى ملك الملوك، وجبّار السموات والأرض، بهذا الملك الحقير الّذي لا يملك لنفسه الخير والشرّ، ولا الموت، ولا الحياة، أو الصحة، والمرض؟! بل من المعيب جداً - والمعذرة إلى الله تعالى - أنْ نقارن تافهاً وحقيراً مع أعظم العظماء، ونور السماوات والأرض.

لذا تجد العرفاء والعظماء يستنكرون ويستغربون نسيان الله، واللهو عنه، والانصراف عنه، مع حضور الباري مع العبد، ومراقبته له.

كما تجد هذا الاستغراب والاستنكار جليّاً في خطابات المعصومين عليهم السلام، من قبيل الإمام زين العابدين عليه السلام، حيث يقول في دعائه: «**إلهي... كيف أنساك ولم تزل ذاكري؟! وكيف ألهو عنك وأنت مراقبي؟!**»(١).

وفي دعاء كميلٍ يشير أمير المؤمنين عليه السلام إلى هذا الأمر، حيث قال:

«**فأسألك بالقدرة الّتي قدّرتها، وبالقضيّة الّتي حتمتها، وحكمتها، وغلبت من عليه أجريتها، أنْ تهب لي في هذه الليلة، وفي هذه الساعة، كلّ جرمٍ أجرمته، وكلّ ذنبٍ أذنبته، وكلّ قبيحٍ أسررته، وكلّ جهلٍ عملته، كتمته، أو أعلنته، أخفيته، أو أظهرته، وكلّ سيّئةٍ أمرت بإثباتها الكرام الكاتبين، الّذين وكّلتهم بحفظ ما يكون منّي، وجعلتهم شهوداً عليَّ مع جوارحي، وكنت أنت " الرقيب " عليَّ من ورائهم،**

---

(١) الصحيفة السجادية، ص ٤٠٦: مناجاة الراجين.

والشاهد لما خفي عنهم، وبرحمتك أخفيته، وبفضلك سترته...»[١].

فكان ذلك العلم، والشعور، واليقين القلبيّ سبباً لمراقبة العبد لأفعاله، وسكناته الّتي يأتي بها في محضر الرقيب العتيد، والمنعم المفضل، فلا تقع ـ والحال هذه ـ مخالفةٌ لهوى الباري، ولا إخلالٌ بأدب الحضور في محضر الباري جلّ وعلا.

فكان نتاج ذلك العصمة، وانعدام المعصية في صحيفة أعمالهم، وانشغالهم بأدب الحضور والمناجاة مع الباري عزّ وجلّ، رزقنا الله – تعالى – هذه المراتب علماً وعملاً، آمين ربّ العالمين.

حظّ العبد من الرقيب:

يقول آية الله العظمى، روح الله الخمينيّ رحمه الله، فيما يتعلّق بالمراقبة ما يلي:

«ومن الأمور الضروريّة للمجاهد: " المشارطة، والمراقبة، والمحاسبة "، فالمشارط هو الّذي يشارط نفسه في أوّل يومه على أنْ لا يرتكب اليوم أيّ عملٍ يخالف أوامر الله، ويتّخذ قراراً بذلك، ويعزم عليه.

وواضحٌ أنَّ ترك ما يخالف أوامر الله – ليومٍ واحدٍ – أمرٌ يسيرٌ للغاية، ويمكن للإنسان بيسرٍ أنْ يلتزم به، فاعزم، وشارط، وجرِّب، وانظر كيف أنَّ الأمر سهلٌ يسيرٌ.

ومن الممكن أنْ يصوّر لك إبليس اللعين وجنده أنَّ الأمر صعبٌ وعسيرٌ، فأدرِكْ

---

(١) مصباح المتهجد– الشيخ الطوسي، ص ٨٤٨– ٨٤٩.

أنَّ هذه هي مِن تلبّسات هذا اللعين، فالعنه قلباً وواقعاً، وأخرج الأوهام الباطلةِ من قلبك، وجرِّب ليومٍ واحدٍ، فعند ذلك ستصدّق هذا الأمر.

وبعد هذه المشارطة عليك أنْ تنتقل إلى «**المراقبة**»، وكيفيّتها هي أنْ تنتبه طوال مدّة المشارطة إلى عملك وفقها، فتعتبر نفسك ملزماً بالعمل وفق ما شارطت، وإذا حصل - لا سمح الله - حديثٌ لنفسك بأنْ ترتكب عملاً مخالفاً لأمر الله، فاعلم أنّ ذلك من عمل الشيطان وجنده، فهم يريدون أنْ تتراجع عمّا اشترطته على نفسك، فالعنهم، واستعذ بالله من شرِّهم، وأخرج تلك الوساوس الباطلة من قلبك، وقل للشيطان: " إنّي اشترطت على نفسي أنْ لا أقوم في هذا اليوم - وهو يومٌ واحدٌ - بأيّ عملٍ يخالف أمر الله تعالى، وهو وليُّ نعمتي طول عمري، فقد أنعم وتلطّف عليَّ بالصحّة، والسلامة، والأمن، وألطاف أخرى، ولو أنّي بقيت في خدمته إلى الأبد لما أدّيت حقّ واحدةٍ منها، وعليه فليس من اللائق أنْ لا أفي بشرطٍ بسيطٍ كهذا "،- وآمل إنْ شاء الله- أنْ ينصرف الشيطان، ويبتعد عنك، وينتصر جنود الرحمن.

والمراقبة لا تتعارض مع أيٍّ من أعمالك، كالكسب، والسفر، والدراسة، فكن على هذه الحال إلى الليل، ريثما يحين وقت المحاسبة.

وأمّا «**المحاسبة**» فهي: أنْ تحاسب نفسك؛ لترى: هل أدّيت ما أشرطت على نفسك مع الله، ولم تخن وليّ نعمتك في هذه المعاملة الجزئيّة؟ إذا كنت قد وفّيت حقّاً، فاشكر الله على هذا التوفيق، وإنْ شاء الله يُيَسِّر لك - سبحانه- التقدُّم في أمور دنياك وآخرتك، وسيكون عمل الغد أيسر عليك من سابقه، فواظب على هذا العمل فترةً، والمأمول أنْ يتحوّل إلى ملكةٍ فيك، بحيث يصبح هذا العمل بالنسبة إليك سهلاً ويسيراً للغاية، وستحسّ عندها باللذّة، والأنس في طاعة الله تعالى، وترك

معاصيه، وفي هذا العالم بالذّات، في حين أنَّ هذا العالم ليس هو عالم الجزاء، لكنّ الجزاء الإلهيّ يؤثّر، ويجعلك مستمتعاً، وملتذّاً بطاعتك لله، وابتعادك عن المعصية.

واعلم أنَّ الله لم يكلّفك ما يشقّ عليك به، ولم يفرض عليك ما لا طاقة لك به، ولا قدرة لك عليه، ولكنّ الشيطان وجنده يصوّرون لك الأمر وكأنه شاقٌّ وصعبٌ.

وإذا حدث - لا سمح الله - في أثناء المحاسبة تهاوناً وفتوراً تجاه ما اشترطت على نفسك، فاستغفر الله، واطلب العفو منه، واعزم على الوفاء بكلّ شجاعةٍ بالمشارط غداً، وكن على هذا الحال؛ كي يفتح الله – تعالى - أمامك أبواب التوفيق والسعادة، ويوصلك إلى الصراط المستقيم للإنسانيّة»[1].

أبو ذرّ وحسن الطاعة:

كان أبو ذرٍّ رضي الله عنه من خيار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، فجاءه ذات يومٍ، فقال: **«يا رسول الله، إنَّ لي غُنيماتٍ قدر ستين شاةً، فأكره أنْ أبدو فيها وأفارق حضرتك وخدمتك، وأكره أنْ أكِلَها إلى راعٍ، فيظلمها، ويسيء رعايتها، فكيف أصنع؟**

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: ابدُ فيها، فبدا فيها.

فلمّا كان في اليوم السابع جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا أبا ذرٍّ.

---

(١) الأربعون حديثاً- آية الله العظمى الإمام الخميني رحمه الله، ص٢٦- ٢٧. فصل في المشارطة والمراقبة والمحاسبة.

قال: لبّيك يا رسول الله.

قال: ما فعلتْ غُنيماتك؟

قال: يا رسول الله، إنَّ لها قصّةً عجيبةً!

قال: وما هي؟

قال: يا رسول الله، بينا أنا في صلاتي إذ عدا الذئب على غنمي، فقلتُ: يا ربّ صلاتي، ويا ربّ غنمي، فآثرت صلاتي على غنمي، وأخطر الشيطان ببالي: يا أبا ذرٍّ، أين أنت إنْ عدت الذئاب على غنمك وأنت تصلّي، فأهلكتها وما يبقى لك في الدنيا ما تتعيش به؟!

فقلتُ للشيطان: يبقى لي توحيد الله تعالى، والإيمان برسول الله صلى الله عليه وآله، وموالاة أخيه سيّد الخلق بعده، عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وموالاة الأئمّة الهادين الطاهرين من ولده، ومعاداة أعدائهم، وكلّ ما فات بعد ذلك جللٌ(١)، فأقبلتُ على صلاتي، فجاء ذئبٌ، فأخذ حملاً، فذهب به وأنا أحسّ به، إذ أقبل على الذئب أسدٌ، فقطعه نصفين، واستنقذ الحمل، وردّه إلى القطيع، ثمّ ناداني: يا أبا ذرٍّ، أقبل على صلاتك، فإنَّ الله قد وكّلَني بغنمك إلى أنْ تصلي.

فأقبلتُ على صلاتي، وقد غشيني من التعجّب ما لا يعلمه إلا الله تعالى، حتّى فرغت منها، فجاءني الأسد، وقال لي: امضِ إلى محمّد، فأخبره أنَّ الله – تعالى– قد أكرم صاحبك الحافظ لشريعتك، ووكّل أسداً بغنمه يحفظها، فعجب من حول رسول

---

(١) في المصدر: وكلّ ما فات من الدنيا بعد ذلك سهل."هامش البحار"

الله صلى الله عليه وآله.

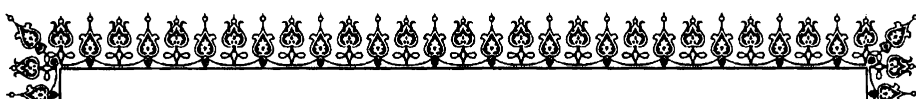
فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: صدقت يا أبا ذرّ، ولقد آمنت به أنا، وعليٌّ، وفاطمة، والحسن، والحسين.

فقال بعض المنافقين: هذا لمواطاةٍ بين محمّدٍ وأبي ذرّ، يريد أنْ يخدعنا بغروره، واتّفق منهم عشرون رجلاً، وقالوا: نذهب إلى غنمه، وننظر إليها، وننظر إليه إذا صلّى، هل يأتي الأسد فيحفظ غنمه؟! فيتبيّن بذلك كذبه، فذهبوا للقطيع ما شذّ عنه منها، حتّى إذا فرغ من صلاته ناداه الأسد: هاك قطيعك مسلّماً، وافر العدد سالماً.

ناداهم الأسد: معاشر المنافقين، أنكرتم لوليّ محمّدٍ وعليٍّ وآلهما الطيّبين، والمتوسّل إلى الله بهم أنْ يسخّرني الله ربّي لحفظ غنمه، والّذي أكرم محمّداً وآله الطيّبين الطاهرين، لقد جعلني الله طوع يد أبي ذرّ، حتّى لو أمرني بافتراسكم وهلاككم لأهلكتكم، والّذي لا يحلف بأعظم منه، لو سأل الله بمحمّدٍ وآله الطيّبين أنْ يحوّل البحار دهن زنبقٍ وبانٍ، والجبال مسكاً، وعنبراً، وكافوراً، وقضبان الأشجار قضب الزمرّد والزبرجد، لما منعه الله ذلك، فلمّا جاء أبو ذرٍّ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله قال له رسول الله صلى الله عليه وآله: يا أبا ذرّ، إنّك أحسنت طاعة الله فسخّر الله لك مَنْ يطيعك في كفّ العوادي عنك، فأنت من أفاضل مَنْ مدحه الله عزّ وجلّ بأنّه يقيم الصلاة»[1].

---

(١) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٢٢، ص ٣٩٣- ٣٩٤، ح١.



الموضوع السادس والعشرون:

الرَّؤُوف

١- تجلّيات الرؤوف.

٢- جزاء الرأفة.

٣- رأفة الله بزليخا.

٤- العبد والرؤوف.

٥- أهل بيت الرأفة، والرحمة.

٦- ذكر الرؤوف.

الرَّؤُوف

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[1].

وقـــال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾[2].

وقال سـبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[3].

قال الغزاليّ: «الرؤوف: ذو الرأفة... والرأفة شدّة الرحمة، فهو بمعنى الـرحيم مـع المبالغة»[4].

ويقول الفخر الرازيّ: «الرؤوف: اشتقاقه من الرأفة والرحمة، والرؤوف على وزن فعولٍ، كالشكور، والصبور.

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٤٣.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٠٧.

(٣) سورة الحشر: الآية ١٠.

(٤) المقصد الأسنى – الغزالي، ص ٢٢٣.

وتعلم أنَّه – تعالى – قَدَّم الرؤوف على الرحيم في الذكر، فلا بد من بيان الفرق بين الوصفين، ثمّ بيان سبب التقديم.

أمّا الفرق: فهو أنَّ الرحيم في الشاهد إنَّما يحصل لمعنىً في المرحوم من فاقةٍ، وضعفٍ، وحاجةٍ، والرأفة تطلق عند ما تحصل الرحمة، والمعنى في الفاعل من شفقةٍ منه على المرحوم.

إذا عرفت هذا فنقول: منشأ الرأفة كمال حال الفاعل في إيصال الإحسان، ومنشأ الرحمة كمال حال المرحوم في الاحتياج للإحسان، وتأثير حال الفاعل في إيجاد الفعل أقوى من احتياج المفعول إليه، فلهذا المعنى قُدِّم ذكر الرأفة على ذكر الرحمة»(١).

تجلّيات الرؤوف:

إذا كان الرؤوف من الرأفة، وهي تعني شدَّة الرحمة، والمبالغة فيها، فما تقدّم من أبحاثٍ في الرحيم يجري هنا، مع الالتفات إلى أنّ تلك الرحمة قطرةٌ من فيض رحيميّة الله – وفي التعبير تسامحٌ واضحٌ –، والرحيميّة قطرةٌ من بحر الرأفة الرؤوفيّة لله تعالى.

وسنشير إلى جوانب عدَّةٍ من رأفة الله تعالى، محاولين كشف الستار عن هذا الاسم الشريف.

---

(١) شرح الأسماء الحسنى – الفخر الرازي، ص ٢٣٧.

جزاء الرأفة:

«يُنقل أنَّ السلطان المقتدر - السلطان سبكتكين - كان صيّاداً من سكّان النيشابور، ولم يكن له من متاع الدنيا إلاّ فرساً، فركب يوماً، وذهب للصيد كما كانت عادته، فرأى ظبياً معه فصيلته، فقصدهما، ففرّ الظبي، واصطاد الفصيلة، فشدّه على رديفه ورجع، فلمّا ذهب قدراً من الطريق نظر إلى خلفه، فرأى الظبي يجيء قفاه، وينظر إليه حسرةً، فعلم من حاله أنّه يطلب فصيلته، ولها يمشي في قفاه، فرقّ وأشفق عليه، فقال في نفسه: الصيد وإنْ كان حلالاً ومباحاً لي، لكنّ الترحّم على هذا الظبي أولى من هذا الصيد، فوضعه على الأرض، فأخذ مع أمّه طريقهما، وكان السبكتكين ينظر إليهما، فرأى الظبي قد يرجع، وينظر إليه بحالةٍ كأنّه يدعو له، فرجع إلى منزله، فرأى رسول الله صلى الله عليه وآله في منامه.

قال له: يا سبكتكين، إنَّ الله – تعالى – أعطاك السلطة والدولة العظمى بشفقتك وترحّمك على الظبي، فيجب عليك أنْ تراعي ذلك في رعيّتك؛ لتدوم، فما مضى زمانٌ حتّى استقرّ عليه سرير الملك الكبير، والعزّ المستدام، فانتقل منه بعد ما كان عليه، وعاش ما عاش إلى ابنه السطان محمود»[1].

أقول: فإذا كان هذا جزاء من أحسن لظبيٍ، فما بال من يحسن ويرحم المؤمن، ويعطف ويرأف بعباد الله تعالى؟! فمن المعلوم أنَّ له الجزاء الأوفر؛ لما تخلّق بأخلاق الله – تعالى – ورؤوفيّته سبحانه.

---

(١) عِبَر من التاريخ– الشيخ باقر الحسني، ص ٦– ٧. نقلاً عن لآلئ الأخبار ٣، ص ١١١.

رأفة الله بزليخا:

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «استأذنتْ زليخا على يوسف، فقيل لها: يا زليخا، إنّا نكره أنْ نقدم بك عليه؛ لما كان منك إليه.

قالت: إنّي لا أخاف مَنْ يخاف الله، فلمّا دخلت قال لها: يا زليخا، مالي صفحةٌ، أراك قد تغيّر لونك؟!

قالت: الحمد لله الّذي جعل الملوك بمعصيتهم عبيداً، وجعل العبيد بطاعتهم ملوكاً.

قال لها: يا زليخا، ما الّذي دعاكِ إلى ما كان منكِ؟

قالت: حسن وجهك يا يوسف.

فقال: كيف لو رأيت نبيّاً - يُقال له: محمّدٌ- يكون في آخر الزمان، أحسن منّي وجهاً، وأحسن منّي خلقاً، وأسمح مني كفّاً؟

قالت: صدقت.

قال: وكيف علمتِ أنّي صدقت؟

قالت: لأنّك حين ذكرته وقع حبّه في قلبي، فأوحى الله عزّ وجلّ إلى يوسف: إنّها قد صدقت، وإنّي قد أحببتها لحبّها محمّداً صلّى الله عليه وآله، فأمره الله عزّ وجلّ أنْ يتزوّجها»[1].

وفي بعض النقولات - تواصل الحديث بعد مقولة زليخا- أنَّ يوسف قال لها: يا

---

(١) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ١٢، ص ٢٨١- ٢٨٢، ح٦١.

زليخا، هذا جبرئيل عليه السلام يقول: اسألي ما أردتِ.

قالت: أسأل خصالاً ثلاثاً:

الأولى: أنْ يرجع إليَّ شبابي.

الثانية: أنْ تكون أنتَ زوجي.

الثالثة: أنْ أكون معك في الجنة، فمسح جبرئيل عليه السلام جناحه عليها، فصارت إلى شبابها، وزوّجها جبرئيل عليه السلام يوسف عليه السلام، وفي الجنّة تكون معه...»[1].

لاحظ كم أنَّ الله تعالى رؤوفٌ ورحيمٌ بالعباد، يرأفهم ويرحمهم بأبسط الأمور، وأقلّ الحجج والأسباب؛ لينالوا السعادة في النشأتين، كما هو جليٌّ في هذه القصّة، والّتي يتجلّى فيها أنّه - ولمجرد إيمان وحبّ زليخا لرسولنا الكريم - مَنَّ عليها برأفته ورحمته الواسعة، خير الدنيا والآخرة، مع أنّها كانت السبب في سجن نبيّ الله يوسف، وما تعرّض له من صعوبات السجن طيلة سبع سنين، فهذا إنْ دلَّ على شيءٍ دلَّ على: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[2].

العبد والرؤوف:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ

(١) عبر من التاريخ- الشيخ باقر المحسني، ص ٥٤- ٥٥. نقلاً عن الأنوار النعمانية ج ١، ص ٣٤٢.

(٢) سورة البقرة: الآية: ١٤٣.

رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾(١).

إنَّ هذه الآية – وأمثالها – تكشف الستار عن أخلاق العظماء والأولياء، وأنّ الواحد منهم ليعيش بين الناس كواحدٍ منهم، يحبّ لهم ما يحبّ لنفسه، يعزُّ عليه عنت المؤمنين، وتعبهم، ومشقّتهم، بل يشقُّ على نفسه من أجل راحة الآخرين، فجسده منه في تعبٍ، والناس منه في راحةٍ، حريصٌ تمام الحرص على مصالح المسلمين والمؤمنين، يفعل كلّ ما بوسعه من خيرٍ لنفسه، ولأسرته، ومجتمعه، وأمّته، فوجوده وجودٌ نورانيٌّ، يشعّ منه النور، والخير، والرأفة لكلّ أجزاء عالم الوجود.

ولكونه متخلِّقاً بأخلاق الرسول، تجده يحمل راية الإيثار لعباد الله تعالى، وهو منتهى وغاية الرأفة، فيقدِّم رغباتهم على رغباته، وميولهم على ميوله، وراحتهم على راحته؛ وما ذلك إلا لينال مقام القرب والزلفى عند الله تعالى.

أهل بيت الرأفة والرحمة:

من أعظم وأجلى المصاديق للتخلُّق بأخلاق الله هو ما عليه محمّدٌ وأهل بيته عليهم السلام، حتّى امتدحهم القرآن في آياتٍ كثيرةٍ، ومواضع متعدّدة؛ ليكونوا أسوةً حسنةً للبشريّة والمؤمنين على نحو الخصوص، وإليك ما ورد في شأنهم من سورة الدهر، كما في رواية الإمام الصادق جعفر بن محمّدٍ، عن أبيه عليهما السلام في قوله عزّ وجلّ: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾(٢) قالا:

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٢٨.

(٢) سورة الإنسان: الآية ٧.

«مرض الحسن والحسين عليهما السلام وهما صبيّان صغيران، فعادهما رسول الله صلى الله عليه وآله ومعه رجلان.

فقال أحدهما: يا أبا الحسن، لو نذرت في ابنيك نذراً إن الله عافاهما.

فقال: أصوم ثلاثة أيّامٍ شكراً لله عزّ وجلّ، وكذلك قالت فاطمة عليها السلام.

وقال الصبيان: ونحن أيضاً نصوم ثلاثة أيّامٍ، وكذلك قالت جاريتهم فضّة.

فألبسهما الله عافيته، فأصبحوا صياماً، وليس عندهم طعامٌ، فانطلق عليٌّ عليه السلام إلى جارٍ له من اليهود، يُقال له شمعون، يعالج الصوف.

فقال: هل لك أنْ تعطيني جزّةً من صوفٍ تغزلها لك ابنة محمّدٍ بثلاثة أصوعٍ من شعير؟

قال: نعم، فأعطاه، فجاء بالصوف والشعير، وأخبر فاطمة عليها السلام، فقبلت، وأطاعت، ثمّ عمدت فغزلت ثلث الصوف، ثمّ أخذت صاعاً من الشعير، فطحنته، وعجنته، وخبزت منه خمسة أقراصٍ، لكلّ واحدٍ قرصاً، وصلّى عليٌّ عليه السلام مع النبيّ صلى الله عليه وآله المغرب، ثمّ أتى منزله، فوضع الخوان، وجلسوا خمستهم، فأوّل لقمةٍ كسرها عليٌّ عليه السلام إذا مسكينٌ قد وقف بالباب.

فقال: السلام عليكم يا أهل بيت محمّدٍ، أنا مسكينٌ من مساكين المسلمين، أطعموني مما تأكلون، أطعمكم الله على موائد الجنة، فوضع اللقمة من يده، ثمّ قال:

فاطم ذات المجد واليقين ... يا بنت خير الناس أجمعين

أما ترين البائس المسكين جاء إلى الباب له حنين
يشكو إلى الله ويستكين يشكو إلينا جائعاً حزين
كلّ امرئٍ بكسبه رهين من يفعل الخير يقف سمين
موعده في جنّة دهين حرّمها الله على الضنين
وصاحب البخل يقف حزين تهوي به النار إلى سجّين
شرابه الحميم والغسلين

فأقبلت فاطمة عليها السلام تقول:

أمرك سمعٌ يا ابن عم وطاعة ما بي من لؤمٍ ولا رضاعة
غذيت باللبّ وبالبراعة أرجو إذا أشبعت من مجاعة
أن ألحق الأخيار والجماعة وأدخل الجنّة في شفاعة

وعمدتْ إلى ما كان على الخوان فدفعته إلى المسكين، وباتوا جياعاً، وأصبحوا صياماً لم يذوقوا إلا الماء القراح.

ثمّ عمدتْ إلى الثلث الثاني من الصوف، فغزلته، ثمّ أخذت صاعاً من الشعير، وطحنته، وعجنته، وخبزت منه خمسة أقرصةٍ، لكلّ واحدٍ قرصاً، وصلّى عليّ المغرب مع النبيّ – صلى الله عليهما–، ثمّ أتى منزله، فلمّا وضع الخوان بين يديه، وجلسوا خمستهم، فأوّل لقمةٍ كسرها عليٌّ عليه السلام إذا يتيمٌ من يتامى المسلمين، قد وقف بالباب، فقال:

السلام عليكم أهل بيت محمّدٍ، أنا يتيمٌ من يتامى المسلمين، أطعموني ممّا تأكلون، أطعمكم الله على موائد الجنّة، فوضع عليٌّ عليه السلام اللقمة من يده، ثمّ قال:

فاطم بنت السيّد الكريم   بنت نبيٍّ ليس بالزنيم
قد جاءنا الله بذا اليتيم   من يرحم اليوم هو الرحيم
موعده في جنّة النعيم   حرّمها الله على اللئيم
وصاحب البخل يقف ذميم   تهوي به النار إلى الجحيم
شرابه الصديد والحميم

فأقبلت فاطمة عليها السلام وهي تقول:

فسوف أعطيه ولا أبالي   وأؤثر الله على عيالي
أمسوا جياعاً وهم أشبالي   أصغرهم يقتل في القتال

ثمّ عمدت فأعطته عليها السلام جميع ما على الخوان، وباتوا جياعاً لم يذوقوا إلا الماء القراح، وأصبحوا صياماً، وعمدت فاطمة عليها السلام فغزلت الثلث الباقي من الصوف، وطحنت الصاع الباقي، وعجنته، وخبزت منه خمسة أقراصٍ، لكلّ واحدٍ قرصاً، وصلّى عليٌّ عليه السلام المغرب مع النبيّ صلى الله عليه وآله، ثمّ أتى منزله، فقرب إليه الخوان، وجلسوا خمستهم، فأوّل لقمةٍ كسرها عليٌّ عليه السلام إذا أسيرٌ من أسراء المشركين، قد وقف بالباب فقال:

السلام عليكم يا أهل بيت محمّدٍ، تأسروننا، وتشدّوننا، ولا تطعموننا؟! فوضع عليٌّ عليه السلام اللقمة من يده، ثمّ قال:

فاطم يا بنت النبيّ أحمد بنت نبيٍّ سيّدٍ مسوّد
قد جاءك الأسير ليس يهتدي مكبّلاً في غلّه مقيّد
يشكو إلينا الجوع قد تقدّد من يطعم اليوم يجده في غد
عند العليّ الواحد الموحّد ما يزرع الزارع سوف يحصد
فأعطيه لا تجعليه ينكد

فأقبلت فاطمة عليها السلام وهي تقول:

لم يبقَ ممّا كان غير صاع قد دبّرت كفّي مع الذراع
شبلاي والله هما جياع يا ربّ لا تتركهما ضياع
أبوهما للخير ذو اصطناع عبل الذراعين طويل الباع
وما على رأسي من قناع إلا عبا نسجتها بصاع

وعمدوا إلى ما كان على الخوان، فأعطوه، وباتوا جياعاً، وأصبحوا مفطرين وليس عندهم شيءٌ.

قال شعيبٌ في حديثه: وأقبل عليٌّ بالحسن والحسين عليهما السلام نحو رسول الله صلى الله عليه وآله، وهما يرتعشان كالفرخ من شدّة الجوع، فلمّا بصر بهم النبيّ صلى الله عليه وآله قال: يا أبا الحسن، أشدّ ما يسوؤني ما أرى بكم، انطلق إلى ابنتي فاطمة، فانطلقوا إليها وهي في محرابها، قد لصق بطنها بظهرها من شدّة الجوع، وغارت عيناها، فلمّا رآها رسول الله صلى الله عليه وآله ضمّها إليه.

وقال: وا غوثاه بالله، أنتم منذ ثلاثٍ فيما أرى؟!

فهبط جبرئيل، فقال: يا محمّد، خذ ما هيّأ الله لك في أهل بيتك.

قال: وما آخذ يا جبرئيل؟

قال: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ...﴾[1] **حتّى إذا بلغ** ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾[2]»[3].

ذكر الرؤوف:

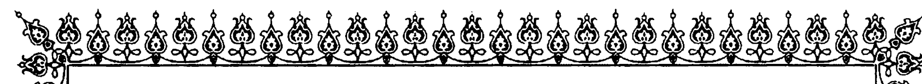
في المصباح نقلاً عن البرسيّ: «مَن ذكر الرؤوف عند ظالمٍ خضع»[4].

(١) سورة الإنسان: الآية ١.

(٢) سورة الإنسان: الآية ٢٢.

(٣) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٣٥، ص ٢٣٧- ٣٤٠، ح١.

(٤) المصباح- الكفعمي، ص٤٨٠.



الموضوع السابع والعشرون:

السَّلام

١- تجلّيات السلام.

٢- العبد والسلام.

أ- السلامة في العقيدة.

ب- سلامة العمل.

حـ- سلامة الأخلاق.

٣- ذِكرُ السلام.

السَّلام

قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1].

ذكر الشيخ الصدوق رحمه الله للسلام ثلاثة معانٍ، وهي:

«**الأوّل**: المراد به أنَّ السلامة تنال من قبله...[2]

الثاني: أنَّه يوصف بهذه الصفة لسلامته مما يلْحَق الخَلق من العيب، والنقص، والزوال، والانتقال، والفناء، والموت، وقوله عزّ وجلّ: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾[3]. فالسلام هو الله عزّ وجلّ، وداره الجنّة، ويجوز أنْ يكون سمَّاها سلاماً لأنَّ الصائر إليها يسلم فيها من كلّ ما يكون في الدنيا من مرضٍ، ووصبٍ، وموتٍ، وهرمٍ، وأشباه ذلك، فهي دار السلامة من الآفات والعاهات، وقوله عزّ وجلّ: ﴿فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ

---

(١) سورة الحشر: الآية ٢٣.

(٢) أي: أنه واهب ومعطي السلامة للخلق، فجعلهم في أحسن صورة وتقويم.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٢٧.

الْيَمِينِ﴾[1] يقول: فسلامةٌ لك منهم، أي: يخبرك عنهم سلامة.

الثالث: والسلامة في اللغة: الصواب، والسداد أيضاً، ومنه قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾[2] أي: سَداداً، وصواباً، ويُقال: سُمِّي الصواب من القول سلاماً لأنّه يسلم من العيب والإثم»[3].

وقال الغزاليّ:

«السلام: هو الّذي تسلم ذاته من العيب، وصفاته عن النقص، وأفعاله عن الشرّ، حتّى إذا كان كذلك لم يكن في الوجود سلامةٌ إلا كانت معزيةً إليه، صادرةً منه.

وقد فهمتَ أنّ أفعاله - تعالى - سالمةٌ عن الشرّ، أعني الشرّ المطلق المراد لذاته، لا لخيرٍ حاصلٍ في ضمنه أعظم منه، وليس في الوجود شرٌّ بهذه الصفة...»[4].

تجلّيات السلام:

تقدَّم ذكر بعض صور عجائب الخلق وحكمته، وهي تدلّ كذلك على سلامتها من كلّ عيبٍ لا ينسجم مع طبيعة خلقتها، وأنّها مؤمّنةٌ بكلّ الوسائل الطبيعيّة من أجل البقاء والاستمرار في أتمّ صوره، بل إنَّ الآيات القرآنية تأمرنا وتحثّنا على

---

(١) سورة الواقعة: الآية ٩١.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٦٣.

(٣) التوحيد- الشيخ الصدوق، ص ٢٠٤.

(٤) المقصد الأسنى- الغزالي، ص ١١٥.

التأمُّل والتفكُّر في آيات الله وآلائه، وذلك خير شاهدٍ على سلامة خلقه من العيب والنقص.

ولعمري إنَّ فيها من العجائب والأسرار ما بَهَرَ العقول، وأعجز الأذهان عن تصوّرها، وإدراك حقيقتها، فضلاً عن ابتكار مثلها، وإنّ ذلك لدليلٌ قاطعٌ على عظمة المخلوقات، وإتقانها الفائق، وهو دليلٌ على سلامة خالقه من العيب والنقص، بل وعلى عظمته.

ومع ذلك سنشير إلى جانبٍ آخر من كمالاته ﷻ، وهي سلامة فعاله - جلّت قدرته - في الجانب التقنينيّ والتشريعيّ، وهي خلال التأمّل في تلك التقنينات الّتي قنّنها ﷻ من أجل نيل السعادة الدنيويّة، وخصوصاً الأخرويّة، والّتي تدلّ بتأمّلٍ بسيطٍ على أنّه – سبحانه- كم له في تشريعاته تفضّلاتٍ ومِنَنٍ على الإنسان، هذا بعد الفراغ من نزاهة أحكامه – سبحانه - من الخلل، والنقص، والعيب، ونسرد ما ذكره الشيخ حسين البحرانيّ رحمه الله في كتابه القيّم: "الطريق إلى الله" بما يناسب المقام، حيث قال:

اعلم أنَّ الإنسان خُلِقَ للحياة الدائمة، والعيش السرمديّ، وعمر الآخرة لا نهاية له، وقد جعل الله هذه الدنيا مزرعةً للآخرة، ورتَّب الجزاء في الآخرة على الأعمال في هذه الدنيا، فكان تأهّل العباد لتلك السعادة الأبديّة بهذه الأعمال الدنيويّة.

ولا ريب أنَّ هذه الأعمار القصيرة، والمدَّة القليلة، لو استغرقت بالعبادة بحيث لم يُعصَ الله – تعالى - فيها طرفة عينٍ، ولم يُصرف مقدار نَفَسٍ من الأنفاس إلا في طاعة الله، فهي مع ذلك قاصرةٌ وناقصةٌ - بالبداهة والضرورة - عن الأهليّة

للمقابلة، ومقام المعاوضة والمجازاة.

فلا بدَّ - بمقتضى الرأفة الإلهيّة، والرحمة الربّانيّة - أنْ يفتح لهم أبواباً من أبواب كرمه، يؤهّلهم بها لمقام الجزاء بما لا انقضاء له ولا فناء؛ إذ كلّ نعمه ابتداءٌ، وكلّ إحسانه تفضّلٌ.

فأوّل ما تفضّل به عليهم بجوده كرمه، أنْ جعل أعمالهم غير منقطعةٍ بانقطاع آجالهم، ولا منتهيةٍ بانتهاء مددهم، بحيث جعلها يمكن أنْ تكون منطبقةً على عمر الدنيا، ومستغرقةً لأيّام العمل، ووجود العاملين، وذلك بأنْ جعل من أحكام دينه الّتي حكم بها: إنَّ مَنْ سنَّ سنة هدىً فله أجرها، وأجر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة، كما أنَّ مَنْ سنَّ سنة ضلالٍ فعليه وزرها، ووزر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة.

وكذلك جعل من أحكامه: أنَّ الوالدين شركاء مع أولادهما فيما يعملون من أعمال الخير، بمقتضى التسبّب والعلّيّة للوجود، وهذه سلسلةٌ غير منقطعةٍ.

وكذلك جعل ثواب بعض الأعمال: أن يخلق منها ملائكةً يعبدون الله إلى يوم القيامة، ويكون ثواب عبادتهم لصاحب العمل.

وكذلك فتح لهم باب التنزيل، فنزّل العمل ليلةً واحدةً بمنزلة العمل في ألف شهرٍ، بل أخبر الله – سبحانه – فقال: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾[1].

وجعل تفكّر ساعةٍ بمنزلة عبادة ستين سنة، على ما في بعض الروايات.

وجعل المبيت عند أمير المؤمنين عليه السلام يعدل عبادة سبعمائة سنة.

---

(١) سورة القدر: الآية ٣.

وجعل قضاء حاجة المؤمن يعدل تسعة آلاف سنة، صائماً نهارها، وقائماً ليلها.

وكلّ ذلك تعطُّفاً منه على عباده المؤمنين، وتفضُّلاً؛ ليؤهّلهم لأنْ يصلوا إلى رتبة استغراق عمر الدنيا بالطاعة؛ حتّى يكون لهم شوق التأهُّل بهذه المرتبة النفيسة بجوده وكرمه.

ثمّ ذلك قليلٌ في جنب ما يريد أنْ يؤهّلهم عن استغراق مدَّة الأمد والسرمد، بالعبادة، والطاعة له عَزَّوَجَلَّ، فأكمل لهم الامتنان؛ ليتمّ لهم الإنعام، بأنْ فتح لهم باب الجزاء على النيّة الّتي هي من العمل، فجعل نيّات المؤمنين أنْ لو خلّدوا في الدنيا لداموا على طاعتهم لله عَزَّوَجَلَّ، فأثابهم على ذلك ثواب الدائمين على طاعته، وجعل جزاءهم على هذه النيّات الخلود في الجنّة.

كما أنَّ الكفّار بسوء نيّاتهم - وأنّهم لو داموا لداموا على معصيته - جعل جزاءهم الخلود في عقابه.

فيا أيّها الأخ المسترشد، اعلم أنَّ أعمالك مبنيّةٌ على الدوام، لا على الانقطاع، وإنْ كنت تراها منقطعةً، ففي بعض الأخبار أنَّ: «**السعيد مَنْ ماتت سيّئاته بموته**».

يعني: السعيد أنْ لا يُعمل بها بعده، وإلا فإذا عُمل بها اقتداءً به، واقتداءً بمن اقتدى به، كان عليه وزرها إلى يوم القيامة(١).

فهذا جانبٌ من جوانب الكمال في التشريع الإلهيّ، الّذي لا يعتريه الباطل والنقص بوجهٍ من الوجوه، بل إنّه سليمٌ كلّ السلامة، وفوق السلامة؛ لما فيه من

---

(١) الطريق إلى الله- الشيخ حسين البحراني، ص ٢٩- ٣٢.

الخير والفضل الكثيرين.

العبد والسلام:

لا ينال العبد حظّه من هذا الاسم الشريف إلا إذا استوفى حظَّه منها في جوانب ثلاثةٍ، وهي على نحو الإيجاز:

أ- السلامة في العقيدة:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(١).

وما هذا الخسران الّذي يناله العبد في يوم الجزاء إلاّ جرَّاء عقيدةٍ باطلةٍ ومعوجّةٍ كان يعتنقها، فكلّ دينٍ - غير الإسلام - نقصٌ، وانحرافٌ، واعوجاجٌ لا يؤدّي الغرض الإلهيّ في الأرض، لذا لم - ولن - يرتئيه الباري جلّ وعلا.

ومن جانبٍ آخر: وحيث إنَّ المسلمين قد اختلفوا فيما بينهم في اعتقاداتهم الشرعيّة، ومنهجهم العمليّ الفقهيّ إلى مذاهب وفرق شتّى، ولا يمكن الجمع بينها والعمل بها، فلا بدّ من معرفة الطريق الصحيح الموصل إلى أهداف الشارع المقدّس، وتحقيق غرضه في الأرض بأتمِّ صوره، وذلك من خلال العمل بما أفاد وأمر، لا من الاجتهادات الباطلة الّتي تقابل النصّ الصريح، فلا يطاع الله إلا من حيث أمر، والطريق الوحيد الموصل إلى ذلك هو من خلال التمسّك بالثقلين معاً، عملاً بوصيّة الرسول، كما هي روايةٌ عن زيد بن أرقم وغيره، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**إنّي**

(١) سورة آل عمران: الآية ٨٥.

تارك فيكم ما إنْ تمسّكتم به لن تضلّوا بعدي؛ أحدهما أعظم من الآخر؛ كتاب الله حبلٌ ممدودٌ من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا حتّى يردا عليَّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»[1].

ومنشأ هذا التأكيد على التمسّك بالثقلين معاً واضحٌ في الحديث، وهو صون المجتمع الإسلاميّ من الضلال والضياع، والّذي هو الهدف الأساس من الرسالة المحمّديّة، والحديث الآتي يكشف أهميّة التمسّك بالثقل الأصغر، ومنشأ التأكيد على دور الولاية في الإسلام هو ما يلي:

عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**بُني الإسلام على خمسة أشياءٍ؛ على الصلاة، والزكاة، والحج، والصوم، والولاية.**

قال زرارة: فقلت: وأيّ شيءٍ من ذلك أفضل؟

فقال: الولاية أفضل؛ لأنّها مفتاحهنّ، والوالي هو الدليل عليهنّ.

قلت: ثمّ الّذي يلي ذلك في الفضل؟

فقال: الصلاة، قلت: ثمّ الّذي يليها في الفضل؟

---

(١) سنن الترمذي- الترمذي ج ٥، ص: ٣٢٨، ح٣٨٧٦. والنصوص متواترة مضموناً، وإن اختلفت ألسنتها في كتب الحديث، من قبيل ما ورد في مسند أحمد- الإمام أحمد بن حنبل ج٣، ص١٤.عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إني تارك فيكم الثقلين، أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض».

قال: الزكاة؛ لأنّه قرنها بها، وبدأ بالصلاة قبلها.

قلت: فالّذي يليها في الفضل؟

قال: الحجّ.

قلت: ماذا يتبعه؟ قال: الصوم»[(١)].

فخلاصة الكلام في هذا المقام: إنَّ الأئمة عليهم السلام هم الأدلاّء على مرضاة الله، والمؤدِّين عن الله، والقائمين بحقّ الله، والناطقين عن الله، والمستقرّين في أمر الله، والمخلصين في توحيد الله، والصادعين بأمر الله، والثابتين في محبّة الله، والمظهرين لأمر الله ونهيه، وعباده المكرمين، الّذين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون... كما ورد عنهم عليهم السلام في زيارة الجامعة، فهم - دون غيرهم - معنيّون ببيان الأحكام وملاكات الشارع أوّلاً وبالذات، دون غيرهم.

ب- سلامة العمل:

من الخطأ الفادح أنْ تتصوّر أنَّ منشأ السعادة هي عبارةٌ عن عقيدةٍ صحيحةٍ مجرّدةٍ عن العمل، بل إنَّ الإيمان المجرّد لا يكفي للفوز والسعادة إنْ جرّدته عن واقعه العمليّ، وآثاره، ولوازمه، فهل ينفع الإيمان بمُحْرقيَّة النار مع إلقاء النفس فيها؟! أليس ذلك من سذاجة العقل؟! لعدم ترتيب الآثار المناسبة لهذا الإيمان والاعتقاد الصحيح المطابق للواقع.

---

(١) وسائل الشيعة - الشيخ الحر العاملي ج ١، ص ١٣، ح ٢.

لهذا تجد الأئمة الأطهار عليهم السلام لعنوا أولئك الّذين قالوا: إنَّ الإيمان عبارةٌ عن اعتقادٍ فقط من دون ملاحظة العمل، مع أنَّ القرآن الكريم يبيِّن لنا توأميّةً وتلازماً بين الإيمان والعمل في كثيرٍ من الآيات الشريفة، حيث قرن الإيمان بالعمل، من قبيل قوله – تعالى – في سورة العصر: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[1].

وليس المطلوب مطلق العمل كيفما اتّفق، بل المطلوب هو العمل المطابق لأحكام الله، والمعتبرة عنده، وهذا لا يتسنّى إلا من خلال التمسّك بآراء الفقهاء الأعلام الأخيار في زمن الغيبة؛ فهم حجّة الله علينا؛ لأنّهم أهل الاختصاص بالفقه، الّذين يلزم الرجوع إليهم بحكم السيرة العقلائيّة الممضاة من قبل الشارع.

فالعقلاء يرون لزوم الرجوع إلى الفقهاء؛ لضرورة رجوع مَنْ لا علم له ولا خبرة إلى أهل الخبرة والتخصّص في كلّ ما لا يعلمونه.

وكذلك الشرع قاضٍ بضرورة الرجوع إليهم، كما في الخبر المرويّ بخطّ مولانا صاحب الزمان – عليه آلاف التحيّة والسلام – بعد الإجابة على مجموعةٍ من المسائل، قال:

«وأمّا الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا؛ فإنّهم حجّتي عليكم، وأنا حجّة الله عليهم»[2].

---

(١) سورة العصر: الآية ١– ٣.

(٢) كمال الدين وتمام النعمة– الشيخ الصدوق، ص ٤٨٣– ٤٨٤،ح٤. وقد ورد عن مولانا الإمام

وفي روايةٍ عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «... **فأمّا مَنْ كان من الفقهاء صائناً لنفسه، حافظاً لدينه، مخالفاً على هواه، مطيعاً لأمر مولاه، فللعوامّ أنْ يقلِّدوه، وذلك لا يكون إلا لبعض فقهاء الشيعة، لا كلّهم، فإنَّ مَنْ ركب من القبايح والفواحش... فلا تقبلوا منهم عنّا شيئاً، ولا كرامة**»[1].

وإنَّ العمل على وفق آراء الفقهاء العدول الأخيار هو السبيل الوحيد لنيل أعلى مراتب الكمال الإنسانيّ في هذه النشأة، أي أنَّ الطريق الوحيد إلى الله – تعالى – بمبدئه ومنتهاه هو من خلال الأحكام الشرعيّة، والالتزام بها، ولا يمكن للمتخلِّف عن ذلك ارتقاء سلّم الكمال، ولا عتبة واحدة.

فهي بمثابة الحجر الأساس لكلّ الكمالات الشرعيّة الّتي ينالها السالك إلى الله تعالى، كما بُيِّن في كلام العرفاء، وعلماء الأخلاق.

فقد سُئل العارف الكامل، آية الله العظمى الشيخ محمد تقي بهجت دام ظله: «إنِّي مصمّمٌ على تحصيل القرب من الله، والتوفّر على السير والسلوك، فما السبيل لذلك؟

فكان جوابه:

الصادق عليه السلام أنّه قال: «... فأما من كان من الفقهاء صائنا لنفسه، حافظاً لدينه، مخالفاً على هواه، مطيعاً لأمر مولاه، فللعوام أن يقلدوه، وذلك لا يكون إلا بعض فقهاء الشيعة لا كلهم، فإن من ركب من القبايح والفواحش مراكب علماء العامة فلا تقبلوا منهم عنا شيئاً ولا كرامة...». وسائل الشيعة – الحر العاملي ج ٢٧، ص ١٣١، ح ٢٠.

(١) وسائل الشيعة – الشيخ الحر العاملي ج ٢٧، ص١٣١، ح ٢٠.

بسمه تعالى: إذا كان الطالب صادقاً فترْك المعصية كافٍ ووافٍ للعمر كلّه، حتّى لو كان ألف سنة»(١).

وواضحٌ - وغير خفيٍّ - أنَّ ترْك المعصية لا يكون إلا من خلال معرفة رأي الفقيه الجامع للشرائط، المُبيِّن للحرام والحلال، وسائر الأحكام الإلزاميّة وغيرها.

ج- سلامة الأخلاق:

قال الشيخ حسين البحرانيّ رحمه الله - في بيان أهمّيّة الأخلاق - ما يلي:

«اعلم - أيّدك الله - أنَّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال: «**بُعثت لأُتمّ مكارم الأخلاق**»(٢).

ولا التباس في ذلك، فإنَّ أمر المعاد والمعاش لا ينتظم، ولا يتهنّأ طالبه إلا بالخُلُق الكريم، فلا يتوهّم أنَّ العمل الصالح الكثير ينفع من دون تهذيب الخُلق وتقويمه، بل يجيء الخُلُق السيّء فيفسد العمل الصالح، كما يفسد الخلّ العسل(٣)، فأيّ نفعٍ فيما عاقبته الفساد؟! ولا تتوهّم أنَّ العمل الكثير ينفع من دون إصلاح الخلق وتهذيبه، حاشا وكلاّ، فإنَّ أهل البيت عليهم السلام قالوا: «**لا تكونوا علماء جبّارين، فيذهب بحقّكم باطلكم**»(٤).

---

(١) في مدرسة الشيخ بهجت ج٢، ص ٧٥.

(٢) «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٦٨، ص ٣٨٢، ح١٧.

(٣) عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن سوء الخلق ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل».الكافي- الشيخ الكليني ج ٢، ص٣٢١:٢، ح١.

(٤) الأمالي- الشيخ الصدوق، ص ٤٤٠، ح٩.

ولا تتوهّم أنَّ صاحب الخُلق السيِّء يقدر أنْ يهنأ بمعاشرة والدٍ، أو ولدٍ، أو زوجٍ، أو صديقٍ، أو رفيقٍ، أو دارٍ، أو أستاذٍ، أو تلميذٍ... كلاّ، بل كلّهم يتأذّون منه، وينفرون عنه، وكيف يمكنه اكتساب الكمالات المتفرّقة في الناس، وأهل الكمال ينفرون منه، ويهربون عنه؟!

واعلم أنَّ من نظر إلى طريقة أهل البيت عليهم السلام، وتتبّع آثارهم، وجد هدايتهم للخلق، وجلبهم للدين، إنَّما هو بأخلاقهم الكريمة، وبذلك أمروا شيعتهم، فقالوا: **«كونوا دعاةً للناس بغير ألسنتكم»**(١).

بل يعتنون بأخلاقكم الكريمة، وأفعالكم الجميلة، حتّى تكونوا قدوةً لِمَن اقتدى، وأسوةً لمن تأسّى، فإذا ظهر أنَّ أمر المعاش والمعاد إنَّما يتمّان بمكارم الأخلاق، وأنَّ إتمام مكارم الأخلاق هو فائدة البعثة، والّتي ما صلح الوجود إلا بها، تبيّن أنَّ تهذيب الأخلاق مقدّمٌ على كلّ واجبٍ، وأهمّ من كلّ لازمٍ، ومع ذلك هو مفتاح كلّ خيرٍ، والمنبع لكلّ حسنٍ، والجالب لكلّ ثمرةٍ، والمبدأ لكلّ غايةٍ.

انظر فيما ورد أنَّ الكفار يثابون على مكارم الأخلاق، وفي الّذي كان دأبه مخالفة النفس، فجرّه ذلك إلى الإيمان، وفي الّذي كان سخيّاً، وكان من الأسرى عند النبيّ صلى الله عليه وآله، فنزل جبرئيل عليه السلام من الله عزّ وجلّ بأن: **«لا تقتلوه لسخائه، فجرَّه ذلك إلى السلامة من القتل في العاجل، والفوز بالجنّة آجلاً»**»(٢).

---

(١) عن ابن أبي يعفور قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم، ليروا منكم الورع والاجتهاد والصلاة والخير، فإن ذلك داعية». الكافي- الشيخ الكليني ج ٢، ص ٧٨، ح١٤.

(٢) الطريق إلى الله- الشيخ حسين البحراني، ص ١٥- ١٧.

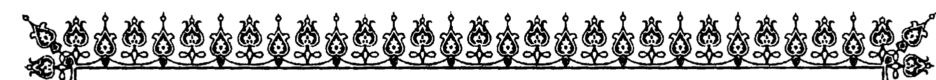
ذِكرُ السلام:

في المصباح للشيخ الكفعميّ عن الشيخ البُرسيّ: «السلام: فيه شفاء المرضى، والسلامة عن الآفات، ومن قرأه مائة مرَّة على مريضٍ شُفي بإذن الله تعالى»(١).

⬅

أما رواية مَنْ جرَّه السخاء إلى الإسلام مروية عن علي بن الحسين عليه السلام في خبر طويل قال: «ثلاثة نفر آلوا باللات والعزى ليقتلوا محمّداً صلى الله عليه وآله، فذهب أمير المؤمنين عليه السلام وحده إليهم، وقتل واحدا منهم، وجاء بالآخرَيْن، فقال النبي صلى الله عليه وآله: قدم إلى أحد الرجلين، فقدمه، فقال: قل: لا إله إلا الله، وأشهد أني رسول الله، فقال: لنقل جبل أبي قبيس أحب إلي من أن أقول هذه الكلمة، قال: يا علي، أخّره واضرب عنقه، ثمّ قال: قدم الآخر، فقال: قل: لا إله إلا الله، وأشهد أني رسول الله. قال: ألحقني بصاحبي، قال: يا علي، أخره واضرب عنقه، فأخره، وقام أمير المؤمنين عليه السلام ليضرب عنقه، فنزل جبرئيل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وآله، فقال: يا محمد، إن ربك يقرئك السلام، ويقول: لا تقتله؛ فإنه حسن الخلق، سخي في قومه، فقال النبي صلى الله عليه وآله: يا علي، أمسك؛ فإن هذا رسول ربي عزّ وجلّ يخبرني أنه حسن الخلق، سخي في قومه، فقال المشرك تحت السيف: هذا رسول ربك يخبرك؟ قال: نعم، قال: والله ما ملكت درهما مع أخ لي قط، ولا قطبت وجهي في الحرب، فأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: هذا ممن جرّه حسن خلقه وسخاؤه إلى جنات النعيم». بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٦٨، ص ٣٩٠، ح٤٩.

(١) المصباح- الكفعمي، ص ٤٧٧.



الموضوع الثامن والعشرون:

الجَبَّـــار

١- تجلّيات الجبّار.

٢- من عجائب النملة والعنكبوت.

٣- العبد والجبّار.

أ- العبوديّة والعدم التجبر.

ب- استكمال الكمالات.

٤- ذِكرُ الجبّار.

الجبَّــار

قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1].

ذكر الفخر الرازيّ للجبّار معانٍ ثلاثةً:

«الأوّل: الجبّار: العالي الّذي لا يُنال، ومنه يُقال: نخلةٌ جبّارةٌ، إذا طالت، وعلت، وقصرت الأيدي عن أنْ تنال أعلاها، ويُقال: ناقةٌ جبّارة، إذا عظمت، وسمنت، وفرسٌ جبّارٌ، إذا كان هيكلاً مشرفاً، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾[2] أي: عظماء، وقال أهل التفسير: هم بقيّة قوم عادٍ.

ويُقال: رجلٌ جبّارٌ، إذا كان متعظّماً، متكبّراً، لا يتواضع، ولا ينقاد إلى أحدٍ، وهذا الاسم في حقّ الله تعالى يفيد أنّه تعالى بحيث لا تناله الأفكار، ولا تحيط به الأبصار، ولا يصل إلى كنه عزّه عقول العقلاء، ولا ترتقي إلى مبادي إشراق جلاله علوم

---

(١) سورة الحشر: الآية ٢٣.

(٢) سورة المائدة: الآية ٢٢.

العلماء، وهذا المعنى من صفات التنزيه.

الثاني: الجبَّار بمعنى: المصلح للأمور، ويُقال: جبرت الكسر، إذا أصلحته، وجبرتُ الفقير، إذا أنعشته، وكفيته أمره، والجبَّار يفيد الكثرة، والمبالغة في هذا المعنى، ويُقال: جبر الله مصيبته، ومن الدعاء: يا جابر كلّ كسيرٍ، ولا يُقال هذا الاسم في حقّ الله تعالى إلا مع هذه الإضافة.

قال الفرّاء: والفعل منه: جبر، يجبر، جبراً، وجبراناً، وقال العجّاج:

قَد جَبَرَ الدَينَ الإلَهُ فَجَبَر

أي: أصلحه، فصلح، وهو فعلٌ لازمٌ ومتعدٍّ، ونظيره: عمَّرت الدار فعمُرت، فعلى هذا الجبَّار في الحقيقة هو الله ﷻ؛ لأنَّه هو المصلح لأمور الخلق، والمظهر للدين الحقّ، والميسِّر لكلّ عسيرٍ، والجابر لكلّ كسيرٍ، وهذا المعنى يرجع إلى صفات الفعل.

الثالث: أنْ يكون الجبَّار من جبره على كذا، أي: أكرهه على ما أراد، ويُقال: جبر السلطان فلاناً على الأمر، وأجبره بالألف، إذا أكرهه عليه...»[١].

تجلّيات الجبَّار:

إنَّ الإنسان ليعجز عن تصوّر مخلوقات الله، من الأفلاك، والسموات السبع، والأرضين السبع، وما بينهما من عجائب وغرائب، فكيف يمكن له أن يتصوّر أسماء

---

(١) شرح الأسماء الحسنى – الفخر الرازي، ص ١٩٣.

الله ﷻ كالجبّار؟! وإذا كان عاجزاً عن الإلمام ببعض أسرار وكنه أبسط الموجودات وأحقرها، من قبيل النملة، والبعوضة، فكيف يمكن له أن يحيط علماً ببارئها ومَنْ سوّاها؟! إنّه هذا الإنسان الضعف ليعجز عن الإحاطة بخفايا الخلق، فضلاً عن أن يتمكّن من الخلق، ولو كانت ذرّةً واحدةً من ذرّات عالم الوجود، فكيف يمكن لهذا العاجز من الإحاطة بجبّار السموات والأرض؟!

ولعمري إنَّ هذا العبد الحقير ليطلب المحال وهو لا يعلم، وهو مع طلبه هذا جاهلٌ مركّبٌ؛ إذ أنّه لا يعلم أنّه لا يستطيع أنْ يحيط علماً بالجبار العليّ العظيم، لذا جاءت الروايات لرفع هذا الجهل، ومنعت الإنسان من البحث في ذات الله وكنهه.

وإذا كان البحث في كنه ذات الله ممنوعاً، فيمكن - لمن أراد أن يعرف شيئاً عن جبّاريّة وعظمة الخالق القدير - أن ينظر إلى عظمة مخلوقاته، فإنّها تدلّه على عظمة وجبّاريّة خالقها، وبارئها ﷻ، وإليك إشارةٌ خاطفةٌ في أحقر خلق الله - تعالى - في أعين الناس، مستعينين ببيان سيّد الخطباء، أمير المؤمنين عليه السلام، حيث قال في خطبةٍ له:

«ألا تنظرون إلى صغير ما خلق كيف أحكم خلقه، وأتقن تركيبه، وفلق له السمع والبصر، وسوّى له العظم والبشر؟![(١)].

انظروا إلى النملة في صغر جثّتها، ولطافة هيئتها، لا تكاد تنال بلحظ البصر، ولا بمستدرك الفكر، كيف دبّت على أرضها، وصبت على رزقها، تنقل الحبّة إلى

---

(١) جمع بشرة، وهي ظاهر الجلد الإنساني. هذا الهامش - وما سيأتي - مأخوذة من المصدر.

جحرها، وتعدها في مستقرّها، تجمع في حرِّها لبردها، وفي ورودها لصدرها[١]، مكفولةً برزقها، مرزوقةً بوفقها، لا يغفلها المنّان، ولا يحرمها الديَّان، ولو في الصفا اليابس، والحجر الجامس[٢]؟! ولو فكَّرت في مجاري أكلها، في علوّها، وسفلها، وما في الجوف من شراسيف بطنها[٣]، وما في الرأس من عينها، وأذنها، لقضيت من خلقها عجباً، ولقيت من وصفها تعباً.

فتعالى الّذي أقامها على قوائمها، وبناها على دعائمها، لم يشركه في فطرتها فاطرٌ، ولم يعنه في خلقها قادرٌ.

ولو ضربت في مذاهب فكرك لتبلغ غاياته، ما دلّتك الدلالة إلاّ على أنَّ فاطر النملة هو فاطر النخلة؛ لدقيق تفصيل كلّ شيءٍ[٤]، وغامض اختلاف كلّ حيٍّ، وما الجليل، واللطيف، والثقيل، والخفيف، والقويّ، والضعيف في خلقه إلا سواء، وكذلك السماء، والهواء، والرياح، والماء...

وإن شئت قلت في الجرادة إذ خلق لها عينين حمراوين، وأسرج لها حدقتين

---

(١) الصدر- محركاً-: الرجوع بعد الورود. وقوله بوفقها بكسر الواو، أي: بما يوافقها من الرزق ويلائم طبعها.

(٢) الجامس: الجامد.

(٣) الشراسيف: مقاط الأضلاع، وهي أطرافها التي تشرف على البطن.هامش البحار، وأضاف الجوهري: [شرسف] الشراسيف: ويقال: الشرسوف: غضروف معلّق بكل ضلع، مثل غضروف الكتف. الصحاح- الجوهري ج ٤، ص ١٣٨١. " المؤلف"

(٤) أي: أن دقة التفصيل في النملة على صغرها، والنخلة على طولها، تدلك على أن الصانع واحد.

قمراوين[١]، وجعل لها السمع الخفيّ، وفتح لها الفم السويّ، وجعل لها الحسّ القويّ، ونابين بهما تقرض، ومنجلين بهما تقبض[٢]، يرهبها الزراع في زرعهم، ولا يستطيعون ذبّها[٣].

ولو أجلبوا بجمعهم، حتّى تردّ الحرث في نزواتها[٤]، وتقضي منه شهواتها، وخلقها كلّه لا يكون إصبعاً مستدقّةً، فتبارك الله الّذي يسجد له من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً، ويعنو له خدّاً ووجهاً، ويلقي إليه بالطاعة سلماً وضعفاً، ويعطي له القيّاد رهبةً وخوفاً»[٥].

من عجائب النملة والعنكبوت:

قال المفضّل - سائلاً مولانا الصادق عليه السلام فقلت: «.. فَصِفْ لي الذّرة، والنملة، والطير.

فقال عليه السلام: يا مفضّل، تأمّل وجه الذّرّة الحقيرة الصغيرة، هل تجد فيها نقصاً عمّا فيه صلاحها؟! فمن أين هذا التقدير والصواب في خلق الذّرة إلا من التدبير

---

(١) أي: مضيئتين، كأن كلا منهما ليلة قمراء أضاءها القمر.

(٢) المنجل- كمنبر- آلة من حديد معروفة يقضب بها الزرع. قالوا: أراد بهما هنا رجليها؛ لاعوجاجهما وخشونتهما.

(٣) دفعها.

(٤) وثباتها، نزا عليه: وثب.

(٥) نهج البلاغة- محمد عبده ج ٢، ص، ١١٥- ١١٨، الخطبة ١٨٥.

القائم في صغير الخلق وكبيره؟!

انظر إلى النمل واحتشاده في جمع القوت وإعداده، فإنّك ترى الجماعة منها إذا نقلت الحبَّ إلى زبيتها(١) بمنزلة جماعةٍ من الناس، ينقلون الطعام أو غيره، بل للنمل في ذلك من الجدّ والتشمير ما ليس للناس مثله، أما تراهم يتعاونون على النقل كما يتعاون الناس على العمل؟! ثمّ يعمدون إلى الحبِّ، فيقطّعونه قطعاً؛ لكيلا ينبت، فيفسد عليهم، فإنْ أصابه ندىً أخرجوه، فنشروه؛ حتّى يجفَّ، ثمّ لا يتّخذ النمل الزبية إلا في نشزٍ(٢) من الأرض؛ كي لا يفيض السيل فيغرقها، وكلّ هذا منه بلا عقلٍ ولا رويّةٍ، بل خلقةٌ خُلِقَ عليها؛ لمصلحةٍ من الله جلَّ وعزَّ.

انظر إلى هذا الّذي يُقال له الليث(٣)، وتسميه العامّة أسد الذباب، وما أعطى من الحيلة والرفق في معاشه، فإنّك تراه حين يحسّ بالذباب قد وقع قريباً منه تركه مليّاً حتّى كأنّه مواتٌ لا حراك به، فإذا رأى الذباب قد اطمأنّ وغفل عنه دبَّ دبيباً دقيقاً حتّى يكون منه بحيث تناله وثبّته، ثمّ يثب عليه، فيأخذه، فإذا أخذه اشتمل عليه بجسمه كلّه؛ مخافة أنْ ينجو منه، فلا يزال قابضاً عليه حتّى يحسَّ بأنّه قد ضَعف واسترخى، ثمّ يقبل عليه فيفترسه ويحيي بذلك منه.

فأمّا العنكبوت فإنّه ينسج ذلك النسج، فيتّخذه شركاً ومصيدةً للذباب، ثمّ

---

(١) الزبية: بضم فسكون: الرابية لا يعلوها ماء، جمعها زبى.

(٢) النشز- بفتحتين-: المكان المرتفع، جمعه نشاز، وأنشاز.

(٣) الليث: ضرب من العناكب، والجمع ليوث، ومليثة.

يكمن في جوفه، فإذا نشب فيه الذباب أحال[١] عليه، يلدغه ساعةً بعد ساعة، فيعيش بذلك منه، فذلك[٢] يحكي صيد الكلاب والفهود، وهذا[٣] يحكي صيد الإشراك والحبائل.

فانظر إلى هذه الدويبة الضعيفة، كيف جعل في طبعها ما لا يبلغه الإنسان إلا بالحيلة، واستعمال الآلات؟! فلا تزدري بالشيء إذا كانت العبرة فيه واضحةً، كالذرّة، والنملة، وما أشبه ذلك، فإنَّ المعنى النفيس قد يمثل بالشيء الحقير، فلا يضع منه ذلك، كما لا يضع من الدينار - وهو من ذهبٍ - أنْ يوزن بمثقالٍ من حديدٍ»[٤].

أقول: إنَّ الإنسان قد تعرّف على بعض غرائب وعجائب هذه المخلوقات، وذلك بعد أن صرف الكثير الكثير من الأموال وساعات التدقيق، في حين أنَّ الإمام بالبداهة والاستحضار التامّ يكشف الستار عن بحر أسرار هذه المخلوقات العظيمة، والّتي يستحقرها الإنسان، لعلّه يلتفت إلى حقارة ذاته، وضعفها، وجهلها، ويلتفت إلى عظمة جبّار السماوات والأرض، فيقول بلسان الحال أو المقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا

---

(١) أحال: أقبل، ووثب.

(٢) يعني به أسد الذباب.

(٣) يعني به العنكبوت.

(٤) التوحيد- المفضل بن عمر الجعفي، ص ٦٥- ٦٧.

وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[١].

العبد والجبّار:

يمكن بيان حظّ العبد من هذه الصفة من خلال جانبين مختلفين؛ العبوديّة وعدم التجبُّر، واستكمال الكمالات.

أ- العبوديّة وعدم التجبُّر:

إذا ادَّعى الإنسان منزلةً عاليةً من دون استحقاقٍ ليجبر نقصه، وعيوبه، ورذائله، سُمِّيَ بفعلته هذه: متجبِّراً، وجبَّاراً؛ لترفُّعه على الآخرين من دون استحقاق ذلك، وهذا من قبيل طالب العلم المبتدئ، الّذي يترفَّع على العوامّ والعلماء؛ لبعض ما تعلَّمه من العلوم والمعارف، فيرى نفسه أفضل منهم وهم دونه، في حين أنَّ العكس هو الصحيح.

هذا البيان الّذي قرَّبناه للمتجبِّر لا يختصّ بصنفٍ عن صنفٍ، أو جماعةٍ دون جماعةٍ؛ إذ أنَّ أكثر أصناف البشر فيهم مَنْ يتّصف بهذه الصفة الرذيلة للأسف الشديد، وإليك بعض النماذج:

١- **الفقير والسائل:** قد يتصوّر البعض أنَّ الفقير أبعد الناس عن هذه الصفة؛ وذلك لفقره، إلا أنَّ التكبُّر والتجبُّر من الأمراض النفسيّة الّتي تعرض على نفوس

---

(١) سورة آل عمران: الآيتان ١٩١،١٩٠.

البشر، فإنْ رأت الأرضيّة الخصبة للإنبات استقرّت ونبتت، والأرضيّة المناسبة والخصبة هي عبارةٌ عن وجود نقصٍ في الذات الإنسانيّة في جانبٍ من جوانب الحياة المختلفة، فيظهر نقصه من خلال الترفّع والتجبّر على خلق الله – تعالى – في جانبٍ يحسبه كمالاً له، فقد رُوي عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: «**ما من رجلٍ تكبَّر أو تجبَّر إلا لذلّةٍ يجدها في نفسه**»(١).

فهذا الفقير مع فقره قد يتجبَّر، ويتبختر على غيره، حينما يرى قوّته الجسديّة وفتوّته مثلاً، أو غير ذلك من الكمالات الّتي قد يتّصف بها، ويؤيّد ذلك ما ورد عن بشير النبَّال قال: كنّا مع أبي جعفر عليه السلام في المسجد، إذ مرَّ علينا أسودٌ وهو ينزع في مشيه.

فقال أبو جعفر عليه السلام: «**إنّه لجبَّارٌ.**

قلت: إنّه سائلٌ.

قال: إنّه جبَّارٌ»(٢).

وفي خبرٍ آخر: عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إنَّ الرجل ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم، وإنّه ليُكتب جبَّاراً ولا يملك إلاّ أهل بيته**»(٣).

فتجد هذا الفقير يظهر تجبّره وقوّته على أهل بيته، تفريغاً لتلك النواقص

---

(١) وسائل الشيعة– الشيخ الحر العاملي ج ١٥، ص ٣٨٠،ح٣.

(٢) وسائل الشيعة– الشيخ الحر العاملي ج ١٥، ص ٣٨٢،ح١٢.

(٣) ميزان الحكمة، الشيخ محمد الري شهري ج٢، ص ١٣، ح٢٢٦٠.

والعيوب الّتي أحاطته من كلّ جانبٍ وصوبٍ.

٢- **تجبُّر أصحاب الوجاهة:** من العلماء، والأغنياء، والأمراء، والملوك، وغيرهم ممّن يرون لأنفسهم مكانةً ومنزلةً في المجتمع، فهؤلاء أيضاً وإنْ كانت لهم بعض الكمالات الّتي يتميّزون بها عن غيرهم، إلا أنّهم قد يعيشون الحرمان، والنقص، والحقارة في ذواتهم في جوانب مختلفةٍ، فالملك المتجبِّر - مثلاً - قد يرى كمالات بعض العلماء، واحترام الناس لهم، وإجلالهم للعلماء، وعدم توجُّه الناس له، مع ما يراه لنفسه من امتلاكه الثروة، وغير ذلك من الكمالات، فيتجبَّر، ويطغى؛ تفريغاً لهذه العقدة في نفسه، أو تحصيلاً للكمالات المفقودة عنده بالقوّة.

وخير مثالٍ لذلك ما نجده في سيرة فرعون وموسى، من انقياد الناس إلى موسى عليه السلام، وعدم انقيادهم إلى فرعون، ورؤية هذا الأخير ما لموسى عليه السلام من كمالاتٍ مفقودةٍ عنده، وهو عاجزٌ عن تحصيلها، فيسعى بالتجبُّر والقوَّة لجبر - أو تحصيل - هذه النقيصة، أو على الأقل التنفيس عمّا في نفسه من هذه العقدة.

وقضيّة هشام بن عبد الملك مع الإمام زين العابدين عليه السلام حول بيت الله الحرام غير خافيةٍ عليك.

وقد يكون منشأ التجبُّر من خلال ما يراه كمالاً لنفسه، إلا أنّه يتجبَّر ويطغى حينما يأخذه الحسد، ويرى من الملوك مَنْ هو أرفع منه شأناً ومكانةً في الأوساط الدوليّة، أو لدى شعبه مثلاً، وهو غير قادرٍ على تحصيل تلك الكمالات، فيتجبَّر، ويطغى؛ تحصيلاً لذلك بالقوة، أو تنفيساً للضغوط النفسيّة الّتي يعيشها هذا المسكين.

وهذا الكلام جارٍ في منشأ التجبُّر لدى العلماء، والأغنياء، وجميع طبقات المجتمع

الإنسانيّ، من دون فرقٍ، ففي الخبر عن معاوية بن وهب قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**اطلبوا العلم، وتزيَّنوا معه بالحلم والوقار، وتواضعوا لِمَنْ تعلّمونه العلم، وتواضعوا لِمَنْ طلبتم منه العلم، ولا تكونوا علماء جبَّارين، فيذهب باطلكم بحقّكم**»(١).

وفي الشجر المثمر مثالٌ وعبرةٌ، فإنَّها كلّما ازدادت ثمراً وعطاءً، ازدادت تواضعاً ونزولاً بأغصانها إلى مريديها؛ لينالوا من خيراتها وثمارها، وهكذا ينبغي أنْ يكون العالم، والأمير، والغنيّ، وكلّ مَنْ يملك صفة كمالٍ، وعلى العكس تماماً من ذلك الشجرة العقيمة غير المثمرة، أو قليلة الثمر، فإنَّها متكبِّرةٌ جبَّارةٌ، ترفع أغصانها إلى عنان السماء؛ خشية أنْ ينال منها أحدٌ شيئاً، وشتَّان بينهما.

ولعلّه بسبب ترفّع وتجبّر المتجبّرين والمتكبّرين واستحقارهم للناس، سوف يحشرون على هيئة ذرٍّ يطؤهم الناس بأقدامهم، كما وطؤوا الناس بأفعالهم، وسلوكهم، فقد رُوي عن أبي عبد الله عليه السلام قوله:«**إنَّ المتكبِّرين يُجعلون في صور الذرّ، يطؤهم الناس حتّى يفرغ الله من الحساب**»(٢).

٢- **التجبُّر والتكبُّر على الطاعة:** عجيبٌ هذا الإنسان الّذي أوّله نطفةٌ، وآخره جيفةٌ، كيف يتكبّر بينهما على خالقه وبارئه؟! فيترك الامتثال والطاعة تجبُّراً، وترفُّعاً عن الانقياد لما فيه صلاح أمر دنياه وآخرته، وأيّ تجبُّرٍ أعظم وأدهى

---

(١) الكافي- الشيخ الكليني ج ١، ص ٣٦،ح١.

(٢) الكافي- الشيخ الكليني ج ٢، ص ٣١١، ح١١.

من الترفُّع والتجبُّر على الله وأحكامه؟! ولذا تجد أنَّ حساب هؤلاء عتيدٌ وشديدٌ يوم القيامة، ولذا جاء التحذير من التجبُّر والتكبُّر على طاعة الله تعالى، كما في الخبر عن أبي عبد الله عليه السلام - في وصيّته لأصحابه - أنّه قال: «**وإيّاكم والتجبُّر على الله، واعلموا أنَّ عبداً لم يُبتلَ بالتجبُّر على الله إلا تجبَّر على دين الله، فاستقيموا لله، ولا ترتدّوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين، أجارنا الله وإيّاكم من التجبُّر على الله**»(١).

ويأتي هذا التحذير نتيجةً للعقاب الأليم، الّذي يناله المتجبِّر والمتكبِّر على طاعة الله تعالى، كما في الخبر عن ميْسر، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**إنَّ في جهنم لجبلاً يُقال له: الصعدا، إنَّ في الصعدا لوادياً يُقال له: سقر، وإنَّ في سقر لجُبّاً يُقال له: هبهب، كلّما كشف غطاء ذلك الجُبّ ضجَّ أهل النار من حرِّه، ذلك منازل الجبّارين**»(٢).

وربما لأنّهم كانوا أبعد الخلق من الطاعة والانقياد لله تعالى، كانوا هنالك أبعد الناس من الرحمة الإلهيّة، ولم ينظر الله - تعالى - لهم بعين الرأفة والرحمة، ففي الخبر عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: «**الجبَّارون أبعد الناس من الله عزّ وجلّ يوم القيامة**»(٣).

ب- استكمال الكمالات:

عن مولانا ومقتدانا أمير المؤمنين عليه السلام: «**العاقل يطلب الكمال، والجاهل يطلب**

---

(١) وسائل الشيعة - الشيخ الحر العاملي ج ١٥، ص٣٨٠،ح ٥.

(٢) وسائل الشيعة - الشيخ الحر العاملي ج ١٥، ص٣٨١،ح٨.

(٣) وسائل الشيعة - الشيخ الحر العاملي ج ١٥، ص ٣٨١،ح٧.

المال»[(١)]، وعنه عليه السلام: «**كمال الإنسان العقل**»[(٢)].

إذا رأيت إنساناً ضالّته الكمال، يطلبه أينما وجده، فاعرف أنّه عبدٌ قد أتمَّ الله عقله، واستبصر طريق الخير والعز؛ لأنّه يبحث عن كلّ ما هو كمالٌ؛ ليتزيَّن به؛ ويتحلّى به، فأُفُق تفكيره واسعٌ شاسعٌ، وهمَّته عاليةٌ؛ إذ جعل همَّته في استكمال الكمالات كلّها، وأُفُق كمالاته شاسعٌ يبتدئ بحسن المظهر والهيئة، ومروراً بحسن فعاله وتصرّفاته، وانتهاءً بأكرم ما يبقى ولا يفنى، وذلك بالتفقّه في الدين، والعمل بتعاليم الدين، حيث لا كمال فوق هذا الكمال، ولا نعيم يبقى مع هذا النعيم والكمال؛ إذ أنَّ المظهر يفنى مع فناء العمر أو شيخوخته، وهكذا فإنَّ حظّ المال والمُلك يزولان بحادثٍ، أو وارثٍ، فلا خير فيهما؛ لفنائهما، وزوالهما.

وأمّا الكمال - كلّ الكمال - بما يجمع خير الدنيا والآخرة وعزّهما، وذلك من خلال العمل بتعاليم الدين الحنيف، والتفقّه فيه، فيكون موضع احترامٍ وإجلالٍ لدى العامّ والخاصّ، الأشرف من ذلك كلّه هو مباهاة الله - تعالى - به بين ملائكته وسكّان سماواته؛ رضاً به وبفعاله؛ ولتضع الملائكة أجنحتها تحت قدميه؛ وتستغفر له الموجودات والحيتان في البحر؛ لأنّه خليفة الله في الأرض، مصلحٌ، خدومٌ، مفيدٌ، متواضعٌ، رؤوفٌ، يترشّح منه الخير والكمال، يُقتدى به في الخيرات والمبرّات، متبوعٌ غير تابعٍ، هادٍ لطريق الرشاد، باذلٌ، مؤثرٌ للآخرين على نفسه، ترفّع عن الرذائل والنواقص، سَمَى بمكارم أخلاقه، يغبطه الكُمّل من بني جنسه، وبذلك يكون قد تخلّق

---

(١) منتخب ميزان الحكمة - الشيخ محمد الري الشهري، ص ٤٥١،ح٥٦٢٣.

(٢) منتخب ميزان الحكمة - الشيخ محمد الري الشهري، ص ٤٥١،ح٥٦٢٧.

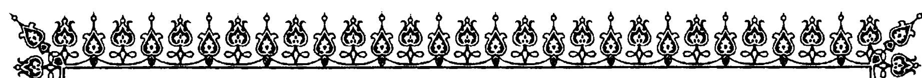
بأخلاق ربّه؛ لصيرورته من ذوي المقامات الرفيعة السامية، الّتي يصعب الوصول إليها، فنال بذلك حظّه من هذا الاسم الشريف، فصار جبّاراً من دون تجبُّرٍ، أو تكبُّرٍ.

ذكر الجبّار:

الكفعميّ عن البرسيّ: «مَن قرأه - الجبار - في كلّ يومٍ إحدى وعشرين مرَّة، أمِنَ من الظلمة»[1].

---

(١) المصباح - الكفعمي، ص ٤٧٧.



الموضوع التاسع والعشرون:

المُتَكَبِّر

١- تجلّيات المتكبِّر.

٢- العبد والمتكبِّر.

أ- ترك التكبُّر.

ب- التكبُّر والترفع عن حطام الدنيا.

٣- ذِكرُ المتكبِّر.

المُتَكَبِّر

قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1].

قال الغزاليّ:

«المتكبّر: هو الّذي يرى الكلّ حقيراً بالإضافة إلى ذاته، ولا يرى العظمة والكبرياء إلا لنفسه، فينظر إلى غيره نظر الملوك إلى العبيد، فإنْ كانت هذه الرؤية صادقةً كان التكبُّر حقّاً، وكان صاحبها متكبِّراً حقّاً.

ولا يتصوّر ذلك على الإطلاق إلا لله تعالى... وكلّ مَنْ رأى العظمة والكبرياء لنفسه على الخصوص دون غيره، كانت رؤيته كاذبةً، ونظره باطلاً، إلا الله تعالى»[2].

---

(1) سورة الحشر: الآية ٢٣.

(2) المقصد الأسنى- الغزالي، ص ١٢٣.

تجلّيات المتكبِّر:

من جملة مهالك خلق الله – تعالى – أنَّهم يرون لأنفسهم وجوداً وكياناً مستقلاً، ويرونها ذات وزنٍ وقيمةٍ أمام الله تعالى، وإنْ لم يقرّوا بذلك لفظاً، إلا أنَّ أفعالهم ومواقفهم في الحياة خير شاهدٍ.

فترى الواحد منهم يتكبّر، ويستعلي في هذه الدنيا الدنيّة، فيستصغِر الآخرين، ويترفَّع عليهم، ويحتقرهم، وغير ذلك، فبدل أنْ يتواضع جزاءً لأنعم الله – تعالى – عليه، وتفضيله على كثيرٍ من خلقه، تجده يستعلي في الأرض، ويستكبر، فيلبس رداء الكبرياء والعظمة، مع أنَّه حقيرٌ، فقيرٌ، يكفي مجرّد لفتةٍ وإرادةٍ يسيرةٍ من جبّار السماوات والأرض إليه، لينقلب قرداً، أو خنزيراً، أو يكون نسياً منسيّاً، ولنا في آيات القرآن عبرةٌ لمن اعتبر، والتاريخ الحديث قبل القديم خير شاهدٍ وبرهانٍ، أين شاه إيران المتكبِّر المتغطرس؟! وأين صدّام وأزلامه؟! وأين الطغاة والمتكبِّرون من هذه الآية: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾[1]؟!

ولذا وردت الروايات الكثيرة منبّهةً ومحذِّرةً من التلبُّس برداء كبرياء الله عَزَّوَجَلَّ، والرضوخ إلى الوساوس الشيطانيّة، فيستعلي الإنسان في الأرض، كما استعلى الشيطان واستكبر، فخاب، وخسر كلّ تلك الطاعات والقربات الّتي جاء بها في آلاف السنين في ساعة تكبّرٍ واحدةٍ، لذا تجد أن الشيطان يسعى أنْ يُخسّرك كما خسر، وفي إيقاعك في الجحيم كما وقع، فالحذر الحذر.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٧٨.

وإليك إشارةٌ خاطفةٌ لما ورد في النهي عن التكبُّر؛ لتعرف مدى خطورته وعاقبته:

١- عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**يقول الله: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمَنْ نازعني واحداً منهما ألقيته في ناري**».

وقال صلى الله عليه وآله: «**يُحشر المتكبِّرون يوم القيامة أمثال الذرّ في صورة الرجال، يغشاهم الذلّ من كلّ مكانٍ**»(١).

٢- عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**يا أبا ذرّ، مَنْ مات وفي قلبه مثقال ذرَّةٍ من كبرٍ، لم يجد رائحة الجنّة، إلا أنْ يتوب قبل ذلك.**

فقال رجلٌ: يا رسول الله، إنّي ليعجبني الجمال، حتّى وددتُ أنَّ علاقة سوطي وقبال نعلي حسنٌ، فهل يُرهب على ذلك؟

قال: كيف تجد قلبك؟

قال: أجده عارفاً للحقّ، مطمئنّاً إليه.

قال: ليس ذلك بالكِبر، ولكنّ الكِبْر أنْ تترك الحقّ، وتتجاوزه إلى غيره، وتنظر إلى الناس ولا ترى أنَّ أحداً عِرضه كعِرضك، ولا دمه كدمك»(٢).

٣- عن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «**لو رخَّص الله – سبحانه – في الكِبْر لأحدٍ**

---

(١) مستدرك الوسائل- الميرزا النوري ج ١٢، ص ٣١،ح١٧.

(٢) مستدرك الوسائل- الميرزا النوري ج ١٢، ص ٣٤،ح١.

من الخلق لرخَّص فيه لأنبيائه، لكنَّه كره إليهم التكبُّر، ورضي لهم التواضع»(١).

العبد والمتكبّر:

يمكن بيان حظّ العبد من هذا الاسم الشريف من خلال جانبين أساسيّين؛ ترك التكبُّر، والتكبُّر والترفُّع عن حطام الدنيا.

أ- ترك التكبُّر:

لأنَّ التكبُّر - كما تقدّم - من اختصاصات المولى جلّ وعلا، ولم يرخِّص في الاتّصاف بهذه الصفة والاسم الشريف لأحدٍ من خلقه، حتّى لأحبّ موجوداته ومخلوقاته، وهم الأنبياء عليهم السلام، بل أمرهم بالتواضع، ولين العريكة، فيكون حظّ العبد من هذا الاسم هو أنْ يتصف بما ارتضاه – سبحانه – لأنبيائه، وأكرم خلقه، وهو التواضع للخالق والمخلوق.

والمراد من التواضع للخالق: أنْ ينظر لنفسه بعين الحقيقة والواقع، وهو العجز، والافتقار، والهوان، وواقعه - كما رُوي عن أمير المؤمنين عليه السلام -: **«عجبتُ لابن آدم، أوّله نطفةٌ، وآخره جيفةٌ، وهو قائمٌ بينهما وعاء للغائط، ثمّ يتكبّر»**(٢)، فإذا عاش هذه الحقيقة، ولقَّن بها عقله وقلبه، استشعر العبوديّة لله، ومقتضى العبوديّة له – سبحانه - الانقياد التامّ لله تعالى في كلّ صغيرةٍ وكبيرةٍ، بل عليه أنْ يفتخر، ويبتهج، ويحمد الله أنْ جعله في عداد المكلَّفين، وممّن كان مورداً لعناية الله – تعالى –

---

(١) مستدرك الوسائل – الميرزا النوري ج ١٢، ص ٢٩، ح١١.

(٢) وسائل الشيعة – الشيخ الحر العاملي ج ١، ص ٣٣٤، ح ٤.

وخطابه، ولم يجعله كسائر الحيوانات والعجماوات، بعيداً - تمام البعد - من شرف التكليف، وعناية الخطاب الإلهيّ.

لذا ورد عن أبي حمزة الثمالي، عن عليّ بن الحسين عليه السلام أنّه قال: «... **ومَنْ قال: (أستغفر الله، وأتوب إليه) فليس بمستكبرٍ، ولا جبّارٍ، إنَّ المستكبر الّذي يصرّ على الذنب الّذي قد غلبه هواه فيه، وآثر دنياه على آخرته، ومَنْ قال: (الحمد لله) فقد أدّى شكر كلّ نعمةٍ لله عزّ وجلّ عليه**»[1].

وأمّا المراد من التواضع للمخلوقين: فأقول: لا يخلو الإنسان من أمرين:

إمّا أنه لا يريد الارتقاء إلى مصافِّ الأنبياء والأولياء، والتخلُّق بأخلاقهم، أو يريد ذلك، أما الأوّل فلا كلام معه؛ حيث يريد أنْ يكون كالبهائم، همّه في الأكل، والشرب، والنكاح، ونحن تاركوه؛ لكي يتخلّق بأخلاق البهائم؛ ويزداد تشبّهاً وتخلّقاً بها.

أمّا أولئك الأبطال الّذين سَعَوْا - ويسعون - للتخلُّق قدر الإمكان بأخلاق الأنبياء والأصفياء، فنقول لهم: لتعلموا أنَّ الحكمة - الّتي هي ضالّة المؤمن، والخير الكثير الّذي لا يستغني عنه كلّ سالكٍ ومريدٍ للكمال - لا تنبت في قلب المتكبِّر والمتجبِّر، فالحكمة كالزرع تماماً، فإنّها تنبت في المواضع الدانية، كالسهول والوديان، ولا تنبت في الأماكن الرفيعة، كالجبال وقممها، وإلى هذه الحقيقة المهمّة تجد أشارةً لطيفةً في الرواية المرويّة عن الإمام الكاظم عليه السلام، إذ قال فيها: «**إنَّ الزرع ينبت في**

---

(١) الخصال - الشيخ الصدوق، ص ٢٩٩، ح٧٢.

السهل، ولا ينبت في الصفا، فكذلك الحكمة، تعمُر في قلب المتواضع، ولا تعمُر في قلب المتكبِّر الجبَّار؛ لأنَّ الله جعل التواضع آلة العقل»[١].

كما أنَّها - أي الحكمة - لا تحلّ في المواطن القذرة، والطباع الفاسدة، فلا ترجو الحكمة مع وجود المانع - وهو التكبر -، ويدلّ على ذلك ما ورد عن الإمام الهادي عليه السلام أنّه قال: «**الحكمة لا تنجع في الطباع الفاسدة**»[٢].

وكما أنَّ مريد الكمال لا يستغني عن العلم والتعلُّم، فنقول له: إنَّ رأس وروح العلم إنَّما هو في التواضع، وحيث لا خير في جسدٍ لا روح فيه، أو لا رأس له، كذلك لا خير في علمٍ لا رأس له، ولا روح، وقد ورد عن مولانا الإمام عليّ عليه السلام: «**رأس العلم التواضع**»[٣].

والمراد من التواضع - كما في رواية الإمام الرضا عليه السلام ، لمّا سُئل عن حدّ التواضع قال -: «**أنْ تعطي الناس مِن نفسك ما تحبّ أنْ يعطوك مثله**»[٤]، وعنه عليه السلام: «**التواضع أنْ تعطي الناس ما تحبّ أنْ تُعطاه**»[٥]، وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**طوبى لمن تواضع لله - تعالى - في غير منقصةٍ، وأذلّ نفسه في غير مسكنةٍ**»[٦].

---

(١) ميزان الحكمة- الشيخ محمد الري الشهري ج٢، ص ٤٩٨، ح٤٢٥٤.

(٢) ميزان الحكمة- الشيخ محمد الري الشهري ج ٢، ص٤٩٩، ح٤٢٥٦. "من أبواب الحكمة".

(٣) ميزان الحكمة- الشيخ محمد الري الشهري ٦، ص٤٩٩، ح ١٣٦٥٥."من أبواب العلم".

(٤) ميزان الحكمة- الشيخ محمد الري الشهري ج ١٠، ص٥٠٣، ح٢١٥٣٤. "حد التواضع".

(٥) ميزان الحكمة- الشيخ محمد الري الشهري ج ١٠، ص٥٠٣، ح٢١٥٣٥. "حد التواضع".

(٦) ميزان الحكمة- الشيخ محمد الري الشهري ج ١٠، ص٥٠٥، ح ٢١٥٤٥.

ب- التكبُّر والترفّع عن حطام الدنيا:

ونِعْمَ ما قيل في هذا المقام قولُ الغزاليّ:

«والمتكبِّر من العباد هو الزاهد العارف، ومعنى زهد العارف أنْ يتنزَّه عمّا يشغل سرَّه من الخلق، ويتكبَّر على كلّ شيءٍ سوى الحقّ تعالى، فيكون مستحقراً للدنيا والآخرة جميعاً، ومترفّعاً عن أنْ يشغله كلاهما عن الحقّ تعالى.

وزهد غير العارف معاملةٌ ومعاوضةٌ، فإنَّما يشتري بمتاع الدنيا الآخرة، فيترك الشيء عاجلاً طمعاً في أضعافه آجلاً.

وإنَّما هو سلمٌ ومبايعةٌ، ومن استعبدته شهوة المطعم والمنكح فهو حقيرٌ إنْ كان ذلك دائماً، وإنَّما المتكبِّر مَنْ يستحقر كلّ شهوةٍ وحظٍّ يتصوّر أنْ يساهمه البهائم فيه»(١).

ذِكرُ المتكبّر:

جاء في مصباح الكفعميّ -نقلاً عن الشيخ العارف رجب بن محمّد البرسيّ-: «مَن ذكر المتكبّر عند جبَّارٍ ذلَّ»(٢).

---

(١) المقصد الأسنى- الغزالي: ١٢٣- ١٢٤.

(٢) المصباح- الكفعمي، ص ٤٧٧.

الموضوع الثلاثون:

الطَّاهِر

١- تجلّيات الطاهر.

٢- أإله مع الله؟!

٣- الكتاب العزيز ونفي الجسميّة.

٤- العبد والطاهر.

الطَّاهِر

هذا الاسم الشريف لم يرد ذكره في القرآن الكريم، ككثيرٍ من أسماء الله الحسنى، الّتي أشرنا إلى بعضها فيما سبق، إلا أنّه قد ورد في جملةٍ من خطابات المعصومين عليهم السلام وأدعيتهم، وهو كافٍ في إثبات نسبة هذا الاسم لله تعالى، ومن جملة ما يمكن الاستشهاد به هو وروده في الحديث النبويّ المشهور المتقدِّم مراراً، حيث عدَّه صلى الله عليه وآله من جملة الأسماء الّتي مَن أحصاها دخل الجنّة[1]، وقد ورد في مجموعةٍ من الأدعية كـ (دعاء المجير)[2].

قال الشيخ الصدوق رحمه الله:

«**الطاهر**: معناه أنّه متنزّهٌ عن الأشباه، والأنداد، والأضداد، والأمثال، والحدود، والزوال، والانتقال، ومعاني الخلق من الطول، والعرض، والأقطار، والثقل، والخفّة،

---

(١) عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن لله تبارك وتعالى تسعةً وتسعين اسماً، مائةً إلا واحداً، مَن أحصاها دخل الجنة، وهي: الله، الإله، الواحد، الأحد، الصمد، الأول،..الطاهر...» التوحيد- الشيخ الصدوق، ص ١٩٤، ح٨.

(٢) ورد في دعاء المجير: «سبحانك يا قاهر، تعاليت يا طاهر، أجرنا من النار يا مجير...». مفاتيح الجنان.

والرقّة، والغلظة، والدخول، والخروج، والملازقة، والمباينة، والرائحة، والطعم، واللون، والجسمة، والخشونة، واللين، والحرارة، والبرودة، والحركة، والسكون، والاجتماع، والافتراق، والتمكّن في مكانٍ دون مكانٍ؛ لأنَّ جميع ذلك محدَثٌ مخلوقٌ، وعاجزٌ ضعيفٌ من جميع الجهات، دليلٌ على مُحْدِث أحدثه، وصانعٍ صنعه، قادرٍ، قويٍّ، طاهرٍ من معانيها، لا يشبه شيئاً منها؛ لأنّها دلَّت من جميع جهاتها على صانعٍ صنعها، ومُحْدِثٍ أحدثها، وأوجبت على جميع ما غاب عنها من أشباهها وأمثالها أنْ يكون دالّةً على صانعٍ صنعها، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً»[1].

تجلّيات الطاهر:

هناك مجموعةٌ كبيرةٌ من الآيات الواردة في القرآن الكريم أرشدت - أو استدلّت - على توحيد الله تعالى بما يرسِّخ عقيدة التوحيد، وينفي الشريك والندِّ، وكلّ ما من شأنه إثبات نقصٍ إلى الباري جلّ وعلا، وما ذكره الشيخ الصدوق رحمه الله إنّما هو إشارةٌ موجزةٌ إلى أهمّ ما يمكن تصوُّره من نقائص، وإلا فإنَّ الباري جلّ وعلا فهو منزَّهٌ من كلّ ما يتصوّر أنّه عيبٌ، أو نقصٌ، أو قبيحٌ، وهذا معنىً آخر أنّه تعالى طاهرٌ منزَّهٌ عن كلّ عيبٍ ونقصٍ، نشير إلى جانبٍ واحدٍ، مراعين الاختصار الشديد، تاركين التفصيل إلى أبحاث علم الكلام[2].

---

(١) التوحيد- الشيخ الصدوق، ص ٢٠٨.

(٢) للمزيد من المطالعة يمكنك مطالعة كتاب الإلهيّات،لآية الله الشيخ جعفر السبحاني، الباب الرابع، الصفات السلبية: ٣٥٠- ٤٨٧.

أإلهٌ مع الله؟!

قال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾[1].

قال صاحب تفسير الأمثل في تفسير هذه الآية: «فأنتم تستطيعون أنْ تنثروا البذور، وتسقوا الأرض، ولكنّ الّذي جعل الحياة في قلب البذرة، وأمَرَ الشمس أنْ تشرق على الأرض، والماء ينزل من السماء حتّى تنبت البذرة فتكون شجراً، هو الله فحسب.

فهذه الحقائق لا يمكن إنكارها، ولا أنْ تنسب لغير الله... فهو الّذي خلق السماوات والأرض، وهو الّذي أنزل الغيث من السماء، وهو مبدأ البهجة، والحسن، والجمال في عالم الحياة.

حتّى الدقّة في لون الزهرة الجميلة، وأوراقها اللطيفة المنظّمة الّتي تشكّل حلقةً رائعةً، كلّ ذلك كافٍ أنْ يجعل الإنسان عارفاً بعظمة الخالق، وقدرته، وحكمته، فهذه الأمور تهزُّ قلب الإنسان، وتدعوه إلى الله.

وبتعبيرٍ آخر: فإنَّ التوحيد في الخلق "توحيد الخالق"، والتوحيد في الربوبية "توحيدٌ في مدبّر هذا العالم"، هو أساسٌ لتوحيد المعبود.

---

(١) سورة النمل: الآية ٦٠.

ولذلك فالقرآن يقول في نهاية الآية ﴿... أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾»[١].

الكتاب العزيز ونفي الجسميّة:

يقول الشيخ السبحانيّ في كتابه القيِّم الإلهيّات: «إنَّ التدبُّر في الذكر الحكيم يوقفنا على أنَّه – سبحانه – منزَّهٌ عن كلّ نقصٍ وشيْنٍ، وأنَّه ليس بجسمٍ، ولا جسمانيٍّ، وهذا المعنى وإنْ لم يكن مصرَّحاً به في الكتاب، ولكنّ التدبُّر في آياته – والّذي أمرنا به ذلك الكتاب في قوله سبحانه: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[٢]– يوصلنا إلى ذلك، ولأجل إيقاف القارئ على موقف الكتاب في ذلك نشير إلى بعض الآيات:

١– إنَّ الذكر الحكيم يصف الواجب تعالى بقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[٣]، والآية صريحةٌ في سعة وجوده سبحانه، وأنَّه معنا في كلّ مكانٍ نكون فيه.

وما هذا شأنه لا يكون جسماً، ولا حالاً في محلٍّ، أو موجوداً في جهة؛ إذ لا شكّ أنَّ الجسمَيْن لا يجتمعان في مكانٍ واحدٍ، وجهةٍ واحدة، فالحكم بأنَّه – سبحانه – معنا في أيّ مكانٍ كنّا فيه لا يصحّ إلاّ إذا كان موجوداً غير مادّيٍّ، ولا جسمانيٍّ.

---

(١) تفسير الأمثل، آية الله العظمى الشيخ ناصر مكارم الشيرازي ج١٢: ١٠٠– ١٠١.

(٢) سورة ص: الآية ٢٩.

(٣) سورة الحديد: الآية ٤.

٢- يقول سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[١].

والآية صريحةٌ في سعة وجوده، وأنَّه موجودٌ في كلّ مكانٍ، ومع كلّ إنسانٍ، لكنْ لا بمعنى الحلول، بل إحاطةٌ قيّوميّةٌ، قيام المعلول بالعلّة، والمعنى الحرفيّ بالمعنى الاسميّ، ومع ذلك فلا يصل الإنسان إلى كُنْه هذه الإحاطة، وهذه القيّموميّة، فالآية تفيد المعيَّة العِلْميّة، والمعيّة الوجوديّة، فكما فُرِضَ قومٌ يتناجون، فالله - سبحانه - هناك موجودٌ، سميعٌ، عليمٌ.

وبعبارةٍ أخرى: إنَّه - سبحانه - وصف نفسه في الآية بالعلم بما في السماوات والأرض، ثمّ أتى بقوله: ﴿...مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ...﴾ كالدليل على تلك الإحاطة العلميّة، فبما أنَّه يسع وجوده كلّ مكانٍ وجهةٍ، فهو عالمٌ بكلّ ما يحتويه المكان والجهة، ومثل هذا لا يمكن أنْ يكون جسماً؛ لأنَّ كلّ جسمٍ إذا حواه مكانٌ خلا منه مكانٌ آخر»[٢].

وهكذا سائر الصفات السلبيّة، فإنَّ الله ﷻ منزَّهٌ عنها، والدخول في هذه الأبحاث أكثر ممّا عرضناه ينافي غرض الكتاب.

---

(١) سورة المجادلة: الآية ٧.

(٢) الإلهيات، الشيخ جعفر السبحاني، ص ٤٥٦- ٤٥٨. وهناك المزيد من الأبحاث فراجع.

العبد والطاهِر:

قال تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾(١).

أيّ نعمةٍ وأيّ شرفٍ هذا أنَّ الباري جلّ وعلا يمتدح الساعين لنيل مقامات الطهارة والنزاهة، ويصرِّح بحبه – تعالى – لهم، ولا يخفى أنَّ الطهارة المناسبة لمقامنا هذا هي كلّ ما يتصوّر الترفُّع عنه من عيبٍ ونقصٍ، فكما أنَّ الباري مترفِّعٌ ومنزَّهٌ عن كلّ عيبٍ ونقصٍ، فالعبد المتخلّق يسعى بقابليّته في حدود الإمكان إلى الترفّع عن كلّ ما يشينه، أو يعيبه، أو ينقصه، سواء كان ذلك بما يتعلّق بأمور الدنيا أو الآخرة، المادّيّة منها والمعنويّة، فلا ينبغي الوقوف والاقتناع بدرجةٍ وهو يرى أنَّ هناك درجةً أعلى وأسمى منها، حيث إن الدرجة الّتي يكون فيها الإنسان هي نقصٌ بالنسبة إلى ما فوقها، وينبغي الترفّع عنها.

وهكذا كان سلمان المحمّديّ الّذي بلغ من الكمال واليقين ما لم يبلغه أحدٌ من الصحابة، حتّى جرت بعض الكرامات لرسول الله صلّى الله عليه وآله؛ ليبيِّن للأمّة شرف ومقام هذا العبد الفاني، والساعي للكمال بمنتهى الإرادة والجديّة، حيث لم يكتفِ بمرتبته مع إمكان الارتقاء إلى الأكمل والأفضل، لاحظ قصّة إسلامه وإيمانه، وما كان يمتلكه من همَّةٍ عاليةٍ – رضوان الله تعالى عليه –، وليكن لنا عبرةً.

يُنقل أنّه سُئل الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «**يا ابن رسول الله، ألا تخبرنا كيف**

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٠٨.

كان سبب إسلام سلمان الفارسيّ؟

قال: حدّثني أبي - صلوات الله عليه - أنّ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب - صلوات الله عليه -، وسلمان الفارسيّ، وأبا ذرٍّ، وجماعةً من قريش كانوا مجتمعين عند قبر النبيّ صلى الله عليه وآله، فقال أمير المؤمنين عليه السلام لسلمان: يا أبا عبد الله، ألا تخبرنا بمبدءِ أمرك؟

فقال سلمان: والله يا أمير المؤمنين لو أنّ غيرك سألني ما أخبرتُه، أنا كنتُ رجلاً من أهل شيراز، من أبناء الدهاقين، وكنتُ عزيزاً على والديّ، فبينا أنا سائرٌ مع أبي في عيدٍ لهم إذا أنا بصومعة، وإذا فيها رجلٌ ينادي: أشهد أنْ لا إله إلا الله، وأنّ عيسى روح الله، وأنّ محمّداً حبيب الله. فرسخ وصف محمّدٍ في لحمي ودمي، فلم يهنأني طعامٌ ولا شرابٌ.

فقالتْ لي أمّي: يا بنيّ، ما لك اليوم لم تسجد لمطلع الشمس؟!

قال: فكابرتها حتّى سكتتْ. فلمّا انصرفتُ إلى منزلي إذا أنا بكتابٍ معلّقٍ في السقف، فقلتُ لأمّي: ما هذا الكتاب؟

فقالت: يا روزبه، إنّ هذا الكتاب لمّا رجعنا من عيدنا رأيناه معلّقاً، فلا تقرب ذلك المكان، فإنّك إنْ قربته قتلك أبوك.

قال: فجاهدتها حتّى جنّ الليل، فنام أبي وأمّي، فقمتُ وأخذتُ الكتاب، وإذا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا عهدٌ من الله إلى آدم أنّه خالقٌ من صلبه نبيّاً يُقال له: محمّد، يأمر بمكارم الأخلاق، وينهى عن عبادة الأوثان، يا روزبه، ائت وصيّ عيسى، وآمنْ، واترك المجوسيّة».

قال: فصعقتُ صعقةً، وزادني شدَّةً، قال: فعلم بذلك أبي وأمّي، فأخذوني، وجعلوني في بئرٍ عميقةٍ.

وقالوا لي: إنْ رجعتَ وإلا قتلناك.

فقلتُ لهم: افعلوا بي ما شئتم، حبّ محمّدٍ لا يذهب من صدري.

قال سلمان: ما كنتُ أعرف العربيّة قبل قراءتي الكتاب، ولقد فهّمني الله عَزَّوَجَلَّ العربيّة من ذلك اليوم، قال: فبقيتُ في البئر، فجعلوا يُنزلون في البئر إليَّ أقراصاً صغاراً.

قال: فلمّا طال أمري رفعتُ يديّ إلى السماء، فقلتُ: يا ربّ، إنَّك حبّبتَ محمّداً ووصيَّه إليَّ، فبحقّ وسيلته عجّل فرجي، وأرحني ممّا أنا فيه، فأتاني آتٍ عليه ثيابٌ بيضٌ.

فقال: قم يا روزبه، فأخذ بيدي، وأتى بي إلى الصومعة، فأنشأتُ أقول: أشهد أنْ لا إله إلا الله، وأنَّ عيسى روح الله، وأنَّ محمّداً حبيب الله، فأشرف عليّ الديرانيّ، فقال: أنت روزبه؟ فقلتُ: نعم، فقال: اصعد. فأصعدني إليه، وخدمته حولين كاملين، فلمّا حَضَرَتْه الوفاة قال: إنّي ميتٌ.

فقلتُ له: فعلى مَنْ تخلّفني؟

فقال: لا أعرف أحداً يقول بمقالتي هذه إلا راهباً بأنطاكيّة، فإذا لقيته فأقرئه منّي السلام، وادفع إليه هذا اللوح، وناولَني لوحاً، فلمّا مات غسلّتُه، وكفنّتُه، ودفنتُه، وأخذتُ اللوح، وسرتُ به إلى أنطاكيّة، وأتيتُ الصومعة، وأنشأتُ أقول: أشهد أنْ لا إله إلا الله، وأنَّ عيسى روح الله، وأنَّ محمّداً حبيب الله، فأشرف عليَّ

الديرانيّ.

فقال: أنت روزبه؟ فقلتُ: نعم. فقال: اصعدْ. فصعدتُ إليه، فخدمتُه حولين كاملين، فلمّا حضرتْه الوفاة قال لي: إنّي ميتٌ.

فقلتُ: على مَنْ تخلّفني؟

فقال: لا أعرف أحداً يقول بمقالتي هذه إلا راهباً بالإسكندريّة، فإذا أتيتَه فأقرئه منّي السلام، وادفع إليه هذا اللوح، فلمّا توفّي غسّلتُه، وكفّنتُه، ودفنتُه، وأخذتُ اللوح، وأتيتُ الصومعة، وأنشأتُ أقول: أشهد أنْ لا إله إلا الله، وأنَّ عيسى روح الله، وأنَّ محمّداً حبيب الله، فأشرف عليّ الديرانيّ.

فقال: أنت روزبه؟

فقلتُ: نعم. فقال: اصعدْ. فصعدتُ إليه، وخدمتُه حولين كاملين، فلمّا حَضَرَتْه الوفاة قال لي: إنّي ميتٌ.

فقلتُ: على مَنْ تخلّفني؟

فقال: لا أعرف أحداً يقول بمقالتي هذه في الدنيا، وإنَّ محمّد بن عبد الله بن عبد الملك قد حانتْ ولادتُه، فإذا أتيتَه فأقرئه منّي السلام، وادفع إليه هذا اللوح، قال: فلمّا توفّي غسلّتُه، وكفنّتُه، ودفنتُه، وأخذتُ اللوح، وخرجتُ، فصحبتُ قوماً، فقلتُ لهم: يا قومِ اكفوني الطعام والشراب أكفكم الخدمة.

قالوا: نعم.

قال: فلمّا أرادوا أنْ يأكلوا شدّوا على شاةٍ، فقتلوها بالضرب، ثمّ جعلوا بعضها

كباباً، وبعضها شواء، فامتنعتُ من الأكل.

فقالوا: كلْ.

فقلت: إنّي غلامٌ ديراني، وإنَّ الديرانيّين لا يأكلون اللحم، فضربوني، وكادوا يقتلونني.

فقال بعضهم: امسكوا عنه حتّى يأتيكم شرابكم، فإنَّه لا يشرب، فلمّا أتوا بالشراب قالوا: اشرب.

فقلتُ: إنّي غلامٌ ديراني، وإنَّ الديرانيّين لا يشربون الخمر، فشدّوا عليَّ، وأرادوا قتلي.

فقلتُ لهم: يا قومِ، لا تضربوني، ولا تقتلوني، فإنّي أقرُّ لكم بالعبوديّة، فأقررتُ لواحدٍ منهم، فأخرجني، وباعني بثلاثمائة درهم من رجلٍ يهوديٍّ، قال: فسألني عن قصّتي، فأخبرتُه.

وقلتُ له: ليس لي ذنبٌ إلا أنّي أحببتُ محمّداً ووصيّه.

فقال اليهوديّ: وإنّي لأبغضك، وأبغض محمّداً، ثمّ أخرجني إلى خارج داره، وإذا رملٌ كثيرٌ على بابه.

فقال: والله ياروزبه، لئنْ أصبحتُ ولم تنقل هذا الرمل كلّه من هذا الموضع لأقتلنّك.

قال: فجعلتُ أحمل طول ليلتي، فلمّا أجهدني التعب رفعتُ يديّ إلى السماء، وقلتُ: يا ربّ، إنّك حبّبتَ محمّداً ووصيّه إليَّ، فبحقّ وسيلته عجّل فرجي، وأرحني

ممّا أنا فيه، فبعث الله عزّوجلّ ريحاً، فقلعتْ ذلك الرمل من مكانه إلى المكان الّذي قال اليهوديّ، فلمّا أصبح نظر إلى الرمل قد نُقل كلّه، فقال: يا روزبه، أنت ساحرٌ، وأنا لا أعلم، فلأخرجنّك من هذه القرية؛ لئلاّ تهلكها.

قال: فأخرجني، وباعني من امرأةٍ سلميّةٍ، فأحبّتني حبّاً شديداً، وكان لها حائطٌ.

فقالتْ: هذا الحائط[1] لك، كلْ منه، وما شئت، وهب، وتصدّق.

قال: فبقيت في ذلك الحائط ما شاء الله، فبينا أنا ذات يومٍ في الحائط إذا أنا بسبعة رهطٍ، قد أقبلوا تظلّهم غمامةٌ، فقلتُ في نفسي: والله ما هؤلاء كلّهم أنبياء، ولكنّ فيهم نبيّاً، قال: فأقبلوا، حتّى دخلوا الحائط والغمامة تسير معهم، فلمّا دخلوا إذا فيهم رسول الله صلّى الله عليه وآله، وأمير المؤمنين عليه السلام، وأبو ذرٍّ، والمقداد، وعقيل بن أبي طالب، وحمزة بن عبد المطّلب، وزيد بن حارثة، فدخلوا الحائط، فجعلوا يتناولون من حشف النخل، ورسول الله صلّى الله عليه وآله يقول لهم: كلوا الحشف، ولا تفسدوا على القوم شيئاً، فدخلتُ على مولاتي، فقلتُ لها: يا مولاتي، هبي لي طبقاً من رطبٍ.

فقالتْ: لك ستّة أطباقٍ.

قال: فجئتُ، فحملتُ طبقاً من رطبٍ.

فقلتُ في نفسي: إن كان فيهم نبيٌّ فإنّه لا يأكل الصدقة، ويأكل الهديّة، فوضعتُه بين يديه.

(١) سورة التوبة: الآية ١٠٨.

فقلتُ: هذه صدقةٌ.

فقال رسول الله ﷺ: كلوا، وأمسك رسول الله، وأمير المؤمنين، وعقيل بن أبي طالب، وحمزة بن عبد المطلب.

وقال لزيدٍ: مدّ يدك، وكُلْ.

فقلتُ في نفسي: هذه علامةٌ. فدخلتُ إلى مولاتي، فقلت لها: هبي لي طبقاً آخر.

فقالتْ: لك ستّة أطباقٍ.

قال: فجئتُ، فحملتُ طبقاً من رطبٍ، فوضعتُه بين يديه.

فقلتُ: هذه هديّةٌ. فمدّ يده، وقال: بسم الله، كلوا، ومدَّ القوم جميعاً أيديهم، فأكلوا.

فقلتُ في نفسي: هذه أيضاً علامةٌ.

قال: فبينا أنا أدور خلفه إذ حانتْ من النبيّ ﷺ التفاتةٌ.

فقال: يا روزبه، تطلب خاتم النبوّة؟!

فقلتُ: نعم.

فكشف عن كتفيه، فإذا أنا بخاتم النبوّة معجومٌ بين كتفيه، عليه شعراتٌ.

قال: فسقطتُ على قدم رسول الله ﷺ أقبّلها.

فقال لي: ياروزبه، ادخل إلى هذه المرأة، وقل لها: يقول لكِ محمّد بن عبد الله: تبيعينا هذا الغلام؟

فدخلتُ، فقلتُ لها: يا مولاتي، إنَّ محمّد بن عبد الله يقول لك: تبيعينا هذا الغلام؟ فقالتْ: قل له: لا أبيعك إلا بأربعمائة نخلةٍ؛ مائتي نخلة منها صفراء، ومائتي نخلة منها حمراء.

قال: فجئتُ إلى النبيّ ﷺ، فأخبرتُه.

فقال: وما أهون ما سألتْ.

ثمّ قال: قمْ يا عليّ فاجمع هذا النوى كلّه، فجمعه، وأخذه، فغرسه، ثمّ قال: اسقه، فسقاه أمير المؤمنين، فما بلغ آخره حتّى خرج النخل، ولحق بعضه بعضاً.

فقال: لي ادخل إليها، وقلْ لها: يقول لك محمّد بن عبد الله: خذي شيئك وادفعي إلينا شيئنا.

قال: فدخلتُ عليها، وقلتُ ذلك لها، فخرجتْ، ونظرتْ إلى النخل.

فقالتْ: والله لا أبيعكه إلا بأربعمائة نخلةٍ كلّها صفراء، قال: فهبط جبرئيل عليه السلام، فمسح جناحيه على النخل، فصار كلّه أصفر.

قال: ثمّ قال لي: قل لها: إنَّ محمّداً يقول لك: خذي شيئك، وادفعي إلينا شيئنا.

قال: فقلتُ لها ذلك.

فقالتْ: والله لنخلةٌ من هذه أحبّ إليَّ من محمّدٍ ومنك.

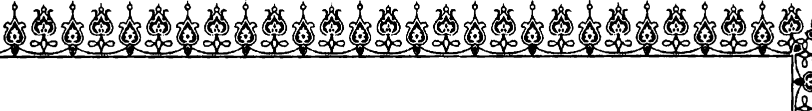
فقلتُ لها: والله ليومٌ واحدٌ مع محمّدٍ أحبّ إليَّ منكِ، ومن كلّ شيءٍ أنتِ فيه،

فأعتقني رسول الله ﷺ، وسمّاني سلمان»[(١)].

ولعمري لو كانت مولاة سلمان طلبت جبل أُحُدٍ ذهباً لأعطاها رسول الله ﷺ؛ لما في سلمان من ميزةٍ وخصوصيّةٍ منقطعة النظير، ألا وهي السعي الدؤوب لتحصيل الكمالات الممكنة، وتطهير الذات من الرذائل قدر المستطاع، فلاحظْ مدى استحقار رسول الله ﷺ لطلبها، ومدى عناية الباري بسلمان؛ إذ بعث جبرائيل وسيلةً لتحريره، وعتق رقبته، فلنا في سلمان – وأمثاله – عبرةٌ لمن شاء أنْ يعتبر.

---

(١) كمال الدين وتمام النعمة– الشيخ الصدوق، ص ١٦١– ١٦٦، ح٢١.



الموضوع الواحد والثلاثون:

العَدْل

١- تجلّيات العدل.

٢- القيامة وتجلّيات العدل.

٣- العبد والعدل سبحانه.

٤- ذكر العدل.

العَدْل

من أدعية الإمام السجّاد عليه السلام بعد صلاة الليل:

«إلهي، وسيّدي، هدأت العيون، وغارت النجوم، وسكنت الحركات من الطير في الوكور، والحيتان في البحور، وأنت (العدل) الّذي لايجور، والقسط الّذي لا يميل، والدائم الّذي لا يزول، أغلقت الملوك أبوابها، ودارتْ عليها حرّاسها، وبابك مفتوحٌ لمن دعاك، يا سيّدي، وخلا كلّ حبيبٍ بحبيبه، وأنت المحبوب إليّ...»[1].

وعن الصادق عليه السلام: «... **ثمّ اذكروا وقوفكم بين يدي الله جلّ وعلا، فإنّه الحكم (العدل)، واستعدّوا لجوابه إذا سألكم، فإنّه لا بدّ سائلكم عمّا عملتم بالثقلين من بعدي، كتاب الله، وعترتي...**»[2].

تسالم بين المسلمين على أنّ (العدل) من أسمائه تبارك وتعالى، وهي من جملة الأسماء

---

(١) الصحيفة السجادية (أبطحي)- الإمام زين العابدين عليه السلام، ص ١٧٣، من أدعيته عليه السلام بعد صلاة الليل.

(٢) الأمالي- الشيخ الصدوق، ص ٣٥٤.

الحسنى الواردة في حديث النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله: «**إنّه من أحصاها دخل الجنّة**»(١).

وقد بيَّن الشيخ الصدوق رحمه الله العدل قائلاً:

ويراد بالعدل: العادل، وهو الّذي يصدر منه فعل الحقّ، البعيد تمام البعد عن الظلم، والجور، والحيف(٢)، أو فقل: هو الّذي لم - ولن - يصدر عنه إلا الفعل الحسن، والمجانب عن الفعل القبيح والدنيء.

تجلّيات العدل:

العقل والنقل والواقع كلّها تشهد على عدله سبحانه، وتنزُّهه من فعل القبيح وغير الحسن، ونكتفي هنا بالإشارة الموجزة، والتفصيل يُطلب من مظانّه.

الدليل العقليّ: من الجليّ الواضح أنّ العقل يحكم بأنّ «الظلم قبيحٌ، وممّا يجب التنزُّه عنه، ولا يصدر القبيح من الحكيم، والعدل حسنٌ، وممّا ينبغي الاتّصاف به، فيكون الاتّصاف بالعدل من شؤون كونه - تعالى- حكيماً، منزَّهاً عمّا لا ينبغي فعله.

وإنْ شئتَ قلت: إنَّ الإنسان يدرك أنَّ القيام بالعدل كمالٌ لكلّ أحدٍ، وارتكاب الظلم نقصٌ لكلّ أحدٍ، وهو كذلك - حسب إدراك العقل - عنده سبحانه، ومعه

(١) ورد عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن لله تبارك وتعالى تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً، مَن أحصاها دخل الجنة، وهي: الله، الإله، الواحد، الأحد، الصمد... العدل، العفو». التوحيد- الشيخ الصدوق، ص ١٩٥، ح ٨.

(٢) راجع: التوحيد- الشيخ الصدوق، ص٢٠٨، والمقصد الأسنى- الغزالي، ص ١٥٩.

كيف يجوِّز أنْ يرتكب الواجب خلاف الكمال، ويقوم بما يجرُّ النقص إليه؟!»[(١)].

الدليل النقلي: فقد «تضافرت الآيات الكريمة - والروايات - مركِّزةً على قيامه – سبحانه - بالقسط، ونورد فيما يلي بعضاً منها:

قال ﷻ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[(٢)].

كما شهد على ذاته بالقيام بالقسط، عرَّف الغاية من بعثة الأنبياء بإقامة القسط بين الناس، قال سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ...﴾[(٣)].

كما صرَّح بأنَّ القسط هو الركن الأساس في محاسبة العباد يوم القيامة؛ إذ يقول سبحانه: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾[(٤)].

وما في هذه الآيات – وغيرها- إرشاداتٌ إلى ما يدركه العقل من صميم ذاته، بأنَّ العدل كمالٌ لكلّ موجودٍ حيٍّ مدركٍ مختارٍ، وأنَّه يجب أنْ يتّصف الله – تعالى-

---

(١) مقتطف من كتاب الإلهيات ـ الشيخ السبحاني، ص ٢٨٧– ٢٨٨.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٨.

(٣) سورة الحديد: الآية ٢٥.

(٤) سورة الأنبياء: الآية ٤٧.

به في أفعاله في الدنيا والآخرة، ويجب أنْ يقوم به سفراؤه به»[(١)].

عن أمير المؤمنين عليه السلام - في حديثٍ في وصف القيامة، إلى أنْ قال-: «**فيشرف الله عزّ وجلّ الحكم العدل عليهم، فيقول:**

أنا الله، لا إله إلا أنا، الحكم العدل الّذي لا يجور، اليوم أحكم بينكم بعدلي وقسطي، لا يظلم اليوم عندي أحدٌ، اليوم آخذ للضعيف من القويّ بحقّه، ولصاحب المظلمة بالمظلمة، بالقصاص من الحسنات والسيئات، وأُثيب على الهبات، ولا يجوز هذه العقبة اليوم عندي ظالمٌ، ولا أحدٌ عنده مظلمةٌ، إلا مظلمةً يهبها لصاحبها، وأثيبه عليها، أو آخذ له بها عند الحساب، فتلازموا أيّها الخلائق، واطلبوا مظالمكم عند مَنْ ظلمكم بها في الدنيا، وأنا شاهدٌ لكم بها عليهم، وكفى بي شهيداً»[(٢)].

الدليل الوجدانيّ والواقعيّ: إذا نظرنا إلى عالم الإمكان بنحو الإجمال أو التفصيل والدّقة لكلّ جزءٍ جزءٍ، أو كلّ صنفٍ صنفٍ، أو مركّبٍ مركّبٍ منها، لرأينا العدل، والإتقان، والحكمة ظاهرةً ومتجلّيةً في كلّ هذه الأمور، حتّى التشريع الإلهيّ الّذي جاء لتنظيم حياة الإنسان تجده بعيداً - تمام البعد - عن الظلم، والقبح، والمنكر، وكلّ رذيلةٍ، بل أمر بضرورة التمسّك بالعدل، والفضائل، والقيم الحسنة، ومكارم الأخلاق، وكلّ ما هو حسنٌ، لذا تجد - بوضوحٍ - العدل في التشريع، ونشير إشارةً إجماليّةً؛ فلا مجال للتفصيل هنا.

---

(١) مقتطف من كتاب الإلهيات ـ الشيخ السبحاني، ص ٢٨٩.

(٢) مستدرك الوسائل- الميرزا النوري ج ١٨، ص ٢٨٦-٢٨٧، ح١.

أمْر المولى بضرورة تعلُّم فئةٍ من المجتمع الإسلاميّ الشريعة وأحكامها، ممّا يعني تعرّفهم على تلك الأحكام الّتي جاءت لتصبّ في مصلحة الفرد والمجتمع، فتكون معرفة تلك الأحكام وسيلةً لرفع الجهل عنهم، وعاملاً لعدم خوضهم في الممنوعات والمحرّمات، الّتي تضرّه في النشأتين، ويسعى بعد ذلك إلى تحصين أفراد مجتمعه بتلك الأحكام الّتي تعلَّمها؛ ليصونهم من الانحراف عن الحقّ والعدل، أو الوقوع في ظلم النفس أو المجتمع جرّاء جهلهم، لذا كان من جملة التشريع الإلهيّ الدعوة إلى المعرفة، والتعلّم، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾(٢).

وهذا الخطاب تأكيدٌ من المولى جلّ وعلا بعدم مساواة المتديّنين بتعاليم الدين الحنيف مع أولئك غير المتديّنين بتعاليمه، وليس سواء مَنْ يفعل المَبرَّات والخيرات، ويحثّ على الحسن والجميل، ومن يزجر عن فعل القبيح والطالح، وبين أولئك المجرمين الّذين يعيثون في الأرض فساداً ورذيلةً.

استحالة أمر المولى بالفحشاء والمنكر بجميع صورهما وأشكالهما؛ إذ أنّهما لا

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٠٤.

(٢) سورة آل عمران: الآيتان ١١٣،١١٤.

تنسجم مع الحكمة والعدل الإلهيّين، قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾(١).

نعم، هذه الأفعال القبيحة والمنكرة لا تصدر إلا من الشيطان، وجنوده، وأنصاره، وقد أكّد المولى على هذه الحقيقة قائلاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٢).

أمّا الباري، الخالق، الملك، العدل، فإنّه لا يأمر إلا بالعدل؛ لأنّه حسنٌ وجميلٌ، ولا ينهى إلا عن المنكر؛ لأنّه قبيحٌ، ويمُجُّه العقل، والعقلاء، وفطرة الإنسان. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(٣).

كما حثَّ على ضرورة التخلُّق بأخلاق الله عند التمكُّن أو بسط القدرة، بحيث تنشر الخير، وتمنع الشرّ من الانتشار، قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾(٤).

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٢٨.

(٢) سورة النور: الآية ٢١.

(٣) سورة النحل: الآية ٩٠.

(٤) سورة الحج: الآية ٤١.

القيامة وتجلّيات العدل:

رُوي عن الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام أنّه قال:«حدّثني أبي أنّه سمع أباه عليّ بن أبي طالب عليه السلام يحدّث الناس، قال: إذا كان يوم القيامة بعث الله عزّ وجلّ الناس من حفرهم عزّلاً بهما، جرّداً، مرّداً في صعيدٍ واحدٍ[١]، يسوقهم النور، وتجمعهم الظلمة، حتّى يقفوا على عقبة المحشر، فيركب بعضهم بعضاً، ويزدحمون دونها، فيمنعون من المضيّ، فتشتدّ أنفاسهم، ويكثر عرقهم، وتضيق بهم أمورهم، ويشتدّ ضجيجهم[٢]، وترتفع أصواتهم.

قال: وهو أوّل هولٍ من أهوال يوم القيامة.

---

(١) عُزّلاً: لا سلاح لهم- بضم العين وسكون الزاي-، جمع أعزل، وكذلك أخواته، "بهما" أي: ليس معهم شيء، وقيل: يعني أصحاء لا آفة بهم، ولا عاهة، وليس بشيء، " جرّداً " لا ثياب لهم، " مرداً " ليس لهم لحية، وهذه كلها كناية عن تجرّدهم عمّا يباينهم ويغطيهم، ويخفي حقائقهم مما كان معهم في الدنيا، " يسوقهم النور " أي: نور الإيمان والشرع، فإنه سبب ترقّيهم طوراً بعد طور، وفي بعض النسخ: [بالنار]، أي: نار التكاليف، فإن التكليف بالنسبة إلى بعض المكلفين نار، وبالإضافة إلى آخرين نور " يجمعهم الظلمة "، أي: ما يمنعهم من تمام النور والإيقان، فإنه سبب تباينهم الموجب لكثرتهم الّتي يتفرع عليها الجمعية، ويحتمل أن يكون المراد: كلما أضاء لهم مشوا فيه، وإذا أظلم عليهم قاموا، والمعنيان متقاربان. وهذا كلام الفيض رحمه الله في الوافي. والله العالم بحقائق الأمور. " هامش المصدر وكذلك ما سيأتي من الهوامش".

(٢) أي: صياحهم وأصواتهم.

قال: فيشرف الجبَّار عَزَّوَجَلَّ عليهم من فوق عرشه، في ظلالٍ من الملائكة[١]، فيأمر ملكاً من الملائكة فينادي فيهم: يا معشر الخلائق، أنصتوا، واستمعوا منادي الجبَّار.

قال: فيسمع آخرهم كما يسمع أوّلهم، قال: فتنكسر أصواتهم عند ذلك، وتخشع أبصارهم، وتضطرب فرائصهم[٢]، وتفزع قلوبهم، ويرفعون رؤوسهم إلى ناحية الصوت ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾[٣].

قال: فعند ذلك يقول الكافر: ﴿...هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾[٤].

قال: فيشرف الجبَّار عَزَّوَجَلَّ الحكم العدل – عليهم، فيقول: أنا الله، لا إله إلا أنا الحكم العدل، الّذي لا يجور، اليوم أحكم بينكم بعدلي وقسطي، لا يظلم اليوم عندي أحدٌ، اليوم آخذ للضعيف من القويّ بحقّه، ولصاحب المظلمة بالمظلمة بالقصاص من الحسنات والسيّئات، وأثيب على الهبات، ولا يجوز هذه العقبة اليوم عندي ظالمٌ، ولا أحدٌ عنده مظلمةٌ، إلا مظلمةً يهبها صاحبها، وأثيبه عليها، وآخذ له

---

(١) يمكن أن يكون إشراف الله – تعالى – كناية عن توجهه إلى محاسبتهم، فالإشراف في حقه مجاز وفي الملائكة حقيقة. (آت).

(٢) أي: أوداج أعناقهم، قال الفيروز آبادي: الفريص: أوداج العنق، والفريصة واحدته، واللحمة بين الجنب والكتف الّتي لا تزال ترعد.

(٣) سورة القمر: الآية ٨، أي: يمدّون أعناقهم لسماع صوته. مهطعين: أي مسرعين. وأهطع: إذا مدّ عنقه.

(٤) سورة القمر: الآية ٨.

بها عند الحساب، فتلازموا أيّها الخلائق، واطلبوا مظالمكم عند من ظلمكم بها في الدنيا، وأنا شاهدٌ لكم عليهم، وكفى بي شهيداً.

قال: فيتعارفون، ويتلازمون، فلا يبقى أحدٌ له عند أحدٍ مظلمةٌ أو حقّ إلا لزمه بها، قال: فيمكثون ما شاء الله، فيشتدّ حالهم، ويكثر عرقهم[1]، ويشتدّ غمُّهم، وترتفع أصواتهم بضجيجٍ شديدٍ، فيتمنّون المخلص منه بترك مظالمهم لأهلها.

قال: ويطّلع الله عَزَّوَجَلَّ على جهدهم[2]، فينادي منادٍ من عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يسمع آخرهم كما يسمع أوّلهم:

يا معشر الخلائق، أنصتوا لداعي الله عَزَّوَجَلَّ، واسمعوا، إنّ الله عَزَّوَجَلَّ يقول [لكم]: أنا الوهّاب، إنْ أحببتم أنْ تواهبوا فتواهبوا، وإنْ لم تواهبوا أخذتُ لكم بمظالمكم.

قال: فيفرحون بذلك؛ لشدّة جهدهم، وضيق مسلكهم، وتزاحمهم.

قال: فيهب بعضهم مظالمهم رجاء أنْ يتخلّصوا ممّا هم فيه، ويبقى بعضهم، فيقول: يا ربّ، مظالمنا أعظم من أنْ نهبها.

قال: فينادي منادٍ من تلقاء العرش: أين رضوان خازن الجنان، جنان

---

(١) لما رأوا من شغل ذممهم بالمظالم، وترددهم في إبراء خصمائهم من مظالمهم، أو أخذهم بها لجهلهم.

(٢) يعني: أنهم يطلعون وقتئذ على اطّلاع الله على مشقتهم، وإلا فإن الله – سبحانه – لم يزل مطّلعا على السرائر والعلن.

الفردوس؟! قال: فيأمره الله عَزَّوَجَلَّ أنْ يطلع[١] من الفردوس قصراً من فضَّةٍ بما فيه من الأبنية والخدم.

قال: فيطلعه عليهم في حفافة القصر الوصائف والخدم[٢]، قال: فينادي منادٍ من عند الله عَزَّوَجَلَّ: يا معشر الخلائق، ارفعوا رؤوسكم، فانظروا إلى هذا القصر، قال: فيرفعون رؤوسهم، فكلّهم يتمناه.

قال: فينادي منادٍ من عند الله تعالى: يا معشر الخلائق، هذا لكلّ مَنْ عفا عن مؤمنٍ، قال: فيعفون كلّهم إلا القليل.

قال: فيقولنَّ الله عَزَّوَجَلَّ: لا يجوز إلى جنّتي اليوم ظالمٌ، ولا يجوز إلى ناري اليوم ظالمٌ، ولا أحدٌ من المسلمين عنده مظلمةٌ حتّى يأخذها منه عند الحساب، أيّها الخلائق، استعدوا للحساب.

قال: ثمّ يُخلّى سبيلهم، فينطلقون إلى العقبة يكرد بعضهم بعضاً، حتّى ينتهوا إلى العرصة، والجبّار عَزَّوَجَلَّ على العرش، قد نشرت الدواوين، ونصبت الموازين، وأحضر النبيّون، والشهداء، وهم الأئمّة، يشهد كلّ إمامٍ على أهل عالمه بأنّه قد قام فيهم بأمر الله عَزَّوَجَلَّ، ودعاهم إلى سبيل الله.

قال: فقال له رجلٌ من قريش: يا ابن رسول الله، إذا كان للرجل المؤمن عند

---

(١) من باب الإفعال، أي: يظهره لهم.

(٢) حفافة القصر: أي جوانبه. الوصائف والخدم من باب عطف أحد المترادفين على الآخر، والخدم أعم من الأثاث.

الرجل الكافر مظلمةٌ، أيّ شيءٍ يأخذ من الكافر وهو من أهل النار؟

قال: فقال له عليّ بن الحسين عليه السلام: يطرح عن المسلم من سيّئاته بقدر ما له على الكافر، فيعذّب الكافر بها مع عذابه بكفره عذاباً بقدر ما للمسلم قبله من مظلمةٍ.

قال: فقال له القرشيّ: فإذا كانت المظلمة للمسلم عند مسلمٍ كيف تؤخذ مظلمته من المسلم؟

قال: يؤخذ للمظلوم من الظالم من حسناته بقدر حقّ المظلوم، فتُزاد على حسنات المظلوم.

قال: فقال له القرشيّ: فإنْ لم يكن للظالم حسناتٌ؟

قال: إنْ لم يكن للظالم حسناتٌ فإنّ للمظلوم سيّئاتٌ، يؤخذ من سيّئات المظلوم فتُزاد على سيّئات الظالم»[1].

العبد والعدل:

عن محمّد بن عجلان قال: سمعتُ أبا عبد الله عليه السلام يقول: «كان عليّ بن الحسين عليه السلام إذا دخل شهر رمضان لا يضرب عبداً له ولا أمةً، وكان إذا أذنب العبد والأمة يكتب عنده: أذنب فلانٌ، أذنبتْ فلانةٌ يوم كذا وكذا، ولم يعاقبه، فيجتمع عليهم الأدب، حتّى إذا كان آخر ليلةٍ من شهر رمضان دعاهم، وجمعهم حوله، ثمّ

---

(١) الكافي- الشيخ الكليني ج ٨، ص١٠٣- ١٠٦، ح٧٩.

أظهر الكتاب.

ثمّ قال: يا فلان، فعلت كذا وكذا، ولم أؤدّبك، أتذكر ذلك؟

فيقول: بلى يا ابن رسول الله.

حتّى يأتي على آخرهم، ويقرّرهم جميعاً، ثمّ يقوم وسطهم، ويقول لهم: ارفعوا أصواتكم، وقولوا:

يا عليّ بن الحسين، إنّ ربّك قد أحصى عليك كلّما عملت، كما أحصيت علينا كلّما عملنا، ولديه كتابٌ ينطق عليك بالحقّ، لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً ممّا أتيت إلا أحصاها، وتجد كلّما عملت لديه حاضراً، كما وجدنا كلّما عملنا لديك حاضراً، فاعفُ واصفحْ كما ترجو من المليك العفو، وكما تحبّ أن يعفو المليك عنك، فاعف عنّا تجده عفوّاً، وبك رحيماً، ولك غفوراً، ولا يظلم ربّك أحداً، كما لديك كتابٌ ينطق بالحقّ علينا، لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً مما أتيناها إلا أحصاها.

فاذكر يا عليّ بن الحسين ذلّ مقامك بين يدي ربّك الحكم العدل، الّذي لا يظلم مثقال حبّةٍ من خردلٍ، ويأتي بها يوم القيامة، وكفى بالله حسيباً وشهيداً، فاعفُ واصفحْ يعفُ عنك المليك ويصفح، فإنّه يقول: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾(١).

قال: وهو ينادي بذلك على نفسه، ويلقّنهم، وهم ينادون معه، وهو واقفٌ بينهم يبكي، وينوح، ويقول:

---

(١) سورة النور: الآية ٢٢.

ربِّ إنّك أمرتنا أن نعفو عمن ظلمنا، وقد ظلمنا أنفسنا، فنحن قد عفونا عمّن ظلمنا كما أمرت، فاعفُ عنّا؛ فإنّك أولى بذلك منّا ومن المأمورين، وأمرتنا أنْ لا نردّ سائلاً عن أبوابنا، وقد أتيناك سُؤّالاً ومساكين، وقد أنخنا بفنائك[1] وببابك، نطلب نائلك[2]، ومعروفك، وعطاءك، فامنن بذلك علينا، ولا تخيّبنا، فإنّك أولى بذلك منّا، ومن المأمورين. إلهي، كرّمت فأكرمني إذا كنت من سُؤّالك، وجدتَ بالمعروف فاخلطني بأهل نوالك، يا كريم. ثمّ يقبل عليهم.

ويقول: قد عفوتُ عنكم، فهل عفوتم عنّي، ومما كان منّي إليكم من سوء ملكةٍ؟ فإنّي مليك سوءٍ، لئيمٌ، ظالمٌ، مملوكٌ لمليكٍ كريمٍ، جوادٍ، عادلٍ، محسنٍ متفضّلٍ.

فيقولون: قد عفونا عنك يا سيّدنا وما أسأتَ.

فيقول عليه السلام لهم: قولوا: اللهم اعفُ عن عليّ بن الحسين كما عفا عنّا، وأعتقه من النار كما أعتق.

فيقولون ذلك.

فيقول عليه السلام: اللهم آمّين يا ربّ العالمين، اذهبوا فقد عفوت عنكم، وأعتقتُ رقابكم رجاءً للعفو عني، وعتق رقبتي. فيعتقهم.

فإذا كان يوم الفطر أجازهم بجوائز تصونهم، وتغنيهم عمّا في أيدي الناس»[3].

---

(١) الفناء: الساحة أمام البيت.

(٢) نائلك: عطاءك.

(٣) الصحيفة السجادية (ابطحي)- الإمام زين العابدين عليه السلام، ص ٢٨٥- ٢٨٧، دعاؤه عليه السلام في آخر ليلة من شهر رمضان.

لاحظ أيّها العزيز، كم لعدل الله – تعالى – من تأثيرٍ على سلوك الأولياء والكُمَّل من عباده، وكيف دعاهم عدل الله إلى التخُّلق بأخلاقه، وعدم التهاون – أو التقصير – في حقوق الأهل، والعيال، ومن يعاشرهم.

واعلم يا أخي أنَّ العدالة من الملكات الواجبة التحصيل والنيل، وهي محلّ اهتمام المولى جلّ وعلا، ولا يرضى بالتهاون بها، فهي ليست من الأخلاق الّتي من الحَسَن التخلّق بها، بل يجب على كلّ فردٍ فردٍ تحصيل ملكة العدالة والاتّصاف بها، ويجب الإسراع في التوبة والإنابة إلى الله – تعالى – عند ارتكاب المعصية، والدخول في دائرة الطاعة والانقياد لله – تعالى – بعد أنْ كان خارجها.

والعدالة عبارةٌ عن الاستقامة في جادّة الشريعة المقدَّسة، وعدم الانحراف عنها يميناً وشمالاً، بأنْ لا يرتكب معصيةً بترك واجبٍ، أو فعل حرامٍ، من دون عذرٍ شرعيٍّ، ولا فرق في المعاصي – في هذه الجهة – بين الصغيرة، والكبيرة[1].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**إذا كان يوم القيامة يقوم عنقٌ من الناس، فيأتون باب الجنّة، فيضربونه.**

---

(١) هذا رأي آية الله العظمى السيد الخوئي رحمه الله في تعريف العدالة. منهاج الصالحين ج١، ص٩، م ٢٩. أما آية الله العظمى روح الله الخميني رحمه الله فهو يرى أنها ليست مجرد استقامة، بل إن «العدالة عبارة عن ملكة راسخة باعثة على ملازمة التقوى من ترك المحرمات وفعل الواجبات. وتزول صفة العدالة حكماً بارتكاب الكبائر، أو الإصرار على الصغائر، بل بارتكاب الصغائر على الأحوط، وتعود بالتوبة إذا كانت الملكة المذكورة باقية». راجع تحرير الوسيلة ج١، ص ١٠، م ٢٨– ٢٩. وكيف كان فهما لا يختلفان بضرورة التحفظ على الواجبات، وترك المحرمات، الصغيرة منها والكبيرة.

فيُقال لهم: مَن أنتم؟

فيقولون: نحن أهل الصبر.

فيُقال لهم: على مَ صبرتم؟

فيقولون: كنّا نصبر على طاعة الله، ونصبر عن معاصي الله، فيقول الله عَزَّوَجَلَّ: صدقوا، أدخلوهم الجنّة، وهو قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1]»[2].

وأمّا العدالة - لدى جملةٍ من علماء الأخلاق- فعبارةٌ عن مراعاة الوسطيّة، وعدم الميل إلى جانبي الإفراط أو التفريط، فيختار الشجاعة مثلاً لأنَّه حدّ الاعتدال بين الجبن والتهوّر، ويتّصف بالكرم لأنَّه الوسط بين البخل والإسراف، وهكذا في سائر الصفات الأخلاقيّة.

ذِكرُ العدل:

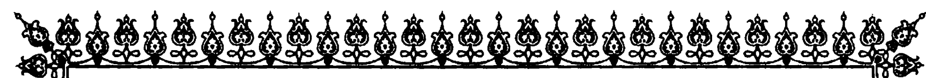
جاء في المصباح للكفعميّ عن البرسيّ: «مَن أكثر ذكرها - الحكيم العدل - في جوف الليل، خصَّه الله - تعالى - بلطائفه، وجعل باطنه خوانة سرِّه»[3].

---

(١) سورة الزمر: الآية ١٠.

(٢) الكافي- الشيخ الكليني ج ٢، ص ٧٥،ح٤.

(٣)



الموضوع الثاني والثلاثون:

الغِيَاث

١- تجلّيات الغياث.

٢- الاستغاثة بالأولياء، والتوسُّل بهم.

٣- الاستغاثة بالحجة عجل الله تعالى فرجه الشريف.

٤- الاستغاثة بالله تعالى.

٥- العبد والغياث.

الغِيَاث

قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[(١)].

وقد ورد في فقرات دعاء كميلٍ:

«ولأناديّنك أين كنت يا وليّ المؤمنين؟! يا غاية آمال العارفين، ويا غياث المستغيثين...»[(٢)].

وفي دعاء الجوشن الكبير:

«يا دليل المتحيّرين، يا غياث المستغيثين، يا صريخ المستصرخين، يا جار المستجيرين، يا أمان الخائفين، يا عون المؤمنين، يا راحم المساكين، يا ملجأ العاصين، يا غافر المذنبين، يا مجيب دعوة المضطرّين»[(٣)].

«الغياث: من أسماء الله الحسنى، ولم يرد في القرآن الكريم بهذه الهيئة والتركيب،

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٩.

(٢) دعاء كميل.- إقبال الأعمال- السيد ابن طاووس الحسني ج ٣، ص ٣٣٥. ومفاتيح الجنان.

(٣) دعاء الجوشن الكبير. بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ١٩، ص ٣٨٦. مفاتيح الجنان «دعاء الجوشن».

إلا أنَّ هذا الاسم الشريف ورد في مضامين كثيرةٍ من أدعية الفريقين ورواياتهم، تكشف عن تسالمهم على أنّه من الأسماء الحسنى الشريفة، كما في الرواية المشهورة عن أمير المؤمنين عليه السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إنَّ لله عزّ وجلّ تسعةً وتسعين اسماً، مائةً إلا واحداً، مَنْ أحصاها دخل الجنّة، وهي: الله، الإله، الواحد، الأحد، الصمد، الأوّل، الآخر، السميع، البصير، القدير،... وعدّ منها الغياث**»[١].

والغياث معناه: المغيث، أي الإغاثة، والإعانة[٢]، والنصرة.

وهو المغيث في كلّ أمورنا، صغيرها، وكبيرها، حقيرها، وعظيمها، وهو الله وحده، لا شيء سواه، وإنَّ أيّ طلبٍ من غير الله على نحو الاستقلال فهو شركٌ، وجهلٌ، وتجاوزٌ لحقّ مولويّة المولى جلّ وعلا.

تجلّيات الغياث:

قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[٣].

جاء في بحار الأنوار للعلاّمة المجلسيّ رحمه الله عن سبب نزول هذه الآية: «عن ابن

---

(١) التوحيد- الشيخ الصدوق، ص ١٩٤.

(٢) ورد في توحيد- الشيخ الصدوق، ص ٢٠٩، الغياث: معناه: المغيث، سمي به توسّعاً؛ لأنه مصدر.

وفي مجمع البحرين- الشيخ الطريحي ج ٣، ص ٣٣٦: و(الغياث) بالكسر من الإغاثة: الإعانة. وروي بالضم والكسر، وهما أكثر ما يجيء في الأصوات كالنباح، والفتح فيهما شاذٌّ.

(٣) سورة الأنفال: الآية ٩.

عبّاسٍ: لمّا كان يوم بدرٍ، واصطفّ القوم للقتال.

قال أبو جهل: اللهم أولانا بالنصر فانصره، واستغاث المسلمون، فنزلت الملائكة، ونزل قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ...﴾...الخ.

وقيل: «إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لمّا نظر إلى كثرة عدد المشركين، وقلّة عدد المسلمين، استقبل القبلة، وقال: اللهمّ أنجزْ لي ما وعدتني، اللهمّ إنْ تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض. فما زال يهتف ربّه، مادّاً يديه، حتّى سقط رداؤه من منكبه، فأنزل الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ...﴾ الآية.

وهو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «ولمّا أمسى رسول الله صلى الله عليه وآله، وجنّه الليل، ألقى الله على أصحابه النعاس، وكانوا قد نزلوا في موضعٍ كثير الرمل، لا تثبت فيه قدمٌ، فأنزل الله عليهم المطر رذاذاً حتّى لبّد الأرض[1]، وثبتت أقدامهم، وكان المطر على قريش مثل العزالي[2]، وألقى الله في قلوبهم الرعب، كما قال: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾[3] الآية.

وأمّا تفسيرها - كما في البحار -:

---

(١) الرذاذ: المطر الضعيف، لبد المطر الأرض: رشها. ولبد الشيء: لصق بعضه ببعض حتى صار كاللبد.

(٢) العزالى: والعزالى جمع العزلاء، مصب الماء من القربة ونحوها. وأنزلت السماء عزاليها إشارةً إلى شدة وقع المطر." هامش البحار".

(٣) سورة الأنفال: الآية ١٢.

«قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ...﴾ أي: تستجيرون بربّكم يوم بدرٍ من أعدائكم، وتسألونه النصر عليهم؛ لقلّتكم وكثرتهم، فلم يكن لكم مفزعٌ إلا التضرّع إليه، والدعاء له في كشف الضرّ عنكم.

﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ﴾ ، أي: مرسلٌ إليكم مدداً لكم ﴿بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ﴾، أي: متبعين ألفاً آخر من الملائكة؛ لأنَّ مع كلّ واحدٍ منهم ردفٌ له.

وقيل: معناه: مترادفين، متتابعين، وكانوا ألفاً، بعضهم في أثر بعضٍ.

وقيل: بألفٍ من الملائكة، جاؤوا على آثار المسلمين.

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾[1]، أي: ما جعل الإمداد بالملائكة إلا بشرى لكم بالنصر، ولتسكن به قلوبكم، وتزول الوسوسة عنها، وإلا فملكٌ واحدٌ كافٍ للتدمير عليهم، كما فعل جبرئيل بقوم لوط، فأهلكهم بريشةٍ واحدةٍ.

واختُلِفَ في أنَّ الملائكة هل قاتلت يوم بدرٍ أم لا؟

فقيل: ما قاتلت، ولكن شجَّعت، وكثَّرت سواد المسلمين، وبشَّرت بالنصر.

وقيل: إنّها قاتلت، قال مجاهد: إنَّما أمدّهم بألف مقاتلٍ من الملائكة، فأمّا ما قاله - سبحانه - في آل عمران بثلاثة آلافٍ وبخمسة آلافٍ فإنَّه للبشارة.

وروي عن ابن مسعودٍ أنّه سأله أبو جهل: من أين كان يأتينا الضرب، ولا نرى الشخص؟

---

(١) سورة الأنفال: الآية ١٠.

قال: من قِـبَل الملائكة.

فقال: هم غلبونا، لا أنتم.

وعن ابن عبّاسٍ أنَّ الملائكة قاتلت يوم بدرٍ، وقتلت ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾[1] لا بالملائكة، ولا بكثرة العدد...»[2].

الاستغاثة بالأولياء، والتوسُّل بهم:

قال أستاذي الشيخ محمّد صنقور - حفظه الله ورعاه -:

المراد من التوسّل - والاستغاثة بالأولياء - هو اتّخاذ الوسائل المُفضية للقرب من الله تعالى، فكلّ عملٍ وقولٍ ينتهي بالإنسان إلى القرب من الله - تعالى - فذلك الفعل - أو القول - وسيلةٌ من وسائل الوصول لله جلّ وعلا، لذلك كان الدعاء وسيلةً، وكان الاستغفار وسيلةً، وكذلك العمل الصالح، ومطلق أعمال البرّ والخير، وهكذا الصلاة، والطواف، والسعي، والرمي، كلّها من وسائل القرب الإلهيّ.

فعندما يصلّي الإنسان لقضاء حاجته، ثمّ يسأل الله حاجته، فهذا معناه التوسُّل بالصلاة ليكون قريباً من الله، فتقضى حاجته، وهكذا عندما نذكر أسماء أهل البيت مثلاً بين يدي الله عزّ وجلّ، ونسأل الله بهم أنْ يقضي حوائجنا، فذلك معناه اتّخاذ أهل البيت وسيلةً للتقرّب من الله؛ لنكون أهلاً لاستجابة الله عزّ وجلّ لدعائنا.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٢٦.

(٢) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ١٩، ص ٢٢١.

وليس ذلك من الشرك؛ إذ أنَّ الشرك يعني العبوديّة لغير الله عزّوجلّ، أو توهّم أنَّ الّذي ينفع ويضرّ هو غير الله عزّوجلّ، وهذا ما كان عليه عرب الجاهليّة.

أمّا المسلمون -ومنهم الشيعة- فهم إنَّما يعبدون الله وحده، ويعتقدون أنّه الّذي ينفع ويضرّ، وليس من أحدٍ غيره ينفع ويضرّ، غايته أنّهم يتقرّبون إليه -تعالى- بوسائل القرب الّتي شرَّعها، مثل الصلاة، والصيام، والعمل الصالح، والإقرار بنبوّة النبيّ، وإمامة المعصومين من أهل بيته، والإقرار باجتبائه لهم، واصطفائه لهم على سائر خلقه، ومن البيِّن أنَّ الإقرار بما جاء به الله يوجب القرب من الله عزّوجلّ، فيكون ذلك مقتضياً لاستجابة الدعاء.

وبذلك يتبيَّن أنْ قوله تعالى: ﴿...ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ...﴾[١] معناه: توسّلوا إليَّ بالدعاء

فإنِّي أستجيب لكم، فإنَّ الدعاء واحدٌ من وسائل القرب لله تعالى، وليس هو الوسيلة الوحيدة؛ إذ أنَّ الآية المباركة ليست في مقام الحصر، ولذلك ورد في آيةٍ أخرى الأمر باتّخاذ الوسيلة المفضية للقرب إلى الله، قال تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾[٢] وهي دليلٌ بإطلاقها على عدم اختصاص الوسيلة بالدعاء.

وقد ذكر سماحته مجموعةً من الروايات الدالّة على مشروعيّة التوسّل والاستغاثة، نذكر واحدةً منها؛ للاختصار:

---

(١) سورة غافر: الآية ٦٠.

(٢) سورة المائدة: الآية ٣٥.

- توسَّل عمر بعمّ النبيّ صلى الله عليه وآله: روى البخاريّ في صحيحه: قال: «**كان عمر بن الخطاب إذا قحطوا استسقى بالعبّاس بن عبد المطّلب رضي الله عنه، وقال: اللّهمّ إنّا كنّا نتوسّل إليك بنبيّنا فتسقينا، وإنّا نتوسّل إليك بعمّ نبيّنا، فاسقنا.**

قال: فيسقون»[1].

الاستغاثة بالحجّة عليه السلام:

نقل العلاّمة المجلسيّ في بحاره عن صاحب كتاب الدمعة الساكبة - وهو من معاصريه - في معجزات الحجّة عليه السلام: «فالأولى أنْ يختم الكلام، بذكر ما شاهدتُه في سالف الأيّام، وهو أنّه أصاب ثمرة فؤادي، ومَنْ انحصرتْ فيه ذكور أولادي، قرَّة عيني عليّ محمّد - حفظه الله الفرد الصمد - مرضٌ يزداد آناً فآناً، ويشتدّ، فيورّثني أحزاناً وأشجاناً، إلى أنْ حصل للناس من برئه اليأس، وكانت العلماء والطلاّب والسادات الأنجاب يدعون له بالشفاء في مظانّ استجابة الدعوات، كمجالس التعزية، وعقيب الصلوات.

فلمّا كانت الليلة الحادية عشرة من مرضه، اشتدّتْ حاله، وثقلتْ أحواله، وزاد اضطرابه، وكثر التهابه، فانقطعت بي الوسيلة، ولم يكن لنا في ذلك حيلةٌ، فالتجأتُ بسيّدنا القائم - عجَّل الله ظهوره، وأرانا نوره -، فخرجت من عنده وأنا في غاية الاضطراب، ونهاية الالتهاب، وصعدت سطح الدار، وليس لي قرار، وتوسّلت

---

(١) المصدر صحيح البخاري - البخاري، باب صلاة الاستسقاء ج٢، ص٣٢. وما تقدّم مقتطف من مقال للشيخ محمد صنقور حول فلسفة التوسل وحقيقته والدليل على مشروعيته.

به عليه السلام خاشعاً، وانتدبت خاضعاً، وناديته متواضعاً.

وأقول: يا صاحب الزمان، أغثني يا صاحب الزمان، أدركني، متمرّغاً في الأرض، ومتدحرجاً في الطول والعرض، ثمّ نزلت، ودخلت عليه، وجلست بين يديه، فرأيته مستقرَّ الأنفاس، مطمئنَّ الحواسّ، قد بلّه العرق، لا بل أصابه الغرق، فحمدتُ الله، وشكرتُ نعماءه الّتي تتوالى، فألبسه الله تعالى لباس العافية ببركته عليه السلام»[1].

الاستغاثة بالله تعالى:

عن أنس بن مالك قال: «كان رجلٌ من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله من الأنصار يكنّى أبا معلّقٍ، وكان تاجراً يتّجر بماله ولغيره، يضرب به في الآفاق، وكان يزن بسددٍ وورعٍ، فخرج مرّةً، فلقيه لصٌّ مقنّعٌ في السلاح.

فقال له: ضع ما معك، فإنّي قاتلك.

قال: ما تريد إلى دمي؟! شأنك بالمال!

فقال: أمّا المال فلي، ولست أريد إلا دمك.

قال: أمّا إذا أبيت فذرني أصلّي أربع ركعاتٍ.

قال: صلّ ما بدا لك.

قال: فتوضّأ، ثمّ صلّى أربع ركعاتٍ، فكان من دعائه في آخر سجدةٍ أنْ قال: يا

---

(١) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج٥٣، ص ٢٩٨- ٢٩٩، الحكاية: ٥١. نقلاً عن كتاب الدمعة الساكبة.

ودود، يا ذا العرش المجيد، يا فعّالاً لما يريد، أسألك بعزّك الّذي لا يرام، وملكك الّذي لا يضام، وبنورك الّذي ملأ أركان عرشك، أنْ تكفيني شرَّ هذا اللص، يا مغيث أغثني، يا مغيث، ثلاث مرّاتٍ.

قال: دعا بها ثلاث مرّاتٍ، فإذا هو بفارسٍ قد أقبل بيده حربةٌ واضعها بين أذني فرسه، فلمّا بصر به اللص أقبل نحوه، فطعنه، فقتله، ثمّ أقبل إليه، فقال: قم.

قال: مَنْ أنت بأبي أنت وأمّي؟! فقد أغاثني الله بك اليوم!

قال: أنا ملكٌ من أهل السماء الرابعة، دعوت بدعائك الأوّل فسمعت لأبواب السماء قعقعةً، ثمّ دعوت بدعائك الثاني فسمعت لأهل السماء ضجّةً، ثمّ دعوت بدعائك الثالث، فقيل لي: دعاء مكروبٍ، فسألت الله تعالى أنْ يولّيني قتله.

قال أنس: فاعلم أنّه مَنْ توضّأ، وصلّى أربع ركعاتٍ، ودعا بهذا الدعاء، استُجيب له، مكروباً كان أو غير مكروبٍ»[1].

العبد والغياث:

العبد في الأرض خليفةٌ لله تعالى، وجوارحه تجسّد وتطبّق كلّ ما يريده المولى جَلَّ وَعَلَا، فهو جنديٌّ من جنود الله البواسل، وحيث إنَّ العباد عيال الله – تعالى – تجد هذا الجنديّ الباسل الفعَّال يتحرّك بكلّ ما أوتي من قوّةٍ وإمكاناتٍ لإسداء الخدمة، ومدّ يد العون إلى العباد؛ لينال بذلك القرب، والرضا، والرضوان الإلهيّ، فهو

---

(١) كتاب الهواتف– ابن أبي الدنيا، ص ٢٤– ٢٥.

لا ينتظر طلب الإعانة - أو الاستغاثة - كي يغيث أو يعين أخاه، بل يتسابق في فعل الخير قبل أنْ يطلب أخاه ذلك، ويريق له ماء وجهه، وهو مع ذلك لا يرى لفعله فضلاً لينتظر الشكر أو الثناء، بل الفضل - كلّ الفضل -، والشكر - كلّ الشكر - إلى المستغيث؛ إذ من خلاله نال هذا الجنديّ الباسل مقام القرب والمحبوبيّة أكثر فأكثر عند الله، وبسبب قضاء حاجة أخيه نال أجر عبادة تسعة آلاف سنة، مع أنّه لم يكلّفه ذلك السعي إلا القليل من الجهد والعناء، بل لو كان العمر كلّه بذلةً في قضاء حاجة أخٍ لكان هو الرابح، فكيف وأنَّ أكثر حوائج العباد يسيرةٌ وسهلةٌ؟!

ولنقرأ هذه الروايات الصادرة من أهل بيت العصمة والطهارة؛ لنرى مدى أهمّيّة إعانة المؤمن، واستغاثة اللهفان، وذمٍّ تاركها:

أ- عن أبي عبد الله عليه السلام أنَّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال: «**مَنْ أصبح لا يهتمّ بأمور المسلمين فليس منهم، ومَنْ سمع رجلاً ينادي: يا للمسلمين. فلم يجبه فليس بمسلمٍ**»(١).

وواضحٌ أنَّ المراد من قوله: (فليس منهم)، ليس خروجه من دائرة الإسلام والمسلمين، فيكون يهوديّاً أو نصرانيّاً مثلاً، بل المراد أنّه ليس من أولئك الكُمَّل من المسلمين؛ إذ لم يمتثل ما عليه من حقوقٍ لإخوانه المسلمين ممّا فرضه عليه الإسلام والدين، فإسلامه ليس بكاملٍ؛ لعدم مراعاة الحقوق.

ب- عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**ما من مؤمنٍ يخذل أخاه وهو يقدر على**

---

(١) الكافي- الشيخ الكليني ج ٢، ص ١٦٤،ح٥.

نصرته إلا خذله الله في الدنيا والآخرة»[١].

حـ- عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الخلق عيال الله، فأحبّ الخلق إلى الله مَنْ نفع عيال الله، وأدخل على أهل بيتٍ سروراً**».

فلا تستهيننَّ بعملٍ، صغيراً كان أو كبيراً، لصغيرٍ كان أو لكبيرٍ، ولمسلمٍ كان أو كافرٍ، فتنال بعملك ذاك القرب والودَّ من لله تعالى، حيث التعبير في الحديث الشريف "بالخلق"، وهو غير خاصٍّ بالمسلمين.

هـ - عن ميمون بن مهران قال: كنت جالساً عند الحسن بن عليٍّ عليه السلام، فأتاه رجلٌ، فقال له:«**يا ابن رسول الله صلى الله عليه وآله، إنَّ فلاناً له عليَّ مالٌ، ويريد أنْ يحبسني.**

فقال: والله ما عندي مالٌ فأقضي عنك.

قال: فكلّمه.

قال: فلبس عليه السلام نعله.

فقلت له: يا ابن رسول الله، أنسيت اعتكافك؟!

فقال له: لم أنسَ، ولكنّي سمعت أبي يحدّث عن جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: مَنْ سعى في حاجة أخيه المسلم فكأنّما عبد الله عزّ وجلّ تسعة آلاف سنة، صائماً نهاره، قائماً ليله»[٢].

---

(١) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٢٧، ص ٢٢،ح٢٦.

(٢) وسائل الشيعة- الشيخ الحر العاملي ج١٠، ص٥٥٠، ح٤.

لاحظ سرعة استجابة الإمام، وشغفه لطلب السائل، حتّى ظنَّ ابن مهران نسيان الإمام أمر الاعتكاف، إلا أنَّ الإمام بيَّن أهمّيّة قضاء حاجة المؤمن، ومدى شرافة ومقرّبيّة هذا العمل إلى الباري جلّ وعلا، وإذا كان الاعتكاف ثلاثة أيّامٍ يتضمّن صيام العبد نهارها، وقيام شطرٍ من ليلها، فإنَّ القيام بحاجة المؤمن تعدل تسعة آلاف سنة عبادةً، بصيام نهاره، وقيام ليله.

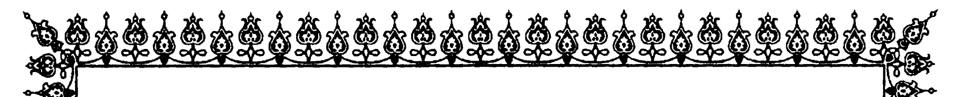
ولعلَّ الشيطان الرجيم - لعنة الله عليه - قد يستكثر عندك أمر هذا الجزاء لمجرّد حاجةٍ تقضيها لأخيك المؤمن، أو لَمَنْ هو نظيرٌ لك في الخلق.

ولكن عليك بأن تقمع هذه الوساوس، بجوابك عليه بأنَّ الباري كريمٌ رحيمٌ، خلقنا للسعادة الأبديّة السرمديّة، بأسبابٍ جزئيّةٍ حقيرةٍ، وما ذلك إلا رحمةً ورأفةً بنا، والمغبون من يحرِم نفسه من هذا العطاء الوافر، بوساوس واهيةٍ شيطانيّةٍ، هدفه حرماننا ذلك الأجر والثواب.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**من كفّارات الذنوب العظام إغاثة الملهوف، والتنفيس عن المكروب**»(١).

---

(١) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٧٢، ص ٢١،ح ٢١.



الموضوع الثالث والثلاثون:

الفَالِق

١- تجلّيات الفالق.

٢- العبد والفالق.

الفَالِق

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾(١).

وفي دعاء الجوشن الكبير:

«اللهم إنّي أسألك باسمك يا خالق، يا رازق، يا ناطق، يا صادق، يا فالق، يا فارق، يا فاتق، يا راتق، يا سابق، يا سامق»(٢).

«الفالق: من جملة الأسماء الحسنى الواردة في كثيرٍ من الأحاديث والروايات، والأدعية الشريفة، من قبيل دعاء الجوشن، والرواية المشهورة عن أمير المؤمنين عليه السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله: **«إنّ لله عزّ وجلّ تسعةً وتسعين اسماً، مائةً إلا واحداً، مَنْ أحصاها دخل الجنّة، وهي: الله، الإله، الواحد، الأحد، الصمد، الأوّل، الآخر،**

---

(١) سورة الأنعام: الآيتان ٩٥،٩٦.

(٢) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٩١، ص٣٩٢. ومفاتيح الجنان.

السميع، البصير، القدير،... وقد عدَّ منها الفالق»»[١].

نعم، لم يردْ في القرآن الكريم محلّىً بالألف واللام، والوارد فيه من دون ذلك في موردين، وقد سردناهما في بداية الحديث.

وأمّا المراد من هذا الاسم الشريف، فقد قال الفيلسوف الإسلاميّ الملاّ هادي السبزواريّ - في شرحه لدعاء الجوشن - ما يلي:

«فالقٌ: فلقه، أي: شقَّه، وهو - تعالى - فالق الحبّ والنوى بإخراج الأغصان، والأوراق، والأزهار منها، وفالق كلّ مادّةٍ بإخراج الصور منها، بل فالق ظلمة العدم بنور الوجود، كما هو فالق ظلمة الليل بنور الإصباح»[٢].

وقال الشيخ الصدوق:

«**الفالق**: اسمٌ مشتقٌّ من الفلق، ومعناه في أصل اللغة: الشقّ، يُقال: سمعتُ هذا من فلق فيه، وفلقتُ الفستقة فانفلقتْ: شققتُها فانشقّتْ، وخلق الله عزّ وجلّ كلّ شيءٍ، فانفلق عن جميع ما خلق، فلق الأرحام، فانفلقت عن الحيوان، وفلق الحبّ والنوى، فانفلقا عن النبات، وفلق الأرض، فانفلقت عن كلّ ما أخرج منها، وهو كقوله عزّ وجلّ: ﴿وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾[٣]، صدعها، فانصدعت، وفلق الظلام، فانفلق عن الإصباح، وفلق السماء، فانفلقت عن القطر، وفلق البحر لموسى عليه السلام، فانفلق، فكان

---

(١) التوحيد- الشيخ الصدوق، ص١٩٤.

(٢) شرح الأسماء الحسنى- الملا هادى السبزواري ج ١، ص ٢٢٠.

(٣) سورة الطارق: الآية ١٢.

كلّ فرقٍ منه كالطود العظيم»[١].

تجلّيات الفالق:

قال صاحب تفسير الأمثل في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[٢]:

«يوجّه القرآن الخطاب إلى المشركين، ويشرح لهم دلائل التوحيد في عباراتٍ جذّابةٍ، وفي نماذج حيّةٍ من أسرار الكون، ونظام الخلق، وعجائبه.

ففي الآية الأولى يشير إلى ثلاثة أنواع من عجائب الأرض، وفي الآية الثانية يشير إلى ثلاثةٍ من الظواهر السماويّة.

يقول القرآن الكريم أوّلاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾.

(الفلق): شقُّ الشيء، وإبانة بعضه عن بعضٍ[٣].

و(الحبّ) و(الحبّة): يُقال في الحنطة، والشعير، ونحوهما من المطعومات الّتي تحصد، كما يُقال ذلك لبروز الرياحين أيضاً[٤].

---

(١) التوحيد- الشيخ الصدوق، ص٢٠٩.

(٢) سورة الأنعام: الآيتان ٩٥،٩٦.

(٣) المفردات- الراغب الأصفهاني، ص ٣٨٥. "هامش المصدر".

(٤) المصدر السابق، ص١٠٥. "هامش المصدر".

و(النوى) هو كلّ نوى، وقيل إنّه يخصّ نوى التمر، ولعلَّ هذا يرجع إلى كثرة التمر في بيئة العرب، حتّى كان ينصرف ذهنه إلى نوى التمر إذا سمع هذه الكلمة.

ولننظر الآن إلى ما يكمن في هذا التعبير:

ينبغي أنْ نعلم أنّ أهمّ لحظةٍ في حياة الحبّة والنوى هي لحظة الفلق، وهي أشبه بلحظة ولادة الطفل، وانتقاله من عالمٍ إلى عالمٍ آخر، إذ في هذه اللحظة يحصل أهم تحوُّلٍ في حياته.

وممّا يلفت الانتباه أنَّ الحبّة والنواة غالباً ما تكونان صلبتين، فنظرةٌ إلى نواة التمر والخوخ وأمثالهما، وإلى بعض الحبوب الصلبة، تكشف لنا أنَّ تلك النطفة الحياتيّة الّتي هي في الواقع نبتةٌ صغيرةٌ، محصّنةٌ بقلعةٍ محكمةٍ، تحيط بها من كلّ جانبٍ، وإنّ يد الخالق قد أعطت لهذه القلعة العصيّة على الاختراق خاصيّة التسليم والليونة، أمام اختراق الجنين، كما منحت الجنين قوّة اندفاعٍ تمكّنه من فلق جدران قلعتها، فتطلع النبتة بقامتها المديدة، هذه حقّاً حادثةٌ عجيبةٌ في عالم النبات، لذلك يشير إليها القرآن على أنّها من دلائل التوحيد...».

ثمّ يضيف قائلاً:

«قلنا إنَّ القرآن في الآية الثانية يشير إلى ثلاث نعمٍ سماويّةٍ، فيقول أوّلاً: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ﴾، وذكرنا أنَّ (الفلق) هو شقُّ الشيء، وإبانة بعضه عن بعضٍ، و(الإصباح) و(الصبح) بمعنىً واحدٍ.

إنَّه تعبيرٌ رائعٌ، فظلام الليل قد شُبّه بالستارة السميكة الّتي يشقّها نور الصباح

شقّاً، وهذه الحالة تنطبق على الصبح الصادق، والصبح الكاذب كليهما؛ لأنَّ الصبح الكاذب هو الضوء الخفيف الّذي يظهر في آخر الليل عند المشرق على هيئة عمودٍ، وكأنّه شقٌّ يبدأ من الشرق نحو الغرب في قبّة السماء المظلمة، والصبح الصادق هو الّذي يلي ذلك على هيئة شريطٍ أبيض لامعٍ جميلٍ، يظهر عند امتداد الأفق الشرقيّ، وكأنّه شقٌّ عباب الليل الأسود من الأسفل، ممتداً من الجنوب إلى الشمال، متقدّماً في كلّ الأطراف، حتّى يغطّي السماء كلّها شيئاً فشيئاً.

كثيراً ما يشير القرآن إلى نعمتي النور والظلام، والليل والنهار، ولكنّه هنا يتناول (طلوع الصبح) كنعمةٍ من نعم الله الكبرى، فنحن نعرف أنَّ هذه الظاهرة تحدث لوجود جوّ الأرض، ذلك الغلاف الضخم من الهواء الّذي يحيط بالأرض، فلو كانت الأرض - مثل القمر - عديمة الجوّ، لما كان هناك (طلوعان)، ولا (فلق)، ولا (إصباح)، ولا (غسق)، ولا (شفق)، بل لكانت الشمس تبزغ فجأةً، وبدون أيّة مقدّماتٍ، ولسطع نورها في العيون الّتي اعتادت ظلام الليل ولم تكد تفارقه، وعند الغروب تختفي فجأةً، وتعمّ الظلمة الموحشة في لحظةٍ واحدةٍ كلّ الأرجاء، غير أنَّ الجوّ الموجود حول الأرض - والمؤدّي إلى حصول فترةٍ فاصلةٍ بين ظلام الليل وضياء النهار عند طلوع الشمس وغروبها - يهيّئ الإنسان تدريجيّاً لتقبّل هذين الاختلافين المتضادّين، والانتقال من الظلمة إلى النور، ومن النور إلى الظلمة شيئاً فشيئاً، بحيث إنّه يستطيع أنْ يُتحمّل كلٌّ منهما، فنحن نشعر بالانزعاج إذا كنا في غرفةٍ مضاءةٍ وانطفأت الأنوار فجأةً، وعمَّ الظلام، ثمّ إذا استمر الظلام ساعةً، وعاد النور مرّةً أخرى فجأةً، عادت معها حالة الانزعاج بسبب سطوع الضوء المفاجئ الّذي يؤلم العين، ويجعلها غير قادرةٍ على رؤية الأشياء، وإذا ما تكرر هذا الأمر فإنّه

لا شكّ سيؤذي العين، غير أنَّ ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ قد جنّب الإنسان هذا الأذى بطريقةٍ رائعةٍ.

ولكيلا يظنّ أحدٌ أنَّ فلق الصبح دليلٌ على أنَّ ظلام الليل أمرٌ غير مطلوبٍ، وأنّه عقابٌ أو سلب نعمةٍ، يبادر القرآن إلى القول: ﴿وَجَعَلَ الَّيْلَ سَكَنًا﴾.

من الأمور المسلّم بها أنَّ الإنسان يميل خلال انتشار النور والضياء إلى العمل وبذل الجهد، ويجري الدم نحو سطح الجسم، وتتهيّأ الخلايا للفعّاليّة والنشاط، ولذلك لا يكون النوم في الضوء مريحاً؛ لأنَّ النوم يكون أعمق - وأكثر راحةً - كلّما كان الظلام أشدّ؛ إذ في الظلام يتّجه الدم نحو الداخل، وتدخل الخلايا - عموماً - في نوعٍ من السكون والراحة، ولذلك نجد في الطبيعة أنَّ النوم في الليل لا يقتصر على الحيوانات فقط، بل إنَّ النباتات تنام في الليل أيضاً، وعند بزوغ خيوط الصبح الأوّليّ تشرع بفعّاليّتها ونشاطها، وبعكس الإنسان في العصر الآليّ، فهو يبقى مستيقظاً إلى ما بعد منتصف الليل، ثمّ يظل نائماً حتّى بعد ساعاتٍ من طلوع الشمس، فيفقد بذلك نشاطه وسلامته.

في الأحاديث الواردة عن أهل البيت عليهم السلام نجد التأكيد على ما ينسجم مع هذا التنظيم، من ذلك ما جاء في نهج البلاغة عن الإمام عليٍّ عليه السلام أنّه قال - يوصي أحد قوّاده -: «... **ولا تسر أوّل الليل، فإنَّ الله جعله سكناً، وقدَّرَه مقاماً لا ضعناً، فأرحْ فيه بدنك، وروّح ظهرك...**»[1].

(١) تفسير الأمثل- آية الله الشيخ ناصر مكارم الشيرازي ج٤، ص ٣٦٢- ٣٦٦.

العبد والفالق:

إنَّ هذه الإشارات الإلهيّة، والتأكيدات الروائيّة لما تضمّنه القرآن الكريم لم يأتِ جزافاً، أو للقراءة العابرة فقط، من دون تأمّلٍ أو تدبّرٍ، بل إنها إشاراتٌ لأولي الألباب؛ كي يسعوا – معتمدين على الله تعالى، وثمَّ على أنفسهم – لكشف حقائق الكون، ورفع الستار عن هذه الآيات الباهرات المنتشرة في أرجاء هذا الكون العظيم، الدالّ على عظمة الخالق، وفالقيّته، وحكمته، وجبروته، ومن ثمّ يتقدم الإنسان اعتقاديّاً، وفكريّاً، وفي كلّ مجالات الحياة.

إلا أنَّ ما نراه نحن المسلمون هو أنّنا أصبحنا رهن اكتشافات الغرب والشرق، وكأنَّ الأمر لا يعنينا، أو كأنّنا لا نؤمن أنَّ للعالم خالقٌ بديعٌ، حكيمٌ، دبّر الأمور على الحكمة والقدرة الفائقتين.

إنَّ من جملة الفوارق الجوهريّة بيننا وبين علمائنا الأبرار السابقين، الّذين تشرَّف التاريخ بتدوين أسمائهم الشريفة في أسطر أوراق كتبها، هو أنّهم كانوا يسعون للتأمّل في كلّ صغيرةٍ وكبيرةٍ، ومعرفة الحكمة والمصلحة الكامنة في كلّ الظواهر الكونيّة، وفي جميع مجالات الحياة، فاكتشفوا، وأبدعوا، واخترعوا، فانقادت لهم علماء الشرق والغرب، بعد أنْ نكّسوا رؤوسهم أمام عبقريّتهم، ودقّة تأمّلاتهم وعلمهم.

فحظّ العبد من هذه الصفة الشريفة هو أنْ يسعى لشقّ ستار الجهل عمّا يحيطه من أمورٍ، ويسعى للتقدّم العلميّ، معتمداً بما انتهى إليه العلم، ويكون بذلك السبيل لتحرّر بلاد الإسلام من ذلّ عبوديّة الغرب والشرق، والخروج من الاستعمار حقيقةً وواقعاً، ونكون متبوعين لا تابعين، ونحيي بذلك تاريخنا المجيد.



الموضوع الرابع والثلاثون:

القَدِيم

١- تجلّيات القديم.

٢- العبد والقديم.

القَدِيم

جاء في دعاء الجوشن الكبير:

«اللهمّ إنّي أسألك باسمك، يا الله، يا رحمن، يا رحيم، يا كريم، يا مقيم، يا عظيم، يا قديم، يا عليم، يا حليم، يا حكيم، سبحانك يا لا إله إلا أنت، الغوث، الغوث، خلّصنا من النار يا ربّ»(١).

«القديم: من أسماء الله الحسنى الّتي لم ترد في القرآن، إلا أنّها وردت في ألسن العديد من الأحاديث والروايات الّتي تثبت أنّها من أسمائه التوقيفيّة الشريفة، وهو من جملة الأسماء الحسنى الواردة في حديث النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله: **«الّتي مَنْ أحصاها دخل الجنّة»**»(٢).

وقد بيَّن الشيخ الصدوق رحمه الله معنى القديم قائلاً:

---

(١) مفاتيح الجنان، الشيخ عباس القمي، دعاء الجوشن الكبير.

(٢) ورد عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن لله تبارك وتعالى تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة... الفالق، والقديم، الملك القدوس». التوحيد- الشيخ الصدوق، ص ١٩٤- ١٩٥.

«**القديم**: معناه أنّه المتقدّم للأشياء كلّها، وكلّ متقدّمٍ لشيءٍ يسمّى قديماً إذا بُولِغَ في الوصف، ولكنّه – سبحانه – قديمٌ لنفسه، بلا أوّل، ولا نهاية، وسائر الأشياء لها أوّل ونهاية، ولم يكن لها هذا الاسم في بدئها، فهي قديمةٌ من وجهٍ، ومُحْدَثَةٌ من وجهٍ.

وقد قيل: إنّ القديم معناه: أنّه الموجود لم يزل، وإذا قيل لغيره عَزَّوَجَلَّ: إنّه قديمٌ. كان على المجاز؛ لأنّ غيره مُحْدَثٌ ليس بقديمٍ»[1].

وقال الشيخ الطريحيّ في مجمعه:

«**القديم**: من أسمائه – تعالى –، وهو الموجود الّذي لم يزل، وإنْ شئتَ فسّرته بالموجود الّذي ليس لوجوده ابتداءٌ... (والله قديمٌ) أي: أنّه سابق الموجودات كلّها»[2].

تجلّيات القديم:

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**قال رأس الجالوت لليهود: إنّ المسلمين يزعمون أنّ عليّاً من أجدل الناس، وأعلمهم، اذهبوا بنا إليه، لعلّي أسأله عن مسألةٍ أخطّئه فيها.**

فأتاه، فقال: يا أمير المؤمنين، إنّي أريد أنْ أسألك عن مسألةٍ.

قال: سَلْ عمّا شئت.

---

(١) التوحيد– الشيخ الصدوق، ص ٢٠٩.

(٢) مجمع البحرين– الشيخ الطريحي ج٦، ص١٣٥.

قال: يا أمير المؤمنين، متى كان ربّنا؟

قال: يا يهوديّ، إنّما يُقال: " متى كان " لِمَنْ لم يكن فكان، هو كائنٌ بلا كينونةٍ، كائن، كان بلا كيفٍ، يا يهوديّ، كيف يكون له قبلٌ وهو قبل القبل؟! بلا غايةٍ، ولا منتهى غايةٍ، ولا غايةٍ إليها غايةٌ، انقطعت الغايات عنه، فهو غاية كلّ غايةٍ.

فقال اليهوديّ: أشهد أنّ دينك الحقّ، وأنّه ما خالفه باطلٌ»[1].

وفي روايةٍ أخرى، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «جاء حبرٌ من الأحبار إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فقال: يا أمير المؤمنين، متى كان ربّك؟

فقال له: ثكلتك أمّك، ومتى لم يكن حتّى يُقال: (متى كان.)؟! ربّي قَبْلَ القَبْل بلا قَبْلٍ، ويكون بَعْد البَعْد بلا بَعْدٍ، ولا غاية ولا منتهى لغايته، انقطعت الغايات عنه، فهو منتهى كلّ غايةٍ».

وقد شرح العلاّمة المجلسيّ مفاد هذه الرواية قائلاً:

«لمّا كان (متى كان) سؤالاً عن الزمان المخصوص من بين الأزمنة لوجوده، ولا يصحُّ فيما لا اختصاص لزمانٍ به، أجابه عليه السلام بقوله: متى لم يكن حتّى يُقال: (متى كان.)؟! ونبّه عليه السلام على بطلان الاختصاص الّذي أُخذ في السؤال.

ثم بيّن عليه السلام سرمديّته، فقال: «كان ربّي قَبْل القَبْل، أي: هو قبل كلّ ما هو قبل شيءٍ، ولا قبل بالنسبة إليه، وبعد كلّ ما هو بعد شيءٍ، ولا شيء بعده، أو: هو قبل

---

(١) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٣، ص٢٨٦، ح٧.

الموصوف بالقبليّة والبعديّة لذاته، أي: الزمان، وبعده بلا زمانٍ؛ إذ هو مبدأ كلّ شيءٍ، وغايةٌ له».

والغاية: نهاية الامتداد، وقد يُطلق على نفس الامتداد، والمعنى: أنّه لا غاية لوجوده وسائر كمالاته أزلاً وأبداً، ولعلّ المراد بها ثانياً نفس الامتداد، أي: ليس لما يتوهّم له من الامتداد نهايةٌ.

ويحتمل أن يكون المراد بها أوّلاً أيضاً الامتداد، فيكون مجروراً، أي: بلا امتداد زمانيٍّ، ويحتمل أنْ يكون المراد بها ثانياً أيضاً: النهاية، أي: كلّ ما توهّمتَ أنّه غايةٌ له فهو موجودٌ بعده، ولا ينتهي إليه وجوده، فكلّ غايةٍ -أي: امتدادٍ أو نهايةٍ- ينقطع عنه؛ لوجوده -تعالى- قبله، وبعده؛ فهو منتهى كلّ غايةٍ، أي: بعدها.

أو هو علّةٌ لها، وإليه ينتهي وجودها، فكيف تكون غايةً له؟! ويحتمل أنْ يكون المراد بالغايات نهايات أفكار العارفين؛ فإنّها منقطعةٌ عنه، لا تصل إليه، وبكونه منتهى كلّ غايةٍ أنّه منتهى رغبات الخلائق وحاجاتهم، ويمكن أنْ يُحمل الغاية في الأخيرتين على العلّة الغائيّة أيضاً، والله يعلم»[1].

العبد والقديم:

العبد بعد أنْ انكشف له معنى القديم سبحانه، وأنّه المتقدّم على كلّ شيءٍ، وقبل أنْ يكون للزمان والمكان معنًى، يقطع أنّه لا يستطيع أنْ يكون له حظٌّ من هذا الاسم على نحو الحقيقة، فإنّ وجوده كان مسبوقاً بوجود غيره، كما أنّ كمالاته

---

(١) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٣، ص٢٨٣- ٢٨٤، ح١.

مسبوقةً بكمالات غيره، مع ذلك تجد أنَّ لهذا العبد حظّاً من هذا الاسم بالمعنى المجازيّ، ما إنْ تخلَّق به كان موجوداً منقطع النظير، يباهي به المولى جلّ وعلا ملائكته، وسكّان سماواته، هو استباق الإنسان نظرائه لنيل أعلا مراتب الكمال العلميّ، والعمليّ، والأخلاقيّ، بل في جميع ميادين الحياة، فيسعى أنْ يكون أوّل من نال شرف هذه الكمالات في زمنه، وسالف الأزمان، فيكون متقدّماً على غيره من بني جلدته ونوعه في تلك الكمالات، ولا يحصل ذلك إلا لمن أصرَّ على الإبحار في بحر العلم، مستهدياً ببوصلة الكتاب والسنّة الشريفتين، متعمّقاً، متأمّلاً، خائضاً في أعماق العلوم، تاركاً الجهل، والكسل، والملل وراء ظهره؛ إذ أنّها مانعةٌ من اكتشاف كنوز العلوم المترسّبة في أعماق كلّ علمٍ وفنٍّ، ولهذا تجد الحثّ جليّاً في الشريعة على التسابق والتنافس، وهذا بعض ما ورد في الكتاب والسنّة الشريفتين:

أ- القرآن الكريم:

هناك دعواتٌ كثيرةٌ من القرآن الكريم للمسلمين للتدبّر والتأمّل فيه وفي خلق الله تعالى، وهو إشارةٌ واضحةٌ إلى مرجوحيّة السير العابر في الآفاق والأنفس؛ إذ أنَّ هذه النظرات العابرة من سنخ نظرة الحيوانات والبهائم، والإنسان أجلّ وأسمى مِن أنْ يقف حدّ كمالاته عندها، بل له ميزةٌ وامتيازٌ عليها، ما إنْ فعَّله وتمسّك به وجد لذلك الأثر المناسب لطيّ مراحل الكمال، والسعادة، وتحصيل كنوز السعادة العلميّة، والعمليّة، وانكشف عنه الحجاب تلو الحجاب من حجب الجهل، وموانع الكمال، إلى أنْ يطأ موضعاً لا يطؤه إلا أصحاب الكمال من أولي الألباب، فيتخلَّق بأخلاق أقرب الناس إلى الله تعالى، وهم الأنبياء، والأئمّة الأطهار عليهم السلام، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي

خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ (٣٥) سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنقَذُونَ (٤٣) إِلاَّ رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (٤٤) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٦٤.

(٢) سورة آل عمران: الآيتان ١٩١،١٩٠.

تُرْحَمُونَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾[4].

ب- السنة الشريفة:

عملاً بأهداف القرآن الكريم تجد المعصومين عليهم السلام أشاروا إلى ما يميِّز الإنسان عن نظرائه، وقد سعوا في هدايتهم إلى الأسلوب الأمثل والأكمل للتسابق والارتقاء، بحيث يرتقي من خلال التسابق، فيكون من صفوة أهل الكمال، يقتدي به كلّ سالكٍ وراغبٍ، ونبّهوا عليهم السلام من الانخداع أو الاكتفاء بظاهر الأمور، أو بنيل بعض الكمالات والاقتناع بها؛ إذ أنَّ ذلك هو حجابٌ كبيرٌ، ومانعٌ من نيل ما هو أرفع منه كمالاً وارتقاءً، فعلى الإنسان الراغب في التخلُّق بأخلاق الله وأخلاق العظماء أنْ ينظر دائماً إلى مَنْ هو فوقه، ويسعى الوصول إليه، ثمّ تجاوزه، والارتقاء أكثر فأكثر،

---

(١) سورة يس: الآيات ٣٣- ٤٥.

(٢) سورة ص: الآية ٢٩.

(٣) سورة الذاريات: الآية ٢١.

(٤) سورة الغاشية: الآيات ١٧- ٢١.

وأنْ يحذر من أنْ ينظر إلى ما دونه، فيفرح بما لديه من قليل الكمال، ويرضى بما يملك، فينتج من ذلك الكسل والخمول، ويخسر المراتب الأعلى والأسمى، ويقف عند أوّل عتبة كمالٍ وسعادةٍ، بخلاف التنافس الشريف، واستباق الخيرات، قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(1).

وقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾(2).

مع هذا الحثّ الأكيد القرآنيّ لا تجد ـ مع الأسف الشديد ـ ظاهرة التسابق الشريف بين المسلمين، فهم ثلّةٌ قليلةٌ، إلا أنّ المشكلة أنّ هؤلاء القلّة تجد الكثير منهم يهتمّون بجانب الكمّ دون الكيف، مع أنّ التأكيد البالغ واردٌ على الكيف أكثر منه على الكمّ.

كما في روايات أهل البيت عليهم السلام، من قبيل ما رُوي عن أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة:

«كم من صائمٍ ليس له من صيامه إلا الظمأ، وكم من قائمٍ ليس له من قيامه إلا السهر والعناء، حبّذا نوم الأكياس، وإفطارهم»(3).

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٤٨.

(٢) سورة الواقعة: الآيات ١٠– ١٤.

(٣) نهج البلاغة – محمد عبده ج ٤، ص ٣٥، الخطبة: ١٤٥.

فإنَّ الاكتفاء ببعض العبادات صورةً، والاستئناس بها دون الاهتمام بجوانبها الأخرى، هو الحاجب والمانع من الارتقاء إلى مدارج الكمال والسعادة، فهي وإن كانت لها ثواب صحّة عبادته وعبوديته لله تعالى، وانقياده له، إلا أنه ليس له حظٌّ من قبول العمل بالمستوى الّذي يجعله يرتقي مدارج الكمال، ويطأ مواطئ الأولياء والكمّل من عباد الله تعالى.

بل إنّ هناك من خدعه إبليس اللعين من حيث لا يدري، وهو يظنّ أنه يحسن صنعاً، وهم أولئك الّذين تمسّكوا ببعض المستحبّات؛ إرضاءً لأنفسهم اللوامة، مع أنّهم يأتون ما لم يأته إبليس اللعين، كمن اكتفى بقراءة القرآن وهو في السرّ والعلن مخالفٌ لأحكامه وقوانينه، غير محاولٍ تطبيق القرآن في حياته ووجوده، فهذا مصداقٌ لما رُوي عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «رُبَّ تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه»[١].

ورُوي أنّه قال صلى الله عليه وآله لأهل الشام: «والله الّذي بعثني بالحقّ، من كان في قلبه آيةً من القرآن، ثمّ صبَّ عليه الخمر، يأتي كلّ حرفٍ يوم القيامة فيخاصمه بين يدي الله عزّ وجلّ، ومن كان له القرآن خصماً، كان الله له خصماً، ومن كان الله له خصماً، كان هو في النار»[٢].

وعنه أنّه قال صلى الله عليه وآله: «ما آمن بالقرآن مَنْ استحلَّ محارمه»[٣].

---

(١) مستدرك الوسائل- الميرزا النوري ج ٤، ص ٢٤٩، ح٢.

(٢) مستدرك الوسائل- الميرزا النوري ج ٤، ص ٢٥٠، ح٤.

(٣) مستدرك الوسائل- الميرزا النوري ج ٤، ص ٢٥٠، ح٦.

ولا يخفى أنّ الاهتمام بجانب الكيف في العمل غير منوطٍ بقراءة القرآن فقط، بل إنّ ذلك سارٍ في جميع العبادات الشرعيّة، ومن جملتها - بل وأهمّها - الصلاة الّتي هي عمود الدين، فعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«إذا كبرتَ فاستصغرْ ما بين العلا والثرى دون كبريائه؛ فإن الله إذا اطّلع على قلب العبد وهو يكبر، وفي قلبه عارضٌ عن حقيقة تكبيره، قال: يا كاذب، اتّخذْ عنّي، وعزّتي، وجلالي، لأحرمنَّك حلاوة ذكري، ولأحجبنَّك عن قربي، والمسارّة بمناجاتي»[(١)].

وهذا الخطاب – وأمثاله - إشارةٌ لأهل القلوب إلى أنَّ الاكتفاء بظاهر الشريعة، وعدم الاهتمام بروحها، وأهدافها المعنويّة، وغيرها، وإن كان مصبّ الثواب الإلهيّ، إلا أنّه سببٌ لحرمان العبد الكثير من الخيرات الّتي دُعِيَ للتسابق فيها، والاستباق إليها، اكتفاءً بالمراتب الدانية، وغفلةً عن المراتب السامية والرفيعة.

---

(١) رسائل الشهيد الثاني– الشهيد الثاني، ص ١٢٦.



الموضوع الخامس والثلاثون:

القُدُّوس

١- العبد والقدُّوس.

٢- الإمام الخمينيّ ﷺ وترك المباحات.

٣- الوحيد البهبهانيّ ﷺ.

٤- ذكر القدّوس.

القُدُّوس

قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾(٢).

قال الغزاليّ:

«**القدُّوس**: هو المنزّه عن كلّ وصفٍ يدركه الحسّ، أو يتصوّره خيال، أو يسبق إليه وهمٌ، أو يختلج به ضميرٌ، أو يقضي به تفكيرٌ.

ولستُ أقول: منزَّهٌ عن العيوب والنقائص، فإنَّ ذكر ذلك يكاد يقترب من ترك الأدب، فليس من الأدب أن يقول القائل: ملك البلد ليس بحائكٍ، ولا حجَّامٍ؛ فإن نفي الوجود يكاد يوهم إمكان الوجود، وفي ذلك نقصٌ.

---

(١) سورة الحشر: الآية ٢٣.

(٢) سورة الجمعة: الآية ١.

بل أقول: القدّوس هو: المنزَّه عن كلّ وصفٍ من أوصاف الكمال، الّذي يظنّه أكثر الخلق؛ لأنَّهم أوّلاً نظروا إلى أنفسهم، وعرفوا صفاتهم، وأدركوا انقسامهما إلى ما هو كمالٌ، ولكنّه في حقّهم، مثل: علمهم، وقدرتهم، وسمعهم، وبصرهم، وكلامهم، وإرادتهم، واختيارهم، ووضعوا هذه الألفاظ بإزاء هذه المعاني، وقالوا: إنَّ هذه أسماء الكمال، وإلى ما هو نقصٌ في حقّهم، مثل: جهلهم، وعجزهم، وعماهم، وصممهم، وخرسهم، فوضعوا بإزاء هذه المعاني هذه الألفاظ، ثمّ كان غايتهم في الثناء على الله – تعالى – ووصفه أنْ وصفوه بما هو أوصاف كمالهم من علمٍ، وقدرةٍ، وسمعٍ، وبصرٍ، وكلامٍ، وأن نفوا عنه أوصاف نقصهم، بل صفة تتصوّر للخلق، فهو منزَّهٌ مقدَّسٌ عنها، وعمّا يشبهها، ويماثلها، ولو لا ورود الرخصة والأدب بإطلاقها لم يجز إطلاق أكثرها...»[1].

وقال الشيخ الصدوق رحمه الله:

«القدّوس معناه: الطاهر، والتقديس: التطهير، والتنزيه، وقوله عزّوجلّ حكايةً عن الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[2] أي: ننسبك إلى الطهارة، ونسبّحك، ونقدّس لك، بمعنى واحدٍ، وحظيرة القدس: موضع الطهارة من الأدناس، الّتي تكون في الدنيا، والأوصاب، والأوجاع، وأشباه ذلك، وقد قيل: إنَّ القدّوس من أسماء الله عزّوجلّ في الكتب.

---

(١) المقصد الأسنى – الغزالي، ص ١١٢– ١١٣.

(٢) سورة البقرة: الآية ٣٠.

العبد والقدّوس:

لا يبلغ الإنسان مقام الاصطفاء والقرب من المولى جلّ وعلا إلا إذا كان مقدَّساً منزَّهاً من العيوب الترابيّة، ومن موانع عالم التراب؛ فهؤلاء المقدَّسون انقادوا لحكم عقولهم القاضية بقباحة تقديم المفضول على الفاضل، والرخيص على الثمين، وتقديم الجاهل على العالم، أو مبادلة الجوهر بالحجر، والمَدَر.

لذا قالوا: والّذي أقبح منه هو الانشغال بالتراب، والأنس به، والتغافل عن ربّ السماء، والاستيحاش منه.

وتراهم قد تعجبوا ممّن يختار الفاني الزائل على النعيم الباقي الدائم، أو من ذاك الّذي ينشغل بأمورٍ تافهةٍ، وقد خُلقوا لأمورٍ عظيمةٍ راقيةٍ، وكيف يهوي إلى التراب، وقد خُلِق كي يطأه بالأقدام؟!

مِن هنا تجدهم أبَوا - كلّ الإباء - أنْ يختاروا ما لا قيمة له في قبال ما لا يُقَدَّر بقيمةٍ وثمنٍ، أو يشاركوا الجهَّال في جهلهم، أو اتّباع الدنيا في سجودهم لها.

نعم، نزَّهوا عقولهم من التفكير في الدنيا وحطامها، وإنْ فكَّروا فيها كان فكرهم لكسب رضى بارئها وخالقها، وإلا فهي لا تساوي عندهم عفطة عنزةٍ(١).

رُوي عن عبد الله بن العبّاس قال: دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام بذي قارٍ، وهو يخصف نعله، فقال لي: «**ما قيمة هذا النعل؟**

---

(١) كما عبّر عنها مولانا أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة الشقشقية، راجع نهج البلاغة - محمد عبده ج ١ ص ٣٧، الخطبة: ٣.

فقلتُ: لا قيمة لها.

فقال عليه السلام: والله لهي أحبّ إليَّ من إمرتكم، إلا أنْ أقيم حقّاً، أو أدفع باطلاً»(١).

فمقام المقدَّسين هو مقام التنزُّه والتطهُّر من رجز المعاصي، ثمّ ارتقوا عن ذلك إلى ترك المكروهات والمباحات، وصيَّروا الدنيا معبراً ومزرعةً للآخرة، وأفنوا حياتهم لله، وفي الله تعالى، ولا شيء سواه، ومَن حظى بحظوهم كان منهم، ومسكنه لا محالة معهم.

الإمام الخمينيّ قدس سره وترك المباحات:

يُنقل عن بعض خواصّ الإمام رحمه الله:

«كان الحرُّ في النجف شديداً جدّاً، وكانت تصل درجة الحرارة أحياناً إلى خمسين درجة، وذات يومٍ ذهبت مع عددٍ من الإخوة للإمام، وقلنا: سيّدنا، الحرّ شديدٌ، وأنت مسنٌّ، وبما أنَّ جوّ الكوفة معتدلٌ فلماذا لا تذهب إليها كما يذهب آخرون؟!

قال في الجواب: وكيف أذهب إلى الكوفة من أجل برودة هوائها وإخواني في إيران في السجن؟!»(٢).

الوحيد البهبهانيّ رحمه الله:

ينُقل عن الشهيد المطهّريّ رحمه الله:

---

(١) نهج البلاغة- محمد عبده ج ١، ص ٨٠، الخطبة: ٣٣.

(٢) سيماء الصالحين، الشيخ رضا مختاري، ص٣٨٤.

«كان للوحيد البهبهانيّ ولدان، محمّد عليّ، ومحمّد إسماعيل، رأى هذا العظيم زوجة ولده ترتدي ثياباً فاخرةً، فاعترض على ابنه: لماذا تشتري لزوجتك مثل هذه الثياب؟!

أجابه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾(١)؟ فهل هذه الثياب حرام؟ ومَن حرّمها؟

قال رحمه الله: ولدي، لا أقول: حرامٌ، بل هي حلالٌ، ولكن أطالبك بذلك بدافعٍ آخر، فأنا مرجع تقليدٍ، وزعيم هؤلاء الناس، وبين الناس يوجد الفقير، والغنيّ المتمكّن، وهناك مَن يلبس مثل هذه الثياب الفاخرة، وأحسن منها، إلاّ أنّ الكثير مِن شرائح المجتمع لا يستطيعون شراء مثل هذه الثياب، وهم يلبسون الكرباس "القماش الرديء".

نحن لا نستطيع أنْ نجعل الناس جميعاً قادرين على ارتداء مثل هذه الثياب الفاخرة، إلا أنّ هناك أمراً نقدر عليه، وهو مساواتهم.

إنّ أعينهم مشدودةٌ إلينا، ينظرون إلينا كقدوةٍ، وعندما تطالب امرأةٌ زوجها الفقير بالثياب الفاخرة وهو لا يستطيع تأمين ذلك لها، فلا أقلّ يجد في سيرتنا ما يسلّيه ويخفّف عنه، فيقول لها: صحيحٌ أنّنا لسنا أغنياء، إلا أنّ وضعنا مثل وضع الوحيد البهبهانيّ، انظري، إنّ زوجة الوحيد -أو زوجة ابنه- تلبس مثلك.

أعوذ بالله من يومٍ يصبح وضعنا الماديّ على ما هو عليه وضع الطبقة المرفّهة

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٣٢.

والثريّة، فيفقد الفقراء المسكن الوحيد لخواطرهم.

لهذا السبب أقول: يجب أن نعيش زهّاداً؛ ليكون زهدنا مواساةً للفقراء»(١).

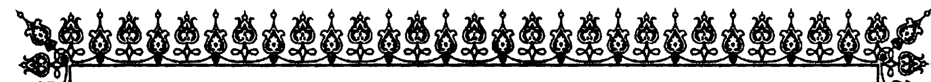
ذِكرُ القدّوس:

ينقل الشيخ الكفعميّ عن البُرسيّ: «القدّوس: ذكره في الجُمَع مائة وسبعين مـرَّةً يطهّر الباطن من الرذائل».

فلا بأس أن يستحضر العبـد معـنى القـدّوس في نفسـه، وقصـص المقدّسـين، ومواقفهم، سـاعياً مـن وراء ذلـك إلى نيـل مراتـب أهـل الكمـال مـن المقدّسـين، والصالحين، من خلال العمل والتأسّي بهم، فيمُنّ الباري عليه بذلك حينما يجد عنده الصدق، والوفاء، والإرادة في سعيه.

---

(١) سيماء الصالحين، الشيخ رضا مختاري، ص٣٩٠.



الموضوع السادس والثلاثون:

القَيُّوم

١- تجلّيات القيُّوم.

٢- العبد والقيُّوم.

٣- ثمار التوجُّه إلى الله تعالى.

أ- الدعاء انقطاعٌ إلى الحيّ القيُّوم.

ب- الذاكر جليس الله تعالى.

حـ- الذاكر يذكره الله تعالى.

د- الذكر نورٌ، وحياةٌ، وجلاءٌ.

٤- ذِكرُ القيُّوم.

القَيُّوم

قال تعالى: ﴿الم (١) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾[(٢)].

قال الفخر الرازيّ في تفسير القيّوم ما يلي:

«اعلم أنَّه لا شكّ في وجود الموجودات، فهي إمّا أنْ تكون بأسرها واجبةً، أو بعضها ممكنٌ، وبعضها واجبٌ، وإمّا ضدّ القسم الأوّل، وهي أنْ تكون كلّها ممكنةً، فهذا محالٌ؛ لأنَّه إذا كان الكلّ ممكناً فقد وجد ذلك الكلّ الممكن لا بسببٍ، وهذا خلفٌ.

والثاني أيضاً محالٌ؛ لأنَّه إذا وجد موجودان واجبان بالذات فقد اشتركا في الوجوب، وتباينا بالتعيّن، فيقع التركيب في ذات كلّ واحدٍ منهما، وكلّ مركّبٍ ممكنٌ، فكلّ واحدٍ منهما ممكنٌ، وهذا خلفٌ.

---

(١) سورة آل عمران: الآيتان ١، ٢.

(٢) سورة طه: الآية ١١١.

فلم يبقَ إلا القسم الثالث، وهو أنْ يكون الواحد واجباً، والباقي ممكناً، فذلك الواحد لكونه واجباً بذاته يكون قائماً بذاته، وغنيّاً عن غيره.

ولمّا كان ما سواه ممكناً، وكلّ ممكنٍ فهو مستندٌ إلى الواجب، وكان كلّ ما سواه مستنداً إليه، وكان هو سبباً لوجود كلّ ما سواه، فكان هو سبباً لتقويم كلّ ما سواه، فثبت أنَّ ذلك الواحد قائمٌ بذاته على الإطلاق، وسببٌ لقوام كلّ ما سواه على الإطلاق، فوجب أنْ يكون قيّوماً؛ لأنّها مبالغةٌ من القيام، وكمال المبالغة إنّما يحصل عند الاستغناء به عن كلّ ما سواه، وافتقار كلّ ما سواه إليه، فثبت بهذا البرهان النيِّر أنّه – سبحانه – هو القيّوم الحقّ بالنسبة إلى كلّ الموجودات.

وإذا عرفتَ هذا فنقول: تأثيره في غيره إمّا أنْ يكون بالإيجاب، أو بالإيجاد، فإنْ كان الأوّل لزم من قدمه قدم كلّ ما سواه، وهو محالٌ، فثبت أنَّ تأثيره في غيره بالإيجاد، والموجد بالقصد والاختيار لا بدّ وأنْ يكون متصوّراً ماهيّة ذلك الشيء الّذي يقصد إلى إيجاده، فثبت أنَّ المؤثر في العالَم فعَّالٌ درَّاكٌ، ولا معنى للحيّ إلا ذاك، فثبت أنّه – سبحانه – حيٌّ، فلهذا قال: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، دلَّ بقوله: ﴿الْحَيُّ﴾ على كونه عالماً، قادراً، وبقوله: ﴿الْقَيُّومُ﴾ على كونه قائماً بذاته، مقوِّماً لغيره، ومن هذين الأصلين تتشعّب جميع المسائل المعتبرة في علم التوحيد»[1].

تجلّيات القيّوم:

واعلم أنّه لما ثبت كونه – سبحانه – قيّوماً فهذه القيُّوميّة لها لوازمُ.

---

(١) شرح الأسماء الحسنى – الفخر الرازي، ص٢٩٣– ٢٩٤.

اللازم الأوّل: أنّ واجب الوجود واحدٌ، بمعنى: أنَّ ماهيّته غير مركّبةٍ من الأجزاء؛ إذ لو كان مركّباً مفتقراً إلى كلّ واحدٍ من تلك الأجزاء، وكلّ واحدٍ من أجزائه غيره، وكلّ مركبٍ فهو متقوِّمٌ بغيره، والمتقوِّم بغيره لا يكون متقوِّماً بذاته، ولا هو مقوِّماً لكلّ ما سواه، فلم يكن قيّوماً على الإطلاق، فإذا ثبت أنَّه – تعالى – فردٌ في ذاته، فهذه الفردانيّة لها لازمان.

أحدهما: أنَّه ليس في الوجود شيئان يصدق على كلّ واحدٍ منهما أنَّه واجبٌ لذاته، وإلا لاشتركا في الوجوب الذاتيّ، وتباينا بالتعيّن، فتقع الكثرة في ذات كلّ واحدٍ منهما.

والثاني: أنَّه – تعالى – لمّا كان فرداً امتنع أنْ يكون متحيّزاً؛ لأنَّ كل متحيّزٍ فهو منقسمٌ بالقسمة المقداريّة عند قومٍ، وبالقسمة العقليّة عند الكلّ؛ لأنَّه يشارك المتحيّزات في كونها متحيّزةً، ويمايزها بخصوصيّةٍ، فيحصل التركيب في الماهيّة، وإذا لم يكن متحيّزاً لم يكن في الجهة ألبتة.

اللازم الثاني من لوازم القيُّوميّة: أنْ لا يكون في محلٍّ، لا عرضاً في موضوعٍ، ولا صورةً في مادّةٍ؛ لأنَّ الحالَّ مفتقرٌ إلى المحلّ، والقيّوم غير مفتقرٍ.

اللازم الثالث: قال بعض المحققين: لا معنى للعلم إلاّ حضور حقيقة المعلوم عند العالم، فإذا كان قيّوماً كان قائماً بنفسه، فكانت حقيقته حاضرةً عنده، وكان عالماً بذاته، وذاته مؤثّراً في غيره، فيعلم من ذاته كونه مؤثّراً في غيره، فيعلم غيره، وهكذا يعلم جميع الموجودات على التركيب النازل من عنده طولاً وعرضاً.

اللازم الرابع: لمّا كان قيّوماً بالنسبة إلى كلّ ما سواه، كان كلّ ما سواه متقوّماً به، أي: موجوداً بإيجاده؛ فافتقار ما سواه إليه لا يمكن أن يكون حال البقاء؛ وإلا لزم إيجاد الموجود، فلم يبقَ إلاّ أنْ يكون إمّا حال الحدوث، أو حال العدم، وعلى كلا التقديرين فكلّ ما سواه محدَث.

اللازم الخامس: لمّا كان قيّوماً بالنسبة إلى كلّ الممكنات، استند كلّ الممكنات إليه، إما بواسطةٍ، أو بغير واسطةٍ، وعلى التقديرين فيلزم استناد أفعال العباد إليه، فكان القول بالقدر لازماً، فظهر أنَّ قوله: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ كالينبوع لجميع مباحث العلم الإلهيّ، فلا جرم بلغت الآيات المشتملة على هذين اللفظين في الشرف إلى المقصد الأقصى.

وإذا عرفتَ هذا: فالقيّوم من حيث إنَّه يدلّ على تقوُّمه بذاته يدلّ على وجوده الخاصّ به، أو على السلب، وهو استغناؤه عن غيره، ومن حيث كونه مقوِّماً لغيره كان من باب الإضافات.

العبد والقيّوم:

فإذا كان القيّوم هو القائم بأمور الخليقة مع استغنائه عنهم، وافتقارهم إليه تعالى، كان حظّ العبد الانقطاع لمن بيده ملكوت السماوات والأرض، وإلى مَنْ يفتقر إليه كلّ شيءٍ، وغناه عن كلّ شيءٍ، فيكون بذلك أغنى الناس، وأكثرهم اتّصافاً وتخلُّقاً بالقيّوم، عزّاً، وشرفاً، وراحةً، وطمأنينةً.

إلا أنّ أكثر البشر– مع الأسف – لشديد أمانيهم وأفكارهم، بل جميع حواسّهم

بالدنيا وأسبابها الظاهريّة، فهيمن عليهم الخوف، والهمّ، والحزن، والكدر، واليأس، وغير ذلك، في حين أن أكثر موارد التأخير والمنع لصالح العبد وهو لا يدري، كما جاء في دعاء الافتتاح: «**فإنْ أبطأ عنّي عتبت بجهلي عليك، ولعلّ الّذي أبطأ عنّي هو خيرٌ لي؛ لعلمك بعاقبة الأمور، فلم أرَ مولىً كريماً أصبر على عبدٍ لئيمٍ منك عليَّ، يا ربّ**»(١).

ولا ينقطع عجبي من غالبيّة العباد، يعرفون أنَّ المعاملة مع الله – تعالى – رابحةٌ لا خسران فيها، وفيها من الراحة والاستقرار والطمأنينة الروحيّة والفكريّة ما لا يوصف، ولا يعرف ذلك إلا مَن تعامل معه سبحانه، ورأى بأنَّ الله جليسه، وأنيسه، ومحدّثه، مع ذلك تجد أنَّ أكثر الناس يتركون التعامل معه سبحانه، وينجرّون وراء ما لا وفاء له ولا خير، وإنْ كان فيه شيءٌ من الخير والبركة فهو راجعٌ للحيّ القيّوم تعالى.

مِن هنا تجد القرآن الكريم – وكذلك المعصومين عليهم السلام – أرشدونا إلى أهمّيّة الارتباط بالله تعالى، وضرورة التمسّك به، وبيَّنوا مضارّ التغافل عنه سبحانه، والارتباط بالغير.

ثمار التوجّه إلى الله تعالى:

نسرد هنا بعض ما ورد في الشريعة في أهمّيّة الذكر الّذي يمثّل جانباً مِن جوانب الارتباط بالله تعالى، ووسيلةً من وسائل الاعتراف والإقرار لله تعالى بالقيّوميّة،

---

(١) مصباح المتهجد– الشيخ الطوسي، ص ٥٦٤، ومفاتيح الجنان– الشيخ عباس القمي.

والاعتراف في نفس الوقت بالنقص والعجز أمام هذا الوجود اللامتناهي للعظمة.

وتتجلّى أهمّيّة الذكر - وسرّ التأكيد عليه في الشرع - لما فيه من الإشارة إلى جهات العظمة، والقدرة والقيّموميّة للباري - تعالى - على لسان أعرف العباد به، من خلال ما يتجلّى في أدعيتهم ومناجاتهم من مفاهيم راقيةٍ عالية المضامين، فينكشف للعبد عظمة الباري من خلال ذلك، كما ينكشف له من مضامين الأدعية والمناجاة، أو من خلال ما يرتفع عنه بعض الحجب حين الأنس بالدعاء، والمناجاة، والعبادة، عن عجزه، وفقره، وحقارته أمام جبّار السماوات والأرض، كما فيه تلقين القلب، وتفهيمه بهذه الحقائق الّتي لطالما كان غافلاً عنها، أو متغافلاً.

وهذا بعض ما ورد من ثمار الدعاء والذكر الذي يجسّد حالة الانقطاع إلى الحيّ القيّوم:

أ- الدعاء انقطاعٌ إلى الحيّ القيّوم:

إنَّ الدعاء يجسّد عملاً حقيقة الارتباط بالحيّ القيّوم، الّذي بيده خزائن السماوات والأرض، والانصراف والزهد في غيره، الّذي لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً، فكيف يملك لغيره؟! جاء في جملة وصايا أمير المؤمنين لابنه الحسن عليه السلام:

«اعلم أنّ الّذي بيده خزائن ملكوت الدنيا والآخرة قد أذن لدعائك، وتكفّل لإجابتك، وأمرك أن تسأله ليعطيك، وهو رحيمٌ كريمٌ، لم يجعل بينك وبينه من يحجبك عنه، ولم يلجئك إلى من يشفع لك إليه، ثمّ جعل في يدك مفاتيح خزائنه بما

أذن فيه من مسألته، فمتى شئت استفتحت بالدعاء أبواب خزائنه»[1].

وهذا تجد أنّ العظماء انقطعوا في طلب حوائجهم - الصغيرة منها والكبيرة- من الحيّ القيّوم، وانقطعوا إليه[2]، ولم يلتفتوا - ولم يبالوا - لما في أيدي الناس؛ إذ سمتهم البارزة البخل والحرص، والجواد منهم لا يجود إلا بالقليل القليل، فتعرّضوا لمن بيده ملكوت السموات والأرض، الجواد، الكريم، والرؤوف، الودود.

وها هو أمير المؤمنين عليه السلام يجسّد ما أوصى به ابنه الحسن، فينشغل بالدعاء، ويكثر منه - كما رُوي عن حفيده الصادق عليه السلام أنّه قال -: «**كان أمير المؤمنين رجلاً دعَّاءً**»[3]، أي: كثير الدعاء والمسألة.

وهكذا كانت سمة إبراهيم الخليل، كما رُوي عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾[4]، فقال: «**الأوَّاه: هو الدعَّاء**»[5]، وهذا رمز من ازداد معرفةً بالله، كما في الغرر عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**أعلم الناس بالله – سبحانه**

---

(١) ميزان الحكمة- الشيخ محمد الري شهري ج ٣، ص٢٤٤- ٢٤٥،ح٥٥١٥. "باب الدعاء".

(٢) فقد ورد أهمية الانقطاع إلى الله في كل صغيرة وكبيرة، كما عن الإمام الصادق عليه السلام: «عليكم بالدعاء؛ فإنكم لا تقربون بمثله، وتتركوا صغيرة لصغرها أنْ تدعوا بها، فإنَّ صاحب الصغار هو صاحب الكبار». ميزان الحكمة – الشيخ محمد الري شهري ج ٣، ص٢٥٢، ح٥٥٧١.

(٣) ميزان الحكمة- الشيخ محمد الري شهري ج ٣، ص ٢٤٦، ح٥٥٣٥.

(٤) سورة التوبة: الآية ١١٤.

(٥) ميزان الحكمة- الشيخ محمد الري شهري ج ٣، ص ٢٤٥، ح٥٥١٦.

- أكثرهم له مسألةً»[١].

ب- الذاكر جليس الله تعالى:

- عن النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله: «قال موسى: يا ربّ، أقريبٌ أنت فأناجيك؟ أم بعيدٌ فأناديك؟ فإنّي أحسُّ صوتك ولا أراك، فأين أنت؟

فقال الله: أنا خلفك، وأمامك، وعن يمينك، وعن شمالك، يا موسى، أنا جليس عبدي حين يذكرني، وأنا معه إذا دعاني»[٢].

أقول: إذا كان الإنسان يفوح منه الطيب والريحان بمجرّد حمله شيئاً منها؛ وما ذلك إلا لكمال المحمول، ويستأنس به كلّ قريبٍ منه، فكيف حال مَنْ جالس مَنْ هو أُسُّ كلِّ الكمالات على الإطلاق، والّذي هو أكرم الأكرمين؟!

جـ- الذاكر يذكره الله تعالى:

من جملة أشرف اللذات الروحيّة للعبد هو استشعاره أنَّ المولى جلّ وعلا خالق السماوات والأرض، يذكره، ويثني عليه، حينما ينشغل العبد بذكره سبحانه، خصوصاً حينما يلتفت إلى أنَّ المولى – سبحانه - يباهي به ملائكته، وسكّان سماواته، فيُعطى من الخيرات والهبات الإلهيّة لهذا العبد ما لا يمكن وصفه أو بيانه،

---

(١) ميزان الحكمة- الشيخ محمد الري شهري ج ٣، ص ٢٤٦، ح٥٥٣٦.

(٢) ميزان الحكمة- الشيخ محمد الري شهري ج ٣، ص ٤١٥.

قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[(١)].

وفي الخبر عن أبي عبد الله عليه السلام: «سجدة الشكر واجبةٌ على كلّ مسلمٍ[(٢)]، تتمّ بها صلاتك، وترضي بها ربّك، وتعجب الملائكة منك، وإنَّ العبد إذا صلّى ثمّ سجد سجدة الشكر فتح الربّ عزّ وجلّ الحجاب بين العبد وبين الملائكة، فيقول:

يا ملائكتي، انظروا إلى عبدي، أدّى فرضي، وأتمَّ عهدي، ثمّ سجد لي؛ شكراً على ما أنعمتُ به عليه، ملائكتي، ماذا له عندي؟!

قال: فتقول الملائكة: يا ربّنا رحمتك.

ثمّ يقول الربّ عزّ وجلّ: ثمّ ماذا له؟!

فتقول الملائكة: يا ربّنا جنّتك.

ثمّ يقول الربّ عزّ وجلّ: ثمّ ماذا؟!

فتقول الملائكة: يا ربّنا كفاية مهمّة.

فيقول الربّ عزّ وجلّ: ثمّ ماذا؟!

قال: ولا يبقى شيءٌ من الخير إلا قالته الملائكة.

فيقول الله عزّ وجلّ: يا ملائكتي، ثمّ ماذا؟! فتقول الملائكة: ربّنا لا علم لنا.

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٥٢.

(٢) تأكيد للاستحباب، أي: كالواجبة في استحقاقها الاهتمام بها. " هامش المصدر".

فيقول الله عزّ وجلّ: أشكر له كما شكر لي، وأقبل إليه بفضلي، وأريه وجهي»[(١)].

ولا يخفى عليك - أيّها العزيز - أنّ الشكر لله – تعالى - نحوٌ من أنحاء الذكر والتوجّه للحيّ القيّوم.

د- الذكر نورٌ، وحياةٌ، وجلاءٌ:

لّما كان الإنسان موجوداً انفعاليّاً، يؤثّر، ويتأثّر، فيتأثّر عقله حينما تعرض الشبهات، وتتلاقح مع الأفكار المضادّة والمنحرفة،ولم يكُ قد تزوّد بسلاح المعرفة والعقيدة، كما يتأثّر حينما يرى مدى اهتمام الناس بالدنيا، وشدّة انكبابهم عليها، فإن ذلك – وغيره - يوجب ضبابيّةً واسوداداً في عقول بعض البشر، هنا يكون الذكر من موارد النجاة والمخرج؛ لأنه نورٌ نيّرٌ للعقل.

وقد تموت النفس حينما لا تُسقى الحكم والمواعظ، ولا تُروى جذورها الروحيّة والمعنويّة من خلال اتّصالها بخالقها ومولاها، بسبب انشغال النفس بالدنيا، وتهيئة أسباب الراحة والنعيم الدنيويّين، فيكون الذكر هنا هو الحياة المفاضة إلى النفس الّتي هي من سنخ الملكوت الأعلى، ونفحةٌ من نفحات الحيّ القيّوم.

وقد يُصاب صدر الإنسان بالسقم بسبب المدّ والجزر الحاصل له في الدنيا من البلايا، والنوائب، والامتحانات الإلهيّة، أو مِن خلال ما يرى نعم الله الّذي خصّ به غيره من عباده، فيكون الذكر من جملة الآليّات والوسائل الشرعيّة الّتي تجلّي الصدر، كما رُوي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**الذكر نور العقول، وحياة النفوس، وجلاء**

---

(١) مَن لايحضره الفقيه- الشيخ الصدوق ج ١، ص ٣٣٣- ٣٣٤، ح٩٧٩.

الصدور»[1].

وعنه عليه السلام: «**مَنْ ذكر الله – سبحانه – أحيا الله قلبه، ونوَّر عقله ولبَّه**»[2].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**بذكر الله تحيي القلوب، وبنسيانه موتها**»[3].

فكلّما ازداد الإنسان ارتباطاً بالله من خلال هذه الوسائل – وغيرها من الوسائل – كان حظّه من القيّوميّة أكثر، وأوفر؛ إذ يزهد بما في أيدي الناس مستغنياً بالله العزيز الجبار، فأقبل على الحيّ القيّوم دون غيره، ويرغب بما عند الحيّ القيّوم.

وقد نقل الفخر الرازيّ عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «**لمّا كان يوم بدرٍ، قاتلتُ شيئاً من القتال، ثمّ جئتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله أنظر ماذا يصنع، فإذا هو ساجدٌ يقول: "يا حيّ، يا قيّوم" لا يزيد عليه، ثمّ رجعتُ إلى القتال، ثمّ جئتُ وهو يقول ذلك، فلا أزال أذهب وأرجع، وأنظره لا يزيد على ذلك، إلى أنْ فتح الله له**»[4].

ذِكرُ القيّوم:

جاء في المصباح للكفعمي – نقلاً عن الشيخ البرسيّ – أنَّ القيوم: «مَن ذكره كثيراً جعل له تصفية القلب، ومَن نقش: (الحيُّ القيوم) على خاتمٍ أحيى الله ذكره،

---

(١) ميزان الحكمة،الشيخ محمد الري شهري ج ٣، ص ٤١٧، ح ٦٣٩٧.

(٢) المصدر السابق ح٧٣٩٩.

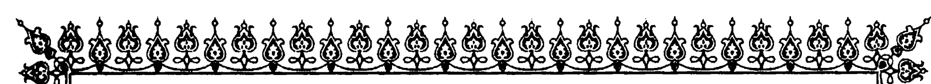
(٣) المصدر السابق ح٦٤٠١.

(٤) شرح الأسماء الحسنى – فخر الرازي، ص٢٩٥– ٢٩٦.

وإنْ كان خاملاً، وأمِنَ خوفه»[١].

---

(١) المصباح– الكفعمي، ص ٤٨٠.



الموضوع السابع والثلاثون:

المُحِيط

١- تجلّيات المحيط.

٢- العبد والمحيط.

٣- وسائل التقرُّب دون كدٍّ أو تعبٍ.

أ- التختُّم باليمين.

ب- دوام الطهارة.

حـ- الارتباط القلبيّ.

المُحِيط

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾[3].

وقال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾[4].

قال الشيخ الصدوق رحمه الله:

«**المحيط**: معناه أنّه محيطٌ بالأشياء، عالمٌ بها كلّها...»[5].

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٩.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٢٠.

(٣) سورة فصلت: الآية ٥٤.

(٤) سورة البروج: الآية ٢٠.

(٥) ذكرنا محل الشاهد فقط، وهذا تتمة كلامه رحمه الله: «المحيط:معناه أنّه محيط بالأشياء، عالم بها كلها، وكل من أخذ شيئاً كله أو بلغ علمه أقصاه فقد أحاط به، وهذا على التوسع؛ لأنَّ الإحاطة في

وقال السيّد عبد الأعلى السبزواريّ رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾:

«**الإحاطة**: هي الإحداق بالشيء، والمراد: الإحاطة من جميع الجهات، علماً وقدرةً، وعذاباً في الدنيا، وعقاباً في الآخرة، ومن حيث الاستدلال والبراهين، ومن حيث الدنيا وجميع العوالم، بل هو محيطٌ بما سواه بكلّ معنى الإحاطة، كما أنَّ المعنى عامٌّ في جميع العصور، من عصر التنزيل إلى يوم القيامة، ولجميع أصناف الكفر وأفراده، وفيه دلالةٌ واضحةٌ على أنّه بعد أحاطته – تعالى – بهم ليس وراء الكفر والنفاق إلا الخزي، والضلال، والهلاك، ومع ذلك يمهلهم.

وإحاطته – تعالى – بما سواه تارةً: إحاطةٌ وجوديّةٌ، وأخرى: علميّةٌ، وثالثةً: فعليّةٌ.

فمِن الأوّل: قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾(١).

ومفهوم الإحاطة والمحاط متقوِّمٌ بالاثنينيّة لغةً وعقلاً، فتوهّم وحدة الوجود من

⬅

الحقيقة إحاطة الجسم الكبير بالجسم الصغير من جوانبه، كإحاطة البيت بما فيه، وإحاطة السور بالمدن، ولهذا المعنى سمي الحائط حائطاً، ومعنى ثانٍ يحتمل أنْ يكون نصباً على الظرف، معناه مستولياً مقتدراً، كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿...وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ...﴾ – (سورة يونس: الآية ٢٢)، فسماه إحاطة لهم لأن القوم إذا أحاطوا بعدوّهم لم يقدر العدو على التخلص منهم». التوحيد– الشيخ الصدوق، ص ٢١٢.

(١) سورة النساء: الآية ١٢٦.

مثل هذه التعبيرات في الآيات المباركة - كما زعم جمعٌ من الفلاسفة والعرفاء - باطلٌ، فضلاً عن وحدة الوجود والموجود - كما زعم جمعٌ من خواصّ العرفاء والفلاسفة-، وسيأتي تفصيل هذه المذاهب وفسادها في محالّها إنْ شاء الله تعالى.

ومن الثاني: قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾[(١)].

وقوله تعالى: ﴿...عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[(٢)]، وهذان القسمان من إحاطته يعمّان جميع ما سواه من أنحاء الممكنات.

وأمّا أحاطته الفعليّة كقوله تعالى: ﴿...وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[(٣)]، فإنْ كان المراد بالفعل: الخلق، والتقدير، فهي تعمُّ جميع ما سواه أيضاً، وإنْ كان المراد بها: رضاه، وسخطه، فالأوّل للمؤمنين، والأخير للكافرين والمنافقين، ومآلهما واحدٌ؛ لأنَّ علمه الأقدس عين ذاته المقدّسة، على تفصيلٍ يأتي في مباحث العلم إنْ شاء الله تعالى»[(٤)].

---

(١) سورة الطلاق: الآية ١٢.

(٢) سورة سبأ: الآية ٣.

(٣) سورة العنكبوت: الآية ٥٤.

(٤) مواهب الرحمن – آية الله العظمى السيد عبد الأعلى السبزواري ج١، ص ١١٧– ١١٨.

تجلّيات المحيط:

عن عمر بن أذينة، عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله عزّ وجلّ: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾(١) قال: «هو واحدٌ، أحديّ الذات، بائنٌ من خلقه، وبذاك وصف نفسه، وهو بكلّ شيءٍ محيطٌ، بالإشراف، والإحاطة، والقدرة، لا يعزب عنه مثقال ذرّةٍ في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك، ولا أكبر، بالإحاطة، والعلم، لا بالذّات(٢)؛ لأنَّ الأماكن محدودةٌ تحويها حدودٌ أربعةٌ(٣)، فإذا كان بالذات لزمه الحواية»(٤).

وفي روايةٍ أخرى: أنّه سُئل أبو عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ﴾(٥):

---

(١) سورة المجادلة: الآية ٧.

(٢) أي: لا يكون معيّته للأشياء بذاته في أماكن الأشياء، وهذا لا ينافي الآيات والأخبار الّتي تدلّ على أنّه – تعالى – بذاته مع كل شيء، وفي كل شيء، بلا كيفية وممازجة؛ لأنَّ المنفي هنا كونه مع الأشياء محاطاً بالمكان، فلا يتوهم أنّه – تعالى – منعزل بذاته عن الأشياء محيط بها علماً وقدرة. " هامش المصدر ".

(٣) الفوق والتحت حدّان، والأمام والوراء، واليمين واليسار؛ لكونهما اعتبارية أيضا حدان. أو جعل الحدود أربعة على ما في أذهان العامة من حدود مساكنهم، فإنَّهم لا يعدون الفوق والتحت من الحدود."هامش المصدر".

(٤) التوحيد– الشيخ الصدوق، ص ١٣١– ١٣٢، ح١٣.

(٥) سورة الأنعام: الآية ٣.

قال: «كذلك هو في كلّ مكانٍ.

قلت: بذاته؟

قال: ويحك، إنَّ الأماكن أقدارٌ، فإذا قلت: في مكانٍ بذاته لزمك أنْ تقول: في إقدارٍ، وغير ذلك(١)، ولكن هو بائنٌ من خلقه، محيطٌ بما خلق، علماً، وقدرةً، وإحاطةً، وسلطاناً، وملكاً، وليس علمه بما في الأرض بأقلّ ممّا في السماء، لا يبعد منه شيءٌ، والأشياء له سواءٌ، علماً، وقدرةً، وسلطاناً، وملكاً، وإحاطةً»(٢).

العبد والمحيط:

إذا كانت طبيعة الإنسان تستنكف وتستقبح أنْ تأتي بأفعالٍ قبيحةٍ بمرأىً وسمعٍ من العقلاء والأشراف، فإنّه ومن باب الأولى والضرورة أنْ يستقبح إتيان ذلك أمام خالق السماوات والأرض، أشرف الموجودات على الإطلاق، وواهب الشرف لها، الّذي لا يعزب عنه مثقال ذرّةٍ في السماوات، ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك، ولا أكبر بالإحاطة والعلم، والأقرب إلينا من حبل الوريد، والعالم بخائنة الأعين، وما تخفي الصدور.

فعلى العبد السالك أنْ يستغرق فكره وهمَّه - بل كلّ طاقات وجوده، وكلّ ما يملك - في الله، وفي كسب مرضاته، ويخاطب نفسه بسلاح العقل والبرهان قائلاً: إنّ الله عَزَّوَجَلَّ لمطّلعٌ على أفعالك، ويسمع أقوالك، ويرى حركاتك، وسكناتك، ثمَّ يحذّرها

(١) من صفات المحدود بالحدود المقدر بالأقدار. " هامش المصدر ".

(٢) التوحيد- الشيخ الصدوق، ص ١٣٢ - ١٣٣، ح١٥.

من مخالفة الله المحيط العليم؛ لأنَّ المعصية والذنب يوجبان الطرد من رحمته تعالى، وسخط العلاَّم عليه؛ لما في ذلك من علامة الاستخفاف بالله الجبَّار.

وجليٌّ أنَّه لا يصدر هذا الفعل إلا مِمَّنْ كان ناقص العقل، قد رُفع عنه القلم؛ لخفَّة عقله، أو من جاهلٍ فاسقٍ لا يعلم مقام الربوبيّة والإحاطة الربّانيّة بعباده، وعظمة خالقه.

وهذان الصنفان ليس ممّن يرغب العبد المؤمن أنْ يكون منهما، أو أنْ يُسرد في قائمتهما، فعليه أنْ يختار موقف الأخيار، ويحذو حذو الصالحين الأبرار بدوام الطاعة، ولزوم الانقياد إليه، واستقباح الانصراف عنه في حضوره، وإحاطته بنا، ولا يكون ذلك إلا بدوام تعليم النفس، وتلقين القلب بما انكشف لك من معنى الإحاطة الربّانيّة بنا.

ثمَّ لا يمنعك - أيّها العزيز - صعوبة بداية الطريق من السير الفعليّ في الطريق، ولا تقل: إنَّه أمرٌ صعبٌ مستصعبٌ؛ إذ أنَّه سرعان ما تنال من حظّ هذا التعليم والتلقين حينما تكون جادّاً ومريداً، فإنَّه ما من أحدٍ تقرّب إلى المولى شبراً إلا تقرّب إليه ذراعاً وميلاً، فتنال بذلك شرف الحضور في مجلس المحبوب، مالك السماء والأرض، وتتنعّم بدوام الأنس به، وهي نعمةٌ لا يعرفها إلا الأوحديّ من البشر، جعلنا الله تعالى منهم.

فإنْ عجزت من ذلك، واستصعبت طريق الأنس والخلوة بالحبيب؛ لضعف الإرادة، أو كثرة الانشغالات الدنيويّة وغير ذلك، فاسعَ - على الأقلّ - أنْ يكون لك حالات مع الباري تناجي بها ربّك بين حينٍ وآخر، مناجاةً قلبيّةً، وفي سرِّك،

واشكُ إليه بُعدَك عنه، وشوقك إليه، مع الابتلاء بضعف الإرادة والهمَّة، عسى أن يمنحك بمنِّه بعض ألطافه الخفيّة.

وإنْ رأيت عجزك حتّى عن هذه المرتبة من الخطابات القلبيّة مع الله تعالى، فاسعَ أنْ تنال شرف دوام العبادة بأمورٍ بسيطةٍ شرّعها الباري – تعالى – إلينا؛ لتقرّبنا إليه زلفى، آناً بعد آنٍ، من غير كدٍّ يُذكر، أو تعبٍ يُلحظ، جوداً منه وكرماً، وإليك بعضها:

أ- التختّم باليمين:

من جملة المستحبّات الثابتة لدى مشهور العلماء - والّتي هي فرصةٌ للعبد ليزداد ثواباً، وأجراً، وتقرّباً إلى الباري من دون تعبٍ - هو التختُّم باليمين، ولذلك فضلٌ وأجرٌ نشير إلى بعضه هنا:

١- عن عليٍّ عليه السلام قال: «**خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وفي يده خاتمٌ فصّه جزعٌ يمانيٌّ، فصلّى بنا فيه، فلمّا قضى صلاته دفعه إليّ، وقال لي: يا عليّ، تختّم به في يمينك، وصلِّ فيه، أما علمت أنّ الصلاة في الجزع سبعون صلاةً؟! وأنّه يسبّح، ويستغفر، وأجره لصاحبه؟!**»(١).

٢- رُوي عن وصيّة النبيّ صلى الله عليه وآله لعليٍّ عليه السلام: «**يا عليّ، تختّم باليمين؛ فإنّها فضيلةٌ من الله عزّ وجلّ للمقرّبين.**

---

(١) وسائل الشيعة – الشيخ الحر العاملي ج ٣، ص ٤٠٧، ح٢.

قال: بمَ أتختّم يا رسول الله؟

قال: بالعقيق الأحمر؛ فإنّه أوّل جبلٍ أقرَّ لله بالربوبيّة، ولي بالنبوّة، ولك بالوصيّة، ولولدك بالإمامة، ولشيعتك بالجنّة، ولأعدائك بالنار»(١).

٣- رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**إذا كان يوم القيامة تقبل أقوامٌ على نجائب من نورٍ، ينادون بأعلى أصواتهم: الحمد لله الّذي أنجزنا وعده، الحمد لله الّذي أورثنا رضاه، نتبوّأ من الجنّة حيث نشاء.**

قال: فتقول الخلائق: إلهنا، وسيّدنا، بمَ نالوا هذه الدرجة؟

فإذا النداء من قِبَل الله عزّ وجلّ: بتختُّمهم باليمين»(٢).

ب- دوام الطهارة:

في حديثٍ عن أنسٍ قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**يا أنس، أكثر من الطهور يزيد الله في عمرك، وإنْ استطعت أنْ تكون بالليل والنهار على طهارةٍ فافعل، فإنّك تكون إذا متّ على طهارةٍ متّ شهيداً»**(٣).

ولا يخفى أنَّ العظماء لا يوصون اعتباطاً، وإنْ أوصوا كشفتْ وصيّتهم عن أمرٍ عظيمٍ، أرادوا إيصاله إلى الموصى إليه، كما في هذا الحديث، حيث يطلب صلّى الله عليه وآله من أنسٍ - وكلّ مَنْ يريد مقام القرب الإلهيّ - أنْ يسعى جاهداً في الكون على الطهارة

---

(١) وسائل الشيعة- الشيخ الحر العاملي ج ٣، ص ٣٩٦، ح٢.

(٢) مستدرك الوسائل- الميرزا النوري ج ٣، ص ٢٩١، ح١٢.

(٣) وسائل الشيعة- الشيخ الحر العاملي ج ١، ص ٣٨٣، ح٣.

بالليل والنهار؛ لما لهذا الأمر من فوائد جمَّةٍ كشف صلى الله عليه وآله عن بعضها في حديثه المتقدّم، حيث أشار إلى استحباب الكون على الوضوء، واستحباب الإكثار منها، وأنَّ لذلك الأثر المناسب في الاستزادة في العمر.

ولعظمة الكون على طهارةٍ يُعطى المتوفّى عليها أجر شهيدٍ، وهي - لعمري - أمنيّةٌ يتمنّاها كلّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ.

إلا أنَّ الحديث الشريف لم يكن في صدد حصر المنافع والآثار المترتّبة على الوضوء، ولهذا تجد مجموعةً من الأخبار أشارتْ إلى الآثار الأخرى المترتّبة على الوضوء، مِن قبيل:

١- إنَّ المتوضِّئ يزداد نوراً وتقرّباً للباري جلّ وعلا، وإنْ كان على وضوءٍ سابقٍ، ففي الخبر: «**الوضوء على الوضوء نورٌ على نورٍ**»[١].

٢- إنَّ تجديد الوضوء بمنزلة تجديد التوبة والعهد مع الله، وقبول الله توبته، كما عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**مَنْ جدّد وضوءه لغير حدثٍ جدّد الله توبته من غير استغفارٍ**»[٢]، فلا معنى لـ «**جدّد الله توبته**» في الرواية إلا احتساب ذلك توبةً مقبولةً من دون استغفارٍ.

٣- الوضوء مُسْتَجْلِبٌ للحبّ الإلهيّ، ونيل القرب لديه، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ

---

(١) وسائل الشيعة- الشيخ الحر العاملي ج ١، ص ٣٧٧، ح٨.

(٢) وسائل الشيعة- الشيخ الحر العاملي ج ١، ص ٣٧٧، ح٧.

يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾[(١)].

٤- الوضوء إكثارٌ للأجر، كما في رواية الأمير عليه السلام: «**الوضوء بعد الطهور عشر حسناتٍ، فتطهّروا**»[(٢)].

٥- احتساب النوم عبادةً ببركة الوضوء، كما رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**من بات على طهرٍ فكأنّما أحيى الليل**»[(٣)]، وهي فرصةٌ ثمينةٌ لجعل ثلث عمر الإنسان - الّذي يقضيه في النوم - على الأقلّ عبادةً وتزلّفاً لله تعالى.

جـ- الارتباط القلبيّ:

لعلّ الجلوس للدعاء، وتهيئة أسبابه ومقدّماته الروحيّة وغير الروحيّة فيه نوع ثقلٍ على بعض النفوس، فتعزف عنها، فتحرم من الدعاء، ولذّة المناجاة، والخلوة به، إلاّ أنَّ هناك أسلوباً آخرَ تستطيع أنْ يجبُرَ الكثير ممّا يفوتك مِن جلسات الدعاء، والذكر، والعبادة، وهو الانشغال القلبيّ مع الله، وشكاية الأمر إليه، وإظهار الشوق إلى لقائه والتفرّد به، وليكن ذلك همّاً تحمله معك في كلّ مكانٍ، وأنْ تخاطبه كلّما وجدت نفسك مهيّئاً لذلك، فإنْ كان ذلك منك فتيقّن الألطاف الإلهيّة عليك؛ إذ من المحال أنْ يرى توجّهك وانشغالك به فيجفوك، أو يحرمك لذيذ مناجاته، أو يطردك من باب جوده وكرمه،كيف وقد قال الباري تعالى: ﴿اذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٠٨.

(٢) وسائل الشيعة- الشيخ الحر العاملي ج ١، ص ٣٧٧ - ٣٧٨، ح١٠.

(٣) وسائل الشيعة- الشيخ الحر العاملي ج ١، ص ٣٧٩، ح٣.

وَخِيفَةً...﴾[1]؟!

وفي الخبر عن زرارة عن أحدهما عليه السلام قال: «**لا يكتب المَلَك إلاّ ما سمع، وقال الله عزّ وجلّ: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً...﴾ ، فلا يعلم ثواب ذلك الذكر في نفس الرجل غير الله عزّ وجلّ؛ لعظمته**»[2].

ورُوي: «**إنّ الله عزّ وجلّ قال لعيسى عليه السلام: يا عيسى، اذكرني في نفسك أذكرك في نفسي، واذكرني في ملا[ك][3] أذكرك في ملاء خيرٍ من ملأ الآدميّين.**

يا عيسى، أَلِنْ لي قلبك، وأكْثِرْ ذكري في الخلوات، واعْلَمْ أنّ سروري أنْ تبصبص[4] إليّ، وكن في ذلك حيّاً، ولا تكن ميتاً»[5].

---

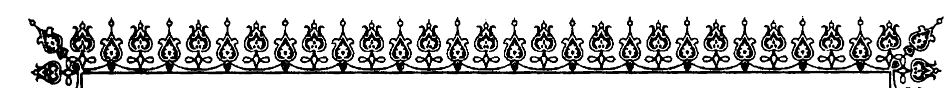
(١) سورة الأعراف: جزء من الآية ٢٠٥. والآية هي: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾.

(٢) الكافي- الشيخ الكليني ج ٢، ص ٥٠٢،ح٤.

(٣) في بعض النسخ [ملئى]. " هامش المصدر ".

(٤) التبصبص: التملق. وتبصبص الكلب بذنبه: إذا حركه، وإنما يفعل ذلك من خوف أو طمع.

(٥) الكافي- الشيخ الكليني ج ٢، ص ٥٠٢،ح٣.



الموضوع الثامن والثلاثون:

كاشِفُ الضُّرِّ

١- تجلّيات كاشف الضرّ.

٢- العبد وكاشف الضرّ.

كاشِفُ الضُّرِّ

قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾(١).

وفي مناجاة التائبين المرويّة عن الإمام زين العابدين عليه السلام:

«يا مجيب المضطرّ، يا كاشف الضرّ، يا عظيم البرّ، يا عليماً بما في السرّ، يا جميل الستر، استشفعتُ بجودك وكرمك إليك...»(٢).

كاشف الضرّ: لم يرد هذا الاسم الشريف بهذا النحو في القرآن الكريم، وإن نسب الباري جلّ وعلا في كتابه المنزل إلى نفسه كشف الضرّ عن عباده، كما ذكرنا مورد ذلك.

نعم، أطلق هذا الاسم المركّب الشريف عليه في كثيرٍ من الأحاديث والروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام، وفي أدعيتهم، ومناجاتهم، من ذلك ما ورد في الحديث النبويّ صلى الله عليه وآله المشهور، الّذي استشهدنا به مراراً، وهو: **«إنّ لله عزّ وجلّ تسعةً وتسعين اسماً، مائةً إلاّ واحداً، مَنْ أحصاها دخل الجنّة، وهي: الله، الإله، الواحد، الأحد،**

---

(١) سورة النحل: الآية ٥٤.

(٢) الصحيفة السجادية — الإمام زين العابدين عليه السلام، مناجاة التائبين، ص ٤٠٣.

الصمد، الأوّل، الآخر،... الكبير، الكافي، كاشف الضرّ»[١].

وورد عن الأصمعيّ أنّه قال: «كنتُ أطوف حول الكعبة ليلةً، فإذا شابٌّ ظريف الشمائل، وعليه ذؤابتان، وهو متعلِّقٌ بأستار الكعبة، ويقول: نامت العيون، وغارت النجوم، وأنت الملك الحيّ القيّوم، غلّقت الملوك أبوابها، وأقامت عليها حرّاسها، وبابك مفتوحٌ للسائلين، جئتك؛ لتنظر إليّ برحمتك يا أرحم الراحمين.

ثمّ أنشأ يقول:

يا من يجيب دعا المضطرّ في الظلم
يا كاشف الضرّ والبلوى مع السقم

قد نام وفدك حول البيت قاطبةً
وأنت وحدك يا قيّوم لم تنم

أدعوك ربّ دعاءً قد أمرت به
فارحم بكائي بحقّ البيت والحرم

إن كان عفوك لا يرجوه ذو سرفٍ
فمن يجود على العاصين بالنعم؟!

قال: فاقتفيتُه، فإذا هو زين العابدين عليه السلام»[٢].

---

(١) التوحيد- الشيخ الصدوق، ص ١٩٤- ١٩٥، ح ٨.

(٢) الصحيفة السجادية (أبطحي)- الإمام زين العابدين عليه السلام، ص ٥١٣- ٥١٤.

وقال الشيخ الصدوق رحمه الله:

«**كاشف الضرّ**: الكاشف معناه: المفرِّج، يجيب المضطرّ إذا دعاه، ويكشف السوء، والكشف في اللغة: رفعك شيئاً عمّا يواريه ويغطّيه»[١].

تجلّيات كاشف الضرّ:

جاء في كتاب الفرج بعد الشدّة ما يلي:

«بلغني أنَّ رجلاً جنى على عهد عبد الملك بن مروان جنايةً، فأهدر دمه، وأمر بطلبه، وأهدر دم من يؤويه، فتحاماه الناس، فكان يأوي الجبال والمفاوز مستخفياً، لا يذكر اسمه، ويُضاف اليوم واليومين، فإذا عُرف طُرد.

فقال الرجل: كنتُ يوماً أسيح في بطن وادٍ، فإذا بشيخٍ أبيض، عليه ثيابٌ بيضٌ، قائمٌ يصلّى، فقمتُ، فصلّيتُ إلى جانبه، فلمّا سلّم قال لي: مَنْ أنت؟

فقلتُ: رجلٌ أخافني السلطان، وقد تحامني الناس، ولم يجرني أحدٌ، فأنا أسيح في هذه البرّيّة خائفاً على نفسي.

قال: فأين أنت من السبع؟

قلتُ: وأيّ سبعٍ؟

قال: «تقول: سبحان الله الواحد، الّذي ليس غيره، سبحان الدائم الّذي لا يعادله شيءٌ، سبحان القائم القديم الّذي لا بدء له، سبحان الّذي يحيي ويميت، سبحان الّذي

---

(١) التوحيد- الشيخ الصدوق، ص ٢١٣.

كلّ يومٍ هو في شأنٍ، الّذي خلق ما يُرى، وما لا يُرى، سبحان الّذي علم كلّ شيءٍ بغير تعليمٍ، اللهم إنّي أسألك بحقّ هذه الكلمات وحرمتهنّ أنْ تفعل بي كذا،وكذا»،فأعادهنّ عليّ حتى حفظتهنّ.

قال الرجل: وفقدتُ صاحبي، فألقى الله عَزَّوَجَلَّ الأمن في قلبي، فخرجتُ من وقتي متوجّهاً إلى عبد الملك بن مروان، حتّى وقفتُ ببابه، واستأذنتُ، فأذن لي، فلمّا دخلتُ قال: أوَ قد تعلّمتَ السحر؟

قلتُ: لا يا أمير المؤمنين، ولكنّه كان من شأني كذا، وكذا، وقصصتُ الخبر، فأمّنني، وأحسن إليّ»[1].

وقال في كتابه:

«أخبرني بعض أصحابنا أنّ صديقاً له من الكتّاب دُفع إلى محنةٍ صعبةٍ، فكان من دعائه: " يا كاشف الضرّ، بك استغاث من اضطرّ "، قال: ورأيتُ نقشه على فصّ خاتمه، وكان يردّد الدعاء به، فكشف الله عَزَّوَجَلَّ محنته عن قربٍ»[2].

وقال أيضاً:

وجدتُ في بعض الكتب أنَّ المهديّ استحضر صاحب شرطته ليلاً، وقد انتبه من منامه فزعاً مرعوباً، فقال: ضع يدك على رأسي، واحلف بما أستحلفك به.

فقال: هي تقصر عن رأس أمير المؤمنين، ولكن عليَّ وعليَّ، وحلف بأيمان

---

(١) الفرج بعد الشدة- القاضي التنوخي ج ١، ص ٥٠- ٥١.

(٢) الفرج بعد الشدة- القاضي التنوخي ج ١، ص ٥٠- ٥١.

البيعة أنّني أمتثل ما تأمرني به.

فقال سر إلى المطمرة، واطلب فلاناً العلويّ الحسينيّ، فإذا وجدتَه فأخرجه، وخيِّره بين الإقامة عندنا مطلقاً مكرّماً محبوراً، أو الخروج إلى أهله، فإنْ أراد الخروج قدّمتَ إليه كذا، وكذا، وإنْ أراد المقام أعطيتَه كذا، وكذا، وهذه توقيعاتٌ بذلك.

قال: فأخذتُها وصرتُ إلى من أزاح علّتي في الجميع، وصرتُ المطبق، فطلبتُ الفتى، فأُخرج إليَّ وهو كالشنّ البالي، فعرَّفته أمر أمير المؤمنين، وعرضتُ عليه الحالين، فاختار الرجوع إلى أهله بالمدينة، فسلّمتُ إليه الصلات والحملان، فلمّا جاء ليمضي قلتُ له: بالّذي فرّج عنك، هل تعلم ما دعا أمير المؤمنين إلى إطلاقك؟

قال: أي والله، كنتُ الليلة نائماً، فرأيتُ النبيّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ في منامي، كأنّه أيقظني وقال:

«أي بنيّ، ظلموك؟!

قلتُ: نعم يا رسول الله.

قال: قم فصلّ ركعتين، وقل بعدهما: «يا سابق الفوت، ويا سامع الصوت، ويا ناشر العظام بعد الموت، صلّ على محمّدٍ وعلى آل محمّدٍ، واجعل لي فرجاً ومخرجاً، إنّك تعلم ولا أعلم، وتقدر ولا أقدر، وأنت علاّم الغيوب، يا أرحم الراحمين».

قال: فوالله لقد قمتُ، وفعلتُ ذلك، وما زلتُ أكرّرها حتّى دعوتني.

قال: فحمدتُ الله عَزَّوَجَلَّ على توفيقي في مسألته، وعدتُ إلى المهديّ وحدّثته بالحديث.

فقال: ويحك، صدقك والله، كنتُ نائماً في فراشي، فرأيتُ في منامي زنجيّاً بعمود حديدٍ، قائماً على رأسي، يقول لي: أطلقْ فلاناً العلويّ الحسينيّ وإلا قتلتُك، فانتبهتُ فزعاً، فوالله ما جسرتُ على العود إلى النوم حتّى جئتني بإطلاقه»»[1].

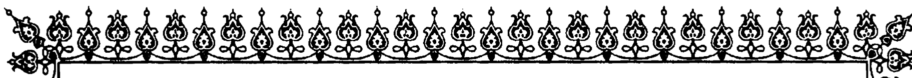
العبد وكاشف الضرّ:

دور العبد من هذا الاسم الشريف واضحٌ وجليٌّ، وهو السعي في رفع الكربات وتنفيسها عن المؤمنين والمسلمين، بل كلّ خلق الله تعالى، فيكون وجوده سحاب رحمةٍ لمن هو حوله، ويعيش في كنفه، وقد بيّنا دور ذلك في مواطن عدّةٍ مِن هذا الكتاب، فراجع[2].

---

(١) الفرج بعد الشدة- القاضي التنوخي ج ١، ص ١٦٥.

(٢) راجع على سبيل المثال العناوين الآتية: الإحسان إلى الشيعة، العبد والسميع، الله حفي يحبّ الحفي، العبد والغياث، وغير ذلك.



الموضوع التاسع والثلاثون:

الوَهَّـــاب

١- تجلّيات الوهّاب.

٢- الإمام الصادق عليه السلام مع مفضّل بن عمر.

٣- العبد والوهّاب.

٤- ذكر الوهّاب.

الوَهَّاب

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾[3].

قال الغزاليّ:

«**الوهّاب**: الهبة هي العطيّة الخالية عن الأعواض والأغراض، فإذا كثرت العطايا بهذه الصفة يُسمّى صاحبُها: جواداً، وهّاباً.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٨.

(٢) سورة ص: الآية ٩.

(٣) سورة ص: الآية ٣٥.

ولن يتصوّر الجود، والعطاء، والهبة حقيقةً إلاّ من الله تعالى؛ فإنّه هو الّذي يعطي كلّ محتاجٍ ما يحتاج، لا لعوضٍ، ولا لغرضٍ عاجلٍ، ولا آجلٍ.

ومن وهب وله في هبته غرضٌ يناله عاجلاً أو آجلاً، من ثناءٍ، أو مدحٍ، أو مودّةٍ، أو تخلّصٍ من مذمّةٍ، أو اكتساب شرفٍ وذكرٍ هو معتاضٌ، ليس بوهّابٍ، ولا بجوادٍ؛ بل كلّ ما ليس بحاصلٍ ويقصد الواهب حصوله بالهبة فهو عوضٌ، فمن وهب وجاد لتشريفٍ، أو ليثني عليه، أو لئلا يذمّ فهو العامل.

وإنّما الجواد الحقّ هو الّذي يفيض منه الفوائد على المستفيد، لا لعوضٍ يعود إليه، بل الّذي يعمل شيئاً لو لم يفعله لقبحٍ به فهو بما يفعله متخلّصٌ، وذلك غرضٌ، وعوضٌ»[1].

تجلّيات الوهّاب:

إنَّ العبد السليم الفطرة ليقشعرّ بدنه، ويذوب قلبه؛ حبّاً وحياءً من الوهّاب الكريم، حينما يتجلّى له بعض مواهب الرحمن عليه، وما أنعم وتفضّل به عليه، وقد يشكّك في اختصاص كلّ النعم به، وأنّه منشأٌ في كلّ ما يراه - وما لا يراه - من النعم، والخيرات، والإفاضات الربّانيّة، إلاّ أنَّ الواقع كذلك، فكلّ ما هو مخلوقٌ من أجلك أيّها العبد، وخُلِقتَ من أجل التخلُّق بأخلاق الله، وتتعالى عمّا سواه.

ويكفي - للإذعان بهذه الحقيقة - أنْ تتأمّل قليلاً في عالم الوجود؛ لتنكشف لك حقيقة ذلك.

---

(١) المقصد الأسنى- الغزالي، ص ١٣٤- ١٣٥.

الإمام الصادق عليه السلام مع مفضّل بن عمر:

«فكّــر يا مفضّل في هذه الأشياء الّتي تراها موجودةً معدّةً في العالم من مأربهم، فالتراب للبناء، والحديد للصناعات، والخشب للسفن وغيرها، والحجارة للأرحاء[١] وغيرها، والنحاس للأواني، والذهب والفضة للمعاملة والذخيرة، والحبوب للغـذاء، والثمار للتفكّه، واللحم للمأكل، والطيب للتلذّذ، والأدوية للتصـحّح[٢]، والـدوابّ للحمولة، والحطب للتوقّد، والرماد للكلس[٣]، والرمل للأرض.

وكم عسى أنْ يحصي المحصي من هذا وشبهه؟! أرأيت لو أنَّ داخلاً دخـل داراً فنظر إلى خزائن مملوءةٍ من كلّ ما يحتاج إليه الناس، ورأى كلّ ما فيها مجموعاً معدّاً لأسبابٍ معروفةٍ، أكان يتوهّم أنَّ مثل هذا يكون بالإهمال ومن غير عمدٍ؟!

فكيف يستجيز قائلٌ أنْ يقول: (هذا من صنع الطبيعة في العالم، وما أعدَّ فيه من هذه الأشياء.)؟!

اعتبر يا مفضّل بأشياءٍ خُلقت لمأرب الإنسان، وما فيها من التدبير، فإنّه خلق له الحبّ لطعامه، وكلّف طحنه، وعجنه، وخبزه، وخلق له الوبر لكسوته، فكلّـف ندفه، وغزله، ونسجه، وخلق له الشجر، فكلّف غرسها، وسقيها، والقيـام عليهـا،

---

(١) الأرحاء: جمع رحى، وهي الطاحونة. " هامش المصدر ".

(٢) التصحح: من صحح المريض: أزال مرضه.

(٣) الكلِس:- بالكسر-: ما يقوم به الحجر والرخام ونحوهما، ويتخذ منها بإحراقها.

وخُلقت له العقاقير لأدويته، فكلّف لقطها[1]، وخلطها، وصنعها، وكذلك تجد سائر الأشياء على هذا المثال.

فانظر كيف كفى الخلقة الّتي لم يكن عنده فيها حيلةً، وترك عليه في كلّ شيءٍ من الأشياء موضع عملٍ وحركةٍ؛ لما له في ذلك من الصلاح؛ لأنّه لو كُفي كلّه حتّى لا يكون له في الأشياء موضع شغلٍ وعملٍ لما حملته الأرض أشراً وبطراً، ولبلغ به ذلك إلى أنْ يتعاطى أموراً فيها تلف نفسه، ولو كُفي كلّ ما يحتاجون إليه لما تهنّؤوا بالعيش، ولا وجدوا له لذّةً...

ألا ترى لو أنّ امرءاً نزل بقومٍ فأقام حيناً بلغ جميع ما يحتاج إليه من مطعمٍ، ومشربٍ، وخدمةٍ، لتبرّم بالفراغ، ونازعته نفسه إلى التشاغل بشيءٍ، فكيف لو كان طول عمره مكفيّاً لا يحتاج إلى شيءٍ؟! فكان من صواب التدبير في هذه الأشياء الّتي خلقتْ للإنسان أنْ جعل له فيها موضع شغلٍ؛ لكيلا تبرمه البطالة؛ ولتكفّه عن تعاطي ما لا يناله، ولا خير فيه أنْ ناله»[2].

وقد قال تعالى مختصراً كلّ ذلك في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[3].

---

(١) اللقط: مصدر من لقط الشيء: أخذه من الأرض بلا تعب. ولقط الطائر الحب: أخذه بمنقاره. " هامش المصدر ".

(٢) التوحيد- المفضل بن عمر الجعفي، ص ٤٤- ٤٥.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٩.

العبد والوهّاب:

لا يكون العبد متألِّهاً فانياً في الله – تعالى – إلاّ إذا سخَّر كلّ ما يملك في طاعة الله ومرضاته، ولم يلتفتْ إلى مدح الناس له، أو الثناء عليه، وغير ذلك من الأغراض والأهداف الدنيويّة الفانية، بل ينزّهها من الأغراض الأخرويّة الأقلّ قيمةً من غيرها، كما لو طلب بعمله الفوز بالجنان، أو الخلاص من النار، وغير ذلك من الأهداف والأغراض.

والعبد المتألِّه في شكرٍ عمليٍّ مستمرٍّ لما أنعم الوهاب المتعالي عليه من النعم الّتي لا تُحصى ولا تُعدّ، من نعمة الوجود، والإيجاد، ومروراً بنعمة الإسلام، والإيمان، والتكليف، أو لما أُعطي من المواهب، والعطايا الفكريّة، والعلميّة، والسجايا الخُلُقيّة، وغيرها.

فيسخِّر كلّ تلك المواهب في طاعة الله تعالى، وخدمة عباده، فهو لا يعرف التعب، أو الكسل، أو السعي وراء الأنا، أو ما يتعلّق بعالم الفناء والزوال.

قال – تعالى – مادحاً إيّاهم: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1].

وقد وصفهم أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة المتّقين قائلاً:

«نفسه منه في عناءٍ، والناس منه في راحةٍ، أتعب نفسه لآخرته، وأراح الناس

---

(١) سورة القصص: الآية ٨٣.

من نفسه، بعده عمّن تباعد عنه زهدٌ ونزاهةٌ، ودنوّه ممّن دنا منه لينٌ ورحمةٌ، ليس تباعده بكبرٍ وعظمةٍ، ولا دنوّه بمكرٍ وخديعةٍ»(١).

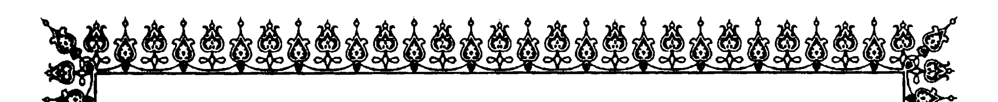
ذِكرُ الوهّاب:

جاء في المصباح للشيخ الكفعميّ نقلاً عن الشيخ البُرسيّ: «**الوهّاب**: مَن ذكره وهو ساجدٌ أربع عشرة مرَّةً أغناه الله تعالى، ومَن ذكره آخر الليل حاسِر الرأس، رافعاً يديه مائة مرَّةٍ أذهب الله تعالى فقره، وقضى حاجته»(٢).

---

(١) نهج البلاغة – محمد عبده ج ٢ ص ١٦٠-١٦٤، خطبة المتقين، الخطبة رقم: ١٩٣.

(٢) المصباح- الكفعمي، ص ٤٧٨.



الموضوع الأربعون:

الوَدُود

١- تجلّيات الودود.

٢- العبد والودود.

أ- أن تحبّ لغيرك ما أحببته لنفسك.

ب- الإيثار.

٣- ذِكرُ الودود.

الوَدُود

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾(٢).

قال الغزاليّ:

«**الودود**: هو الّذي يحبّ الخير لجميع الخلق، فيحسن إليهم، ويثني عليهم، وهو قريبٌ من معنى الرحيم، لكنّ الرحمة إضافةٌ إلى مرحوم، والمرحوم هو: المحتاج والمضطرّ، وأفعال الرحيم تستدعي مرحوماً ضعيفاً، وأفعال الودود لا تستدعي ذلك، بل الإنعام على سبيل الابتداء من نتائج الودّ.

وكما أنَّ معنى رحمته – تعالى – إرادته الخير للمرحوم، وكفايته له، وهو منزَّهٌ عن رقّة الرحمة، فكذلك ودّه، وإرادته الكرامة والنعمة، وهو منزَّهٌ عن ميل المودّة، فالمودّة والرحمة لا تُرادان في حقّ المرحوم والمودود إلا لثمرتهما وفائدتهما، لا للرقّة

---

(١) سورة البروج: الآية ١٤.

(٢) سورة هود: الآية ٩٠.

والميل.

فالفائدة هي لباب الرحمة والمودّة، وذلك هو المتصوّر في حقّ الله تعالى، دون ما هو مقارنٌ لهما، وغير مشروطٍ في الإفادة»[(١)].

تجلّيات الوَدُود:

جاء في الخبر أنَّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِه سأل الله – سبحانه – أنْ لا يحاسب أمّته بحضرةٍ من الملائكة، والرسل، وسائر الأمم؛ لئلا يطّلعوا على عيوبهم، وإنّما يحاسبهم تَعَالَى بمحضر النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِه، فقال الله تَعَالَى:

«يا حبيبي! أنا أرأف بعبادي منك، فإذا كرهتَ كشف عيوبهم عند غيرك فأنا أكره كشفها عندك أيضاً، فأحاسبهم وحدي، بحيث لا يطّلع على عثراتهم غيري»[(٢)].

وعن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِه: **«إنَّ إبراهيم الخليل لمّا رُفع في الملكوت – وذلك قول ربّي** ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾[(٣)] **– قوّى الله بصره لمّا رفعه دون السماء، حتّى أبصر الأرض ومن عليها ظاهرين ومستترين، فرأى رجلاً وامرأةً على فاحشة، فدعا عليهما بالهلاك، فهلكا، ثمّ رأى آخرَيْن، فدعا عليهما بالهلاك، فهلكا، ثمّ رأى آخرَيْن، فدعا عليهما بالهلاك، فهلكا، ثمّ رأى آخرَيْن،**

---

(١) المقصد الأسنى– الغزالي، ص ١٩٥– ١٩٦.

(٢) كلمة الله– الشهيد السيد حسن الشيرازي ص ٥٧.

(٣) سورة الأنعام: الآية ٧٥.

فهَمَّ بالدعاء عليهما بالهلاك، فأوحى الله إليه:

يا إبراهيم، اكفُفْ دعوتك عن عبادي وإمائي، فإنّي أنا الغفور الرحيم، الجبّار الحليم، لا تضرّني ذنوب عبادي، كما لا تنفعني طاعتهم، ولست أسوسهم[1] بشفاء الغيظ كسياستك، فاكفُفْ دعوتك عن عبادي، فإنّما أنت عبدٌ نذيرٌ، لا شريكٌ في المملكة، ولا مهيمنٌ عليَّ[2]، ولا على عبادي، وعبادي معي بين خِلالٍ[3] ثلاثٍ: إمّا تابوا إليَّ فتبتُ عليهم، وغفرت ذنوبهم، وسترت عيوبهم...

يا إبراهيم، فخلِّ بيني وبين عبادي؛ فإنّي أرحم بهم منك، وخلِّ بيني وبين عبادي؛ فإنّي أنا الجبّار، الحليم، العلاّم، الحكيم، أدبّرهم بعلمي، وأنفذ فيهم قضائي وقدري»[4].

العبد والودود:

قال الغزاليّ:

«الودود من عباد الله: مَنْ يريد لخلق الله كلّ ما يريده لنفسه، وأعلى من ذلك مَنْ يؤثرهم على نفسه، كما قال واحدٌ منهم: أريد أنْ أكون جسراً على النار، يعبر عليَّ الخلق، ولا يتأذّون بها.

---

(١) ساس القوم سياسةً: دبرهم، وتولى أمرهم. "هامش المصدر".

(٢) هيمن فلان على كذا: صار رقيبا عليه وحافظا. "هامش المصدر".

(٣) الخلال: الخصال. "هامش المصدر".

(٤) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ١٢، ص ٦٠،ح٥.

وكمال ذلك أنْ لا يمنعه عن الإيثار والإحسان الغضب، والحقد، وما ناله من الأذى، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله - لمّا أكثرتْ قريش إيذاءه وضربه -: «**اللهم اغفر لقومي؛ فإنّهم لا يعلمون**». فلم يمنعه سوء صنيعهم عن إرادته الخير لهم، وكما أمر صلى الله عليه وآله عليّاً حيث قال: «**إنْ أردتَ أنْ تسبق المقرّبين فصِلْ مَنْ قطعك، وأعطِ مَنْ حرمك، واعفُ عمّن ظلمك**»(١).

وحديثنا في جهتين، وهما: أنْ تحبّ لغيرك ما أحببته لنفسك، وإيثار الآخرين على النفس.

أ- أنْ تحبّ لغيرك ما أحببته لنفسك:

من أقلّ مراتب الودّ والحبّ لعباد الله في الله - تعالى - أنْ تحبّ لهم ما أحببته لنفسك، وأردته لها، وأنْ تكره لهم ما كرهته لنفسك، وهذه من أقلّ مراتب حقوق الأخوّة في الله ولله، وهي وصيّة العظماء للعظماء، فقد أوصى أمير المؤمنين ابنه الحسن عليه السلام بهذه الوصيّة، كما في نهج البلاغة:

«**يا بنيّ، اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك، فأحبِبْ لغيرك ما تحبّ لنفسك، واكره له ما تكره لها، ولا تظلم كما لا تحبّ أنْ تُظلم، وأحسِنْ كما تحبّ أنْ يحسن إليك، واستقبِحْ من نفسك ما تستقبح من غيرك، وارضَ من الناس بما ترضاه لهم من نفسك..**»(٢).

---

(١) المقصد الأسنى- الغزالي، ص ١٩٦.

(٢) نهج البلاغة- محمد عبده ج ٣، ص ٣٧- ٤٦، الخطبة: ٣١.

إلاّ أنّه مع تسالم البشر على كمال المتخلّق بهذه الأخلاق، نجد أنّ الغالبيّة الساحقة من البشر بعيدون - تمام البعد - من هذه الأخلاقيّات الإسلاميّة الّتي هي في تعبير الروائيّ أقلّ حقٍّ من حقوق الأخوّة في الإسلام، وإنْ سألت عن منشأ زهد البشر في هذا الأمر، أجبتُك - من دون ترديدٍ - أنّ ذلك راجعٌ لعدّة أمورٍ، منها:

١- حبّ الذات: إذ أنّ مِنْ ترشّحات هيمنة حبّ الذات على الإنسان هو حبّ الاستعلاء على الآخرين، والاستفراد بالكمالات المادّيّة والمعنويّة عليهم، وإرضاء النفس - بل واستلذاذها - بأنّها أعلا درجةً ومنزلةً من الآخرين.

وهنا تكمن الطامّة والداهية العظمى، والمنعطف لهلاك الإنسان؛ إذ أنّ هذا هو المنعطف الّذي أدّى بالشيطان إلى الخروج من رحمة الله الواسعة، بعد تكبّره واستعلائه على أمر الله بالسجود لآدم عليه السلام.

٢- النظرة الخاطئة للدنيا: كثيرٌ منّا - للأسف - يتسابق في الدنيا للدنيا فقط، ونسى - أو تناسى - أنّها دار فناءٍ لا بقاءٍ، والكيِّس من عرف أنّها مزرعة الآخرة، فزرع هنا؛ ليحصد هناك، وبذل من ماله متاجراً مع الله؛ ليربح أضعاف ذلك هناك.

أمّا أولئك الجهّال، فتراهم يتسابقون في الرذائل والمحرّمات من السرقة والغصب، أو هيمنة البخل، والحرص والجزع عليهم، وغير ذلك.

٣- قلّة اليقين بالآخرة: وإلاّ ماذا تفسّر مَنْ يقرأ قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ

وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(١)؟

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(٢)؟

وتجد فيه الكسل، والخمول، والزهد تجاه الاتّجار مع الله تعالى؟!

ب- الإيثار:

الإيثار: هو أنْ تفضّل الآخر على نفسك، وتجعل كفّته هي الراجحة على كفّتك.

والإيثار - كما هو واضحٌ - أعلى مرتبةً من أنْ تحبّ لغيرك ما أحببته لنفسك؛ إذ أنَّ هذا الأخير واردٌ في سياق طلب تساوي كفّتك مع كفّة أخيك المؤمن، والإيثار يطلب منك أنْ تجعل كفّة أخيك هي الأرجح على كفّتك، وتقدِّمه على نفسك.

وهذه سمة الأولياء، ومَنْ هذَّب نفسه، وروَّضها، وأخرج من قلبه العلائق الدنيويّة الفانية، ورغب في المتاجرة مع الله تعالى، من دون أنٍّ يلتفت إلى حمد الحامد، أو مدح المادح وثنائه.

---

(١) سورة البقرة: الآيتان ٢٦٢،٢٦١.

(٢) سورة الصف: الآيتان ١١،١٠.

«والإيثار أحسن الإحسان، وأعلى مراتب الإيمان»[(١)]، كما عن أمير المؤمنين عليه السلام.

فأكثر الناس لا يستطيعون أنْ يؤثروا الآخرين على أنفسهم، وإنْ فعل مرّةً فإنه لا يستطيع التكرار أو المداومة عليها؛ وذلك لوجود الموانع الّتي تمنع من التخلُّق بالإيثار، من قبيل الحرص، أو الخوف من الوقوع في ضائقةٍ، وغير ذلك من التعلُّقات الدنيويّة، والمانع الآخر هو ضعف اليقين بالله تعالى، وجزائه المؤمنين في الدارين.

أمّا الأبرار وأهل الإيمان والكمال فإنَّ هذه الموانع منتفيةٌ عنهم من جذورها، فيستطيعون - وبكلّ يسرٍ وطمأنينة الخاطر - أنْ يؤثروا الآخرين على أنفسهم، ويكون ذلك سجيّةً وطبيعةً فيهم، لذا ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: **«الإيثار شيمة الأبرار»**[(٢)].

وقد ورد عن عائشة أنهاَّ قالت: **«ما شبع رسول الله صلى الله عليه وآله ثلاثة أيّامٍ متواليةٍ حتّى فارق الدنيا، ولو شاء لشبع، ولكنّه كان يؤثر على نفسه»**[(٣)].

واعلم - أيّها العزيز - أنَّ مِن جملة الرياضات الّتي تقلّل من علائق الإنسان بالدنيا وتحرّره منها: مواساتك لأخيك المؤمن، وإيثاره على نفسك، فاسعَ عملاً من التحرر من علائق دار الغرور، برجاء أن يرى منك الباري سعيك العمليّ هذا، فيمُنّ

---

(١) منتخب ميزان الحكمة، الشيخ محمد الري شهري، ص٩، ح ٣.

(٢) منتخب ميزان الحكمة، الشيخ محمد الري شهري، ص٩، ح ٢.

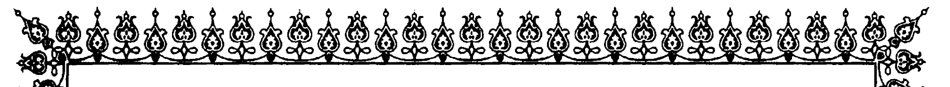
(٣) منتخب ميزان الحكمة، الشيخ محمد الري شهري، ص٩، ح ١٠.

عليك بذلك، إنَّه جوادٌ كريمٌ.

ذكر الوَدُود:

جاء في المصباح للشيخ الكفعميّ نقلاً عن الشيخ البُرسيّ: «**الوَدُود**، مَن تلاه ألف مرّةٍ على طعامٍ، وأطعمه المتباغضَيْن تحابّا»[1].

(١) المصباح- الكفعمي، ص ٤٧٩.



الموضوع الواحد والأربعون:

الهَـــادِي

١- تجلّيات الهادي.

٢- العبد والهادي.

الهَادِي

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿...وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[2].

الهَادي: هذا الاسم الشريف لم يرد في القرآن الكريم بنصّه، نعم، قد أسند الباري –سبحانه– لنفسه الهداية في عديدٍ مِن الآيات، وأخبر بأنّه هادي المؤمنين للصراط المستقيم، كما تبيَّن ممّا اقتبسناه مِن القرآن الكريم.

هذا وقد أثبته الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله –في حديثه المشهور– مِن جملة الأسماء الشريفة الّتي مَنْ أحصاها دخل الجنّة[3]، وبغضّ النظر عن هذا الحديث الشريف، فإنَّ هذا الاسم ممّا تسالم عليه الفريقان على أنّه مِن جملة أسماء الله الحسنى.

---

(١) سورة يونس: الآية ٢٥.

(٢) سورة الحج: الآية ٥٤.

(٣) التوحيد– الشيخ الصدوق، ص ١٩٤.

قال الغزاليّ:

«**الهَـادي:** هو الّذي هدى خواصّ عباده أوّلاً إلى معرفة ذاته، حتّـى استشـهدوا بها على معرفة ذاته، وهدى عوامّ عباده إلى مخلوقاته، حتّى استشهدوا بها على ذاته، وهدى كلّ مخلوقٍ إلى ما لا بدّ منه في قضاء حاجاته. فهدى الطفل إلى الْتقام الثـدي عند انفصاله، والفرخ إلى الْتقاط الحبّ وقت خروجه ؛ والنحل إلى بنـاء بيتـه علـى شكل التسديس؛ لكونه أوفق الأشكال لبدنه وأحواله له.

وشرح ذلك مما يطول، وعنه عبَّر قولـه تعـالى: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾[2]...»[3].

تجلّيات الهادي:

إذا تأمّلنا القرآن الكريم نجد أنّه يبيِّن لنـا عـدَّة أنـواعٍ للهدايـة الإلهيّـة، هـذا ملخّصها:

الأولى- الهدايـة الفطريّـة: يقول الله تعالى - مشيراً إلى ذلـك -: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[4].

---

(١) سورة طه: الآية ٥٠.

(٢) سورة الأعلى: الآية ٣.

(٣) المقصد الأسنى- الغزالي، ص ٢٣٢.

(٤) سورة الروم: الآية ٣٠.

«واعلم أنَّ المقصود مِن "فطرة الله" الّتي فطر الناس عليها هو: الحال والكيفيّة الّتي خلق الناس وهم متّصفون بها، والّتي تعدّ مِن لوازم وجودهم، ولذلك "تخمَّرت" طينتهم بها في أصل الخلق، والفطرة الإلهية مِن الألطاف الّتي خصَّ الله – تعالى – بها الإنسان مِن بين جميع المخلوقات؛ إذ أنّ جميع الموجودات الأخرى – غير الإنسان – إمّا أنّها لا تملك مثل هذه الفطرة المذكورة، وإمّا لها حظّاً ضئيلاً منها...

ولا بدَّ أنْ نعرف أنَّ ما هو مِن أحكام الفطرة لا يمكن أنْ يختلف فيه اثنان، مِن ناحية أنَّها مِن لوازم الوجود، وقد تخمَّرت في أصل الطبيعة والخلقة، فالجميع – مِن الجاهل، والمتوحّش، والمتحضّر، والمدنيّ، والبدويّ – مجمعون على ذلك...

مِن قبيل "الفطرة الّتي تعشق الكمال"، فأنت إنْ تجولّتَ في جميع الأدوار الّتي مرَّ بها الإنسان، واستنطقتَ كلّ فردٍ مِن الأفراد، وكلّ طائفةٍ مِن الطوائف، وكلّ ملّةٍ مِن الملل، تجد هذا العشق والحبّ قد جُبل في طينته، فتجد قلبه متوجّهاً نحو الكمال، بل إنَّ ما يحدِّد الإنسان ويدفعه في سكناته وتحرّكاته، وكلّ العناء والجهود المضنية الّتي يبذلها كلّ فردٍ في مجال عمله وتخصّصه، إنَّما هو نابعٌ مِن حبّ الكمال، على الرغم مِن وجود منتهى الخلاف بين الناس فيما يرونه مِن الكمال، وأين يوجد الحبيب؟ ويشاهد المعشوق؟ كلٌّ يرى الكمال في شيءٍ ويعتقد أنَّه معشوقه، بينما يرى أهل الآخرة، والذكر، والفكر غير ذلك.

وعليه، فجميعهم يسعون نحو الكمال، فإذا تصوّروه في شيءٍ موجودٍ أو موهومٍ تعلَّقوا به وعشقوه، ولكن لا بدّ أنْ نعرف أنهَّ على الرغم مِن هذا الّذي قيل، فإنَّ حبّ هؤلاء – وعشقهم – ليس في الحقيقة لهذا الّذي ظنّوه بأنَّه معشوقهم، وإنَّ ما توهَّموه – وتخيّلوه، ويبحثون عنه – ليس هو كعبة آمالهم؛ إذ لو أنّ كلّ واحدٍ منهم

رجع إلى فطرته لوجد أنَّ قلبه في الوقت الّذي يُظهِر العشق لشيءٍ ما، فإنَّـه يتحـوّل عن هذا المعشوق إلى غيره إذا وجد الثاني أكمل مِن الأول، ثمّ إذا عثر على الأكمـل مِن الثاني ترك الثاني، وانتقل بحبّه إلى الأكمل منه، بل إنَّ نيران عشقه لتزداد اشتعالاً حتّى لا يعود قلبه يلقي برحاله في أيّة درجةٍ مِن الدرجات، ولا يرضـى بحـدٍّ مِـن الحدود.

وهكذا الّذين يرون الكمال في السلطان، والنفوذ، واتّساع المُلـك، يتّجـه حـبّهم واشتياقهم إلى ذلك، فهم إذا بسطوا سلطانهم على دولةٍ واحدةٍ توجّهت أنظارهم إلى دولةٍ أخرى، فإذا دخلتْ تلك الدولة أيضاً تحت سيطرتهم تطلّعت أعينهم إلى أكثـر مِن ذلك، فهم كلّما استولوا على قِطْرٍ، اتّجه حبّهم إلى الاستيلاء على أقطارٍ أخـرى، وقِسْ على ذلك أصحاب الصناعات، ورجال العلم، وغيرهم...

إذن، فَنُور الفطرة قد هدانا إلى أنْ نعرف أنَّ قلوب جميـع أبنـاء البشـر - مِـن أهالي أقصى المعمورة، وسكّان البوادي، والغابات، إلى شـعوب الـدول المتحضّـرة في العالم، وابتداءً بالطبيعيّين، والمادّيّين، وانتهاءً بأهل الملل، والنحـل - تتوجّـه قلـوبهم بالفطرة إلى الكمال الّذي لا نقص فيه، فيعشقون الكمـال الّـذي لا عيـب فيـه، ولا كمال بعده، والعلم الّذي لا جهل فيه، والقدرة الّتي لا تعجز عن شيءٍ، والحياة الّـتي لا موت فيها، أي أنَّ " الكمال المطلق " هو معشوق الجميع...

فهل هناك في جميع سلسلة الكائنـات، أو في عـالم التصـوّر والخيـال، وفي كـلّ التجويزات العقليّة والاعتباريّة، كائنٌ مطلقٌ، ومطلـق الجمـال والكمـال، سـوى الله

تقدّست أسماؤه، مبدأ العالم - جلّت عظمته -؟»[(١)].

يتّضح ممّا اقتطفناه مِن كلام الإمام الخمينيّ رحمه الله أنَّ الفطرة تسوق الإنسان نحو الانجذاب إلى الكمال المطلق، وهو الله تعالى، إلاّ أنَّها لا ترشدنا إلى المصداق الحقيقيّ لهذا الكمال الّذي ليس له مصداقٌ إلا الباري جلّ وعلا، وكذلك لا تدلّنا إلى الطريق الصحيح الّذي يسوقنا للوصول إليه تعالى، لذا دعت الحكمة واللطف الإلهيَّين أنْ يهيِّئ الله تبارك وتعالى لنا نوعاً آخر مِن الهداية، تضمن لنا اختيار المصداق الصحيح للكمال المطلق، وترشدنا إلى الطريق الموصل إليه، وهذا النوع يُسمّى بالهداية التشريعيّة.

الثانية- الهداية التشريعيّة: فهي الهداية الّتي تجيء مِن قبل إنزال الكتب، وإرسال الرسل والأنبياء، وتبليغ المبلّغين والعلماء في كلّ عصرٍ ومصرٍ[(٢)].

وذلك أنّ الأنبياء والأوصياء من خلال تبليغهم رسالة السماء يبيّنون الطريق الأقصر والأقوم المؤدّي إلى رضوان الله تعالى، ونيل القرب منه، فهم الأدلاّء على مرضاة الله مِن خلال تبيينهم الأحكام، والآداب، والعقائد الصحيحة.

وهذا يتجلّى في الخطاب المرويّ عن الرسول الله صلى الله عليه وآله، حيث قال: «... **ما أعلم مِن عملٍ يقرِّبكم إلى الله إلاّ وقد أمرتكم به، ولا أعلم من عملٍ يقرّبكم إلى النار إلا وقد نهيتكم عنه...**»[(٣)].

(١) الأربعون حديثاً، آية الله العظمى الإمام الخميني، ص ١٧٥- ١٧٩.

(٢) تفسير القرآن الكريم- السيد مصطفى الخميني ج ٢، ص ١٠٧.

(٣) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٢٠، ص ١٢٦،ح ٥٠.

الثالثة- الهداية التكوينيّة: بالنسبة إلى الإنسان هي ذلك التوفيق الإلهيّ المترتّب على مجاهدة الإنسان لنفسه، وعمله بما تعلَّمه مِن التكاليف الإلهيّة، حيث إنّه – تعالى – يجعل هذا التوفيق جزاءً للإنسان؛ لاستجابته لداعي الله تعالى، وفي هذا المجال الكثير من الآيات، يقول تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾[1].

أي أنَّ مَن يستجيب للهداية التشريعيّة، ويعمل بمقتضاها، فإنَّه – تعالى – يجزيه على ذلك أنْ يبصّره حقيقة الأمور من خلال الهداية القلبيّة، فيعرّفه الأشياء على حقائقها، فيكون لبّه قد استنار بنور الله تعالى، فصار ملازماً لطاعته، منزجراً عن معصيته، ولا يزال يرتقي حتّى يكون كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ...﴾[2]، وكذلك يقول – تعالى – في الهداية التوفيقيّة أو التكوينيّة: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[3]، وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾[4].

وعلى كلٍّ، فالهداية التكوينيّة لا اختيار للإنسان فيها، وإنْ كان مختاراً في تحصيل مقدّماتها مِن خلال الهداية التشريعيّة، فهي مقدّمةٌ للهداية التكوينيّة[5].

---

(١) سورة التغابن: الآية ١١.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٢٢.

(٣) سورة العنكبوت: الآية ٦٩.

(٤) سورة محمّد: الآية ١٧.

(٥) إشراقات قرآنية- تقرير لدروس آية الله العظمى الشيخ الجوادي الآملي، ص ١٨٥- ١٨٦.

العبد والهادي:

يمكن بيان نصيب العبد وحظّه مِن هذا الاسم الشريف مِن خلال جهتين:

الأولى: اغتنام هذه الهدايات الربّانيّة بالنحو الأمثل والأكمل؛ لينال بذلك سعادة الدنيا والآخرة، فالسعيد - كلّ السعيد - مَن اقتدى بهدي الأولياء، والأنبياء، والقرآن الكريم، واتّخذ هؤلاء دليلاً، ومناراً، وهادياً؛ إذ هؤلاء هم تجلّي – ورمز – التوفيق والسعادة، ففي خطبةٍ لأمير المؤمنين عليه السلام: «**فبعث محمّداً صلى الله عليه وآله بالحقّ؛ ليخرج عباده مِن عبادة الأوثان إلى عبادته، ومِن طاعة الشيطان إلى طاعته، بقرآنٍ قد بيّنه وأحكمه؛ ليعلم العباد ربّهم إذ جهلوه؛ وليقرّوا به إذ جحدوه؛ وليثبتوه بعد إذ أنكروه، فتجلّى – سبحانه – لهم في كتابه مِن غير أنْ يكونوا رأوه، بما أراهم مِن قدرته، وخوّفهم مِن سطوته...**

أيّها الناس، إنّه مَن استنصح الله وُفّق، ومَن اتّخذ قوله دليلاً هُدي للّتي هي أقوم...»[١].

أيّها العزيز، اعلم علم اليقين أنك إنْ لم تكن ممّن يستهدي بنور القرآن والأنبياء والعظماء، فإنّك لا محالة في الطرف المقابل مع الشياطين، والأباليس، والكفّار، والفَجَرة؛ إذ لا يوجد إلا صراطٌ واحدٌ مستقيمٌ، وكلّ ما سواه فهو المنحرف عن ذلك الصراط، وهو نهج – وصراط - الكافرين والضالّين، قال تعالى - مشيراً إلى هذه

⮊

ترجمة وتقرير: العلامة السيد محي الدين المشعل.

(١) نهج البلاغة، محمد عبده، ج ٢، ص ٣٠- ٣١، الخطبة: ١٤٧.

الحقيقة -: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[١].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٢].

فكلّما كان العبد متخلّقاً بنهج القرآن، والعظماء من الأنبياء، والأوصياء، ومن سار على هديهم، كان حظّه من ذلك الاسم- الهادي - أوفر، وكان عند الله أكرم.

الثانية: هداية الخلق إلى الحقّ، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾[٣].

وهذا شرفٌ ليس فوقه شرفٌ للعبد المؤمن في أن يتخلّق بخلق أفضل خلق الله تعالى، وهم الأنبياء، والأوصياء، ومَن حذا حذوهم، ويمتهن مهنتهم، من التبشير، والدعوة إلى سبيل الله، والترهيب، والإنذار من مخالفته عزّوجلّ، قال سبحانه: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[٤].

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٥٣.

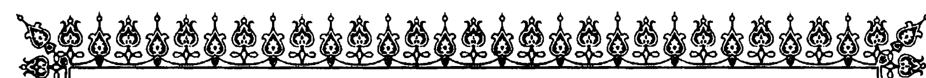
(٢) سورة يوسف: الآية ١٠٨.

(٣) سورة الشورى: الآيتان ٥٢،٥٣.

(٤) سورة الأنعام: الآيتان ٤٨،٤٩.

فالعبد الربَّانيّ هو الكامل من حيث العلم والعمل، فلا العلم يراه تمام الكمال المطلوب، ولا العمل من دون علمٍ هدفه، كما لا يتفرَّد بالعلم أو العمل لنفسه، بل يسعى لتعليم الغير، ورفع الجهل والنقص عند الآخرين قدر المستطاع، كما يسوقهم لتهذيب أخلاقهم وأفعالهم مِن الرذائل والمعاصي؛ ليصلوا إلى ساحل وبرّ الأمان.

وهذا ما ذكرناه سابقاً، وسيأتي لاحقاً.



الموضوع الثاني والأربعون:

الوَفِيّ

١- تجلّيات الوفيّ.

٢- العبد والوفيّ.

أ- الوفاء بعهود الناس.

ب- الوفاء بالعهد الإلهيّ.

الوَفِيّ

قال تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[2].

«الوفيّ: هذا الاسم الشريف لم يرد في القرآن الكريم بنصّه، ككثيرٍ من أسماء الله الحسنى الّتي أشرنا إلى بعضها في السابق، إلاّ أنّه واردٌ في خطابات المعصومين عليهم السلام وأدعيتهم، وهو كافٍ في إثبات نسبة هذا الاسم لله تعالى، ومن جملة ما يمكن الاستشهاد به هو وروده في الحديث النبويّ المشهور المتقدّم مراراً، حيث عدّه صلى الله عليه وآله من جملة الأسماء الّتي من أحصاها دخل الجنّة»[3].

---

(١) سورة البقرة: الآية ٤٠.

(٢) سورة التوبة: الآية ١١١.

(٣) عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن لله تبارك وتعالى تسعة وتسعين اسماً،

كما ورد في دعاء المجير، والجوشن[1].

الوفيّ: من الوفاء، أي أنّه – سبحانه – يفي بما وعد وعاهد عباده، من دون أنْ ينقصهم شيئاً، ويبلّغهم تمام ما وعدهم، بل فوق ما يرجون وما يتصورون؛ جوداً منه وكرماً.

وضدّ الوفاء: الغدر، وهو قبيحٌ إذا صدر من الإنسان الّذي يعلوه الاحتياج والفقر من كلّ حدبٍ وصوبٍ، فكيف بالله العظيم، الغنيّ من كلّ نقصٍ أو حاجةٍ في ذاته، وأفعاله، وصفاته؟! لذا فقد ورد الاستفهام الاستنكاريّ في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾، أي: لا أحد على الإطلاق أوفى بما وعد وعاهد من الله تعالى.

ومن أعظم صور العطف والتحنُّن الإلهيّ على العباد أنْ أوجب على نفسه الوفاء بما عاهد عباده، ويجزيهم الجزاء الأوفى؛ وما ذلك إلا ليزدادوا رغبةً في العبادة، والطاعة، والانقياد لتعاليم ربّ السماء، وإلا فإنَّه على العبد – بقطع النظر عن العطاء الإلهيّ الأخرويّ – أنْ يطيع الله تعالى؛ شكراً لأنعمه الكثيرة الوافرة عليه؛ أو لدفع ما يتعرّض له من العذاب حين المخالفة والعصيان؛ أو لتعلّقه وانجذابه لكمالات الباري،

مائة إلا واحداً، مَن أحصاها دخل الجنة، وهي: الله، الإله، الواحد، الأحد، الصمد، الأول،...الوفي... » التوحيد- الشيخ الصدوق، ص ١٩٤،ح٨.

(١) ورد في دعاء الجوشن: « يا من هو في عهده وفي، يا من هو في وفائه قوي...».مفاتيح الجنان، ص٢٠١. وفي دعاء المجير:«... سبحانك يا وفي، تعاليت يا قوي، أجرنا من النار يا مجير». مفاتيح الجنان ص ١٨٨.

الّتي لا حدّ لها ولا مقدار.

تجلّيات الوفيّ:

للوفاء الإلهيّ صورٌ وأنحاءٌ متعدّدةٌ ومختلفةٌ باختلاف ما أعدَّ الله – تعالى – لعباده في مواطن مختلفةٍ، وموارد مختلفةٍ. نشير إلى جانبٍ يسيرٍ من ذلك؛ ليزداد العبد شوقاً وقرباً من الله الوفيّ الكريم:

أ- جزاء الحبّ والتآزر في الله تعالى:

عن رسول الله صلى الله عليه وآله – في حديثٍ – قال: «**إذا كان يوم القيامة ينادي منادٍ من الله عزّ وجلّ، يسمع آخرهم كما يسمع أوّلهم، فيقول: أين جيران الله جلّ جلاله في داره؟**

فيقوم عنقٌ من الناس، فتستقبلهم زمرةٌ من الملائكة، فيقولون: ما كان عملكم في دار الدنيا فصرتم اليوم جيران الله تعالى في داره؟

فيقولون: كنّا نتحابّ في الله، ونتوازر في الله تعالى.

قال: فينادي منادٍ من عند الله تعالى: صدق عبادي، خلّوا سبيلهم، فينطلقون إلى جوار الله في الجنّة بغير حساب، ثمّ قال أبو جعفر عليه السلام: فهؤلاء جيران الله في داره، يخاف الناس، ولا يخافون، ويُحاسب الناس، ولا يُحاسبون»[1].

---

(١) وسائل الشيعة – الشيخ الحر العاملي ج ١٦، ص ١٧٠، ح١٥.

ب- ادعوني استجب لكم:

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**إنَّ المؤمن ليدعو الله عزّ وجلّ في حاجته، فيقول الله عزّ وجلّ: أخّروا إجابته. شوقاً إلى صوته ودعائه، فإذا كان يوم القيامة قال الله عزّ وجلّ: عبدي، دعوتني فأخَّرتُ إجابتك، وثوابك كذا، وكذا، ودعوتني في كذا وكذا، فأخّرتُ إجابتك، وثوابك كذا، وكذا، قال: فيتمنّى المؤمن أنّه لم يستجب له دعوةً في الدنيا ممّا يرى من حسن الثواب**»(١).

ج- إنما يوفّى الصابرون:

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**إذا كان يوم القيامة يقوم عنقٌ من الناس، فيأتون باب الجنّة، فيُقال: مَنْ أنتم؟**

فيقولون: نحن أهل الصبر، فيُقال لهم: على مَ صبرتم؟

فيقولون: كنّا نصبر على طاعة الله، ونصبر عن معاصي الله.

فيقول الله عزّ وجلّ: صدقوا، أدخلوهم الجنّة. وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٢)»(٣).

---

(١) وسائل الشيعة- الشيخ الحر العاملي ج ٧، ص ٦٢، ٥.

(٢) سورة الزمر: الآية ١٠.

(٣) وسائل الشيعة- الشيخ الحر العاملي ج ١٥، ص ٢٣٦، ح١.

د- الرسول ﷺ وردّ المعروف:

عن الصادق عليه السلام: «إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: أيّها الخلائق، أنصتوا؛ فإنّ محمّداً ﷺ يكلّمكم، فتنصت الخلائق، فيقوم النبيّ ﷺ، فيقول: يا معشر الخلائق، مَنْ كانت له عندي يدٌ، أو منّةٌ، أو معروفٌ فليقم؛ حتّى أكافئه.

فيقولون: بآبائنا وأمّهاتنا، وأيّ يدٍ، أو أيّ منّةٍ، وأيّ معروفٍ لنا؟! بل اليد، والمنّة، والمعروف لله، ولرسوله على جميع الخلائق.

فيقول لهم: بلى، مَنْ آوى أحداً من أهل بيتي، أو برّهم، أو كساهم من عرىً، أو أشبع جائعهم، فليقم حتّى أكافئه، فيقوم أناسٌ قد فعلوا ذلك، فيأتي النداء من عند الله تعالى: يا محمّد، يا حبيبي، قد جعلتُ مكافأتهم إليك، فأسكنهم من الجنّة حيث شئتَ.

قال: فيسكنهم في الوسيلة، حيث لا يحجبون عن محمّدٍ وأهل بيته عليهم السلام»(١).

هـ- فيوضات شهر رمضان:

عن عبد الله بن العبّاس بن عبد المطّلب، أنّه سمع النبيّ ﷺ يقول: «إنّ الجنّة لتنجد، وتزيّن من الحول إلى الحول؛ لدخول شهر رمضان، فإذا كان أوّل ليلةٍ منه هبّت ريحٌ من تحت العرش، يُقال لها: المثيرة. تصفق ورق أشجار الجنان، وحلق

---

(١) وسائل الشيعة- الشيخ الحر العاملي ج ١٦، ص ٣٣٣، ح٣.

المصاريع[1]، فيُسمع لذلك طنينٌ لم يسمع السامعون أحسن منه، ويبرزن الحور العين، حتّى يقفن بين شرف الجنّة، فينادين: هل مِنْ خاطبٍ إلى الله فيزوّجه؟ ثمّ يقلن: يا رضوان، ما هذه الليلة؟

فيجيبهنّ بالتلبية، ثمّ يقول: يا خيّراتٍ حسانٍ، هذه أوّل ليلةٍ من شهر رمضان، قد فُتحت أبواب الجنان، للصائمين من أمّة محمّدٍ صلّى الله عليه وآله.

ويقول له عزّوجلّ: يا رضوان، افتح أبواب الجنان، يا مالك، أغلق أبواب جهنّم، عن الصائمين من أمّة محمّدٍ صلّى الله عليه وآله، يا جبرئيل، اهبط إلى الأرض، فصفّد مردة الشياطين، وغلّهم بالأغلال، ثمّ اقذف بهم في لجج البحار؛ حتّى لا يفسدوا على أمّة حبيبي صيامهم.

قال: ويقول الله عزّوجلّ في كلّ ليلةٍ من شهر رمضان ثلاث مرّاتٍ: هل من سائلٍ فأعطيه سؤله؟! هل من تائبٍ فأتوب عليه؟! هل من مستغفرٍ فأغفر له؟! من يقرض المليّ غير المعدم؟ الوفيّ غير الظالم، قال: وإنّ لله في آخر كلّ يومٍ من شهر رمضان عند الإفطار ألف ألف عتيقٍ من النار، فإذا كانت ليلة الجمعة، ويوم الجمعة، أعتق في كلّ ساعةٍ منها ألف ألف عتيقٍ من النار، وكلّهم قد استوجب العذاب، فإذا كان في آخر شهر رمضان، أعتق الله في ذلك اليوم بعدد ما أعتق من أوّل الشهر إلى آخره، فإذا كانت ليلة القدر، أمر الله عزّوجلّ جبرئيل، فهبط في كتيبةٍ من الملائكة إلى الأرض، ومعه لواءٌ أخضر، فيركز اللواء إلى ظهر الكعبة، وله ستمائة جناحٍ، منها

---

(١) مصراعا الباب: بابان منصوبان، ينظمان جميعا، مدخلهما في الوسط (لسان العرب ج ٨، ص ١٩٩). "هامش المصدر".

جناحان لا ينشرهما إلاّ في ليلة القدر، فينشرهما تلك الليلـة، فيجـاوزان المشـرق والمغرب، ويبيت جبرئيل والملائكة في هذه الليلة، فيسلّمون على كلّ قائمٍ، وقاعدٍ، ومصلٍّ، وذاكرٍ، ويصافحونهم، ويؤمّنون على دعائهم، حتّى يطلع الفجر، فإذا طلع الفجر نادى جبرئيل: يا معشر الملائكة، الرحيل، الرحيل. فيقولون: يـا جبرئيـل، فماذا صنع الله – تعالى – في حوائج المؤمنين من أمّة محمّدٍ صلّى الله عليه وآله؟

فيقول: إنّ عزّ وجلّ نظر إليهم في هذه الليلة، فعفا عنهم، وغفر لهم، إلاّ أربعةً، قال: فقـال لهـم رسـول الله صلّى الله عليه وآله: مـدمن الخمـر، والعـاقّ لوالديـه، والقـاطع الـرحم، والمشاجن[1]، فإذا كانت ليلة الفطر – وهي تُسمّى ليلة الجوائز – أعطى الله تعـالى العاملين أجرهم بغير حسابٍ، فإذا كانت غداة يوم الفطر، بعث الله الملائكة في كـلّ البلاد، فيهبطون إلى الأرض، ويقفون على أفواه السكك، فيقولون: يا أمّـة محمّـدٍ، اخرجوا إلى ربٍّ كريمٍ، يعطي الجزيل، ويغفر العظيم، فإذا برزوا إلى مصلاّهم قـال الله عزّ وجلّ للملائكة: ملائكتي، ما جزاء الأجير إذا عمل عمله؟! قال: فتقول الملائكة: إلهنا، وسيّدنا، جزاؤه أنْ توفي أجره.

قال: فيقول الله عزّ وجلّ: فإنّي أشهدكم ملائكتي، إنّي قد جعلتُ ثوابهم من صيام شهر رمضان، وقيامهم فيه، رضائي، ومغفرتي، ويقول: يا عبادي سلوني، فوعزّتي، وجلالي، لا تسألوني اليوم في جمعكم لآخرتكم ودنياكم إلاّ أعطيتكم.

وعزّتي لأسترنّ عليكم عوراتكم ما راقبتموني.

---

(١) في المصدر: والمشاحن، والظاهر هو الأصح. المشاحن: من الشـحناء، وهـي العـداوة والبغضـاء (مجمع البحرين ج ٦ ص ٢٧١). "هامش المصدر".

وعزَّتي لآجرنكم ولا أفضحكم بين يدي أصحاب الحدود، انصرفوا مغفوراً لكم، قد أرضيتموني، ورضيتُ عنكم، قال: فتفرح الملائكة، وتستبشر، ويهنّئ بعضهم بعضاً، بما يعطي هذه الأمّة إذا أفطروا»(١).

و- جزاء التختّم باليمين:

عن الإمام الصادق عليه السلام: قال: «إذا كان يوم القيامة، تقبل أقوامٌ على نجائب من نورٍ، ينادون بأعلى أصواتهم: الحمد لله الّذي أنجزنا وعده، الحمد لله الّذي أورثنا أرضه، نتبوّأ من الجنّة حيث نشاء.

قال: فتقول الخلائق: إلهنا، وسيّدنا، بمَ نالوا هذه الدرجة؟ فإذا النداء من قبل الله عزّ وجلّ: بتختّمهم باليمين»(٢).

ز- جزاء صلاة الليل والشكر:

عن أسماء بنت عميس، قالتْ: سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول: «إذا كان يوم القيامة - وعرضت الخلائق في الموقف - ينادي منادٍ من قبل ربّ العزّة، نداءً يسمعه أهل الجمع كلّهم: ليقم الّذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع، فتقوم شرذمةٌ قليلةٌ، ثمّ ينادي المنادي: ليقم الّذين كانوا يشكرون الله في السرّاء والضرّاء، فتقوم شرذمةٌ قليلةٌ، فيذهب بالفريقين إلى الجنّة، ثمّ يأمر الله - تعالى - بحساب

---

(١) مستدرك الوسائل- الميرزا النوري ج ٧، ص ٤٢٩- ٤٣٠، ح١٣.

(٢) مستدرك الوسائل- الميرزا النوري ج ٣، ص ٢٩١- ٢٩٢، ح١٢.

الخلائق»[١].

يكشف هذا الخطاب أنَّ أصحاب القيّام في جوف الليل - والناس نيامٌ - لهم منزلةٌ وشأنٌ عند الله، بحيث يأبى الله – تعالى - أنْ يساويهم مع سائر الناس، فإنَّه – سبحانه - يدخلهم الجنّة من دون حسابٍ، ثمّ يشرع في محاسبة الناس، فيحاسبهم على كلّ كبيرةٍ وصغيرةٍ، وهذا شأن من شكر الله في السرّاء والضرّاء أيضاً. رزقنا الله تعالى مقامهم، آمّين ربّ العالمين.

العبد والوفيّ:

يمكن بيان حظّ العبد من هذا الاسم الشريف في جهتين على أقل تقديرٍ؛ الوفاء بعهود الناس، والوفاء بالعهد الإلهيّ.

أ- الوفاء بعهود الناس:

دَيدَن العقلاء – وسيرتهم - جاريةٌ على الوفاء بالعهود والمواثيق الّتي تكون بينهم، ويستقبحون تصرّف مَنْ يسعى للاستخفاف بتلك العهود، أو لا يلتزم - عملاً - بما عاهد الآخرين به، كما أنَّهم يمتدحون - في الجهة المقابلة- مَنْ يفي بعهده ووعده، فالوفاء بالعهد والوعد من جملة الأركان الرئيسيّة الّتي تُبتنى عليها الحياة الإنسانيّة، وتتكامل وترتقي إلى الأكمل والأفضل، فمِن خلاله أمكن التعامل والتعايش مع الآخرين، ومن خلال تبادل الثقة واحترام المواثيق ساد النظام

(١) مستدرك الوسائل- الميرزا النوري ج ٦، ص ٣٣٩، ح ٣٥.

والاستقرار بينهم، وأمّا إذا انتشر بينهم عدم الوفاء بالعهود والمواثيق، تجد تعطّل الكثير من العقود، والمشاريع الاقتصاديّة، والسياسيّة، والاجتماعيّة، وغير ذلك، فلا يأمّن بعضنا البعض؛ خشية عدم وفاء الآخرين له، فتعمّ الفوضى، ويسود الهرج والمرج بينهم، يختلّ جزءٌ من النظام الإنسانيّ، لذلك تجد أنَّ الشارع الأقدس قد جرى على وفق ما كان عليه العقلاء؛ لما في الوفاء بها من خيرٍ يعود على الفرد والمجتمع الإنسانيّ، فمدح من اتّصف بالوفاء، وذمَّ منْ استخفّ به، وهذا بعض ما ورد:

قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾(١).

وقال سبحانه: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾(٢).

وقال ﷻ: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾(٣).

فهذه بعض الآيات الدالّة على أهمّيّة الالتزام بالعهود والوفاء بها، وأنّ العبد لمسؤولٌ ومحاسبٌ على الوفاء بالعهد، والعمل على خلافه، ونكثه، ومطالبٌ بالوفاء به، وقد أشار المولى في الآية الأخيرة إلى أنَّ الوفاء مِن خُلُق المتّقين، وأنه -سبحانه- يحبّ المتّقين المتّصفين بالوفاء للعهود والمواثيق.

---

(١) سورة النحل: الآية ٩١.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٣٤.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٧٦.

وترى المعصومين عليهم السلام سعَوْا في بيان أهمّيّة موضوع الوفاء والاهتمام به، فمدحوا المتخلّق به، وذمّوا المتخلّف عنه، عسى أنْ يعود المسلم إلى رشده، ويفي بما التزم به وعاهد، ونشير هنا إلى روايتين اختصاراً:

١- عدم الوفاء علامة المنافق: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ثلاثٌ مَنْ كنّ فيه كان منافقاً، وإنْ صام، وصلّى، وزعم أنّه مسلمٌ: مَنْ إذا ائتُمِنَ خان، وإذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، إنّ الله عزّ وجلّ قال في كتابه:** ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾[١]**، وقال:** ﴿...أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[٢]**، وفي قوله:** ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا﴾[٣]»[٤].

ونلاحظ أنّ صفات المنافق الثلاث المتقدّمة تتمحور في عدم الوفاء:

أمّا الأولى: فلأنّ المؤتَمَن إنّما تُعطى له الأمانة على أنْ يفي بها متى ما طلب منه صاحبها، أي: لو لا التعهّد المقاليّ - أو الحاليّ - بإرجاع الأمانة لصاحبها، ووفائه له، لما أُعطي الأمانة، فالمؤتَمَن حينما لا يفي بما اتُّفق عليه يكون خائناً.

وأمّا الثانية: فإنّ تباني العقلاء في محاوراتهم أنْ لا يتحدّثوا إلا الصدق وما طابق الواقع، ولذا يحملون المتكلّم على الصدق في كلّ حواراتهم وخطاباتهم، والكذّاب لا

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٥٨.

(٢) سورة النور: الآية ٧.

(٣) سورة مريم: الآية ٥٤.

(٤) وسائل الشيعة- الشيخ الحر العاملي ج،١٥ ص ٣٣٩، ح٤.

يفي للمخاطب بما عليه العقلاء، فيخبر بما هو خلاف الواقع، ويكذب.

وأمّا الثالثة: فواضحةٌ جدّاً، حيث " الوعد " اتّفاقٌ على الوفاء بأمرٍ من الأمور، وهنا هذا المنافق لا يفي بما وعد واتّفق عليه مع صاحبه.

٢- الوفاء من علامة المؤمن: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**قام رجلٌ يُقال له: همّام - وكان عابداً، ناسكاً، مجتهداً - إلى أمير المؤمنين عليه السلام وهو يخطب، فقال: يا أمير المؤمنين، صِفْ لنا صِفة المؤمن كأنّنا ننظر إليه.**

فقال: يا همّام، المؤمن هو الكيّس الفطن، بشره في وجهه، وحزنه في قلبه، رصين الوفاء...»(١).

تكشف هذه الرواية أنّ المؤمن لا يتهاون -ولو بمقدار أنملةٍ- فيما وعد أو عاهد به غيره، فيقف بأقدامٍ من حديدٍ ثابتةٍ رصينةٍ، بالالتزام والوفاء بما عاهد والوفاء به.

ب- الوفاء بالعهد الإلهيّ:

تشتدّ وقاحة عدم الوفاء بالعهود والمواثيق عند العقلاء، حينما يكون المخالف والناكث حقيراً، والطرف المقابل شريفاً، وعزيزاً، وكريماً، معطاءً، وكلّما ازداد البون والفرق بينهما في الشرف والضعة كان الذمّ والقبح أشدّ وأعظم، خصوصاً إذا كان الوجيه ذا منّةٍ وفضلٍ دائمين على الطرف المقابل، وكان هذا الأخير مصرّاً على المخالفة، وعلى عدم الوفاء بما وعد وعاهد.

---

(١) الكافي- الشيخ الكليني ج ٢، ص ٢٢٦- ٢٢٧،ح١.

وهذا -تماماً- ما هو حاصلٌ بيننا وبين خالقنا يوميّاً، خالق الأرض، والسماء، وما بينهما، المنعم والمفضل علينا بكلّ الخيرات، ونعمة الوجود، والّذي خلق الوجود لنا، وفي خدمتنا، ولم يطلب منّا إلا عدم الانجرار لحبائل إبليس اللعين، العازم على إغواء أكبر عددٍ ممكنٍ من البشر، وقد طلب منا الوفاء بهذا الوعد والعهد؛ لننال خير الدنيا والآخرة، وعهده يتجلّى في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾(١).

وقد استجبنا له -سبحانه-، وعاهدناه بعقولنا الآمرة بلزوم طاعة المولى المنعم؛ شكراً لأنعمه الكثيرة الوافرة، والعقل قاضٍ بضرورة عدم الانصياع إلى العدوّ اللدود، واستجبنا له - سبحانه - بفطرتنا الّتي تأمرنا بعبادة الله وحده، وألاّ نشرك معه شيئاً، والانقياد لأوامر الشيطان طاعةٌ له، وهو سقوطٌ في الهاوية، فكان ذلك كلّه إمضاءً منّا على الوفاء له، وطاعةً، وعدم الانقياد لعدوّه - وعدونا - الشيطان الرجيم.

قال صاحب تفسير الأمثل في تفسير الآيتين المتقدّمتين: إنَّ هذا العهد الإلهيّ أُخذ على الإنسان من طرقٍ مختلفةٍ، وكُرّر على مسمعه مرّاتٍ ومرّاتٍ: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾(٢).

---

(١) سورة يس: الآيتان ٦١،٦٠.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٢٧.

وجرى هذا التحذير -وبشكلٍ متكررٍ على لسان الأنبياء والرسل: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾(١).

وكذلك في الآية ١٦٨ من سورة البقرة نقرأ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾، ومِن جانبٍ آخر فإنَّ هذا العهد أُخذ على الإنسان في عالم التكوين، وبلسان إعطاء العقل له؛ إذ أنَّ الدلائل العقليّة تسير - بشكلٍ واضحٍ - إلى أنَّ على الإنسان ألاّ يطيع مَنْ تصدّى لعداوته منذ اليوم الأوّل، وأخرجه من الجنّة، وأقسم على إغواء أبنائه من بعده.

ومِن جانبٍ آخر فقد أُخذ هذا العهد على الإنسان بالفطرة الإلهيّة للنّاس على التوحيد، وانحصار الطاعة في الله سبحانه، وهذا ليس بلسانٍ واحدٍ، وإنّما بعدّة ألسنةٍ وأساليب تحقّقت تلك التوصية الإلهيّة، وأمضى هذا العهد(٢).

فكلّما كان الإنسان حريصاً في عدم التخلُّف والنكث بما عاهد ربّه، أو عاهد الناس، كان حظّه من الاسم الوفيّ أوفر وأكمل، رزقنا الله -سبحانه- ذلك بفضل جوده، ويسَّر لنا الطريق للتحلّي باسمه الشريف، وأسمائه الحسنى، آمين.

---

(١) سورة الزخرف: الآية ٦٢.

(٢) تفسير الأمثل- الشيخ مكارم الشيرازي ج١٤، ص١٩٩.



الموضوع الثالث والأربعون:

الوَكِيل

١- تجلّيات الوكيل سبحانه.

٢- العبد والوكيل.

أ- التوكّل على الله.

التوكّل لا التواكل.

ب- تجسيد خلافة الله تعالى في الأرض.

الوَكِيــــل

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلا﴾[3].

وقال تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلا﴾[4].

قال الشيخ الصدوق رحمه الله:

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٧٣.

(٢) سورة النساء: الآية ١٣٢.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٣.

(٤) سورة المزمل: الآية ٩.

«**الوكيل:** معناه: المتولّي، أي: القائم بحفظنا، وهذا هو معنى الوكيل على المال منّا، ومعنىً ثانٍ: أنَّه المعتمد، والملجأ، والتوكّل: الاعتماد عليه، والالتجاء إليه»(١).

قال الغزاليّ:

«**الوكيل:** هو الموكول إليه الأمور، لكنّ الموكول إليه الأمور ينقسم إلى:

أ- مَنْ وُكّل إليه بعض الأمور، وذلك ناقصٌ.

ب- ومَنْ وُكّل إليه الكلّ، وليس ذلك إلا الله تعالى.

والموكول إليه ينقسم إلى:

أ- مَنْ يستحقّ أنْ يكون موكولاً إليه لا بذاته، ولكن بالتوكيل والتفويض، وهذا ناقصٌ؛ لأنَّه فقيرٌ إلى التفويض والتولية.

ب- ومَنْ يستحقّ بذاته أنْ تكون الأمور موكولةً إليه، والقلوب متوكّلةً عليه، لا بتوليةٍ وتفويضٍ من جهة غيره، وذلك هو الوكيل المطلق.

والوكيل - أيضاً - ينقسم إلى:

أ- مَنْ يفي بما يوكل إليه وفاءً تامّاً من غير قصورٍ.

ب- ومَنْ لا يفي بالجميع.

والوكيل المطلق هو: الّذي الأمور موكولةٌ إليه، وهو مليٌّ بالقيام بها، وفيٌّ بإتمامها،

---

(١) التوحيد- الشيخ الصدوق، ص ٢١٥.

وذلك هو الله – تعالى – فقط»[١].

أقول: اتّضح ممّا تقدّم أنَّ الوكيل هو المعتمَد، والملاذ الحقيقيّ، الّذي بيده مفاتيح الأمور وملكيّتها، القادر على رفع الكُربات والموانع، وقضاء حوائج خلقه، فتتعلّق قلوبهم وعقولهم به سبحانه.

أمّا غيره فهو مملوكٌ لا مالكٌ، وعاجزٌ غير قادرٍ، فلا يصحّ إطلاق الوكيل عليه حقيقةً وواقعاً، نعم، أجاز الشارع – وكذا سائر العقلاء – التوكيل، إلا أنّها مسألةٌ اعتباريّةٌ لا حظّ لها من الواقع في شيءٍ؛ إذ الوكيل والموكِّل الدنيويّان لا يملكان ذرّةً من القدرة والإرادة من دون مشيئة الله الوكيل الحقّ، والله هو المتصرِّف لكلّ ما أرادا تحقيقه.

وعلى هذا الأساس طلب الباري الاعتماد والالتجاء إليه دون غيره؛ إذ أنَّ غيره سرابٌ محضٌ لا واقع وراءه، بخلاف ربّ العزّة والجلال، مالك السماوات والأرض وما بينهما، والمتصرّف فيها، فاستحقّ الاعتماد عليه، وقبّح الاعتماد على غيره سبحانه، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾[٢].

فالله هو المالك الحقيقيّ، وغيره مماليكٌ، والمملوك لا يملك شيئاً لنفسه، فكيف لغيره؟!

وإنَّ كلّ ما عند العبيد المملوكين ملكٌ لله، حتّى ذواتهم الفقيرة، وما ملكيّتهم إلا

---

(١) المقصد الأسنى – الغزالي، ص ٢٠٥– ٢٠٦.

(٢) سورة النساء: الآية ١٣٢.

ملكيّة اعتباريّة محضة، وليست حقيقيّـةً؛ إذ المالـك هـو الله وحـده، وهـذا يتجلّـى بالتأمّل في الآية المتقدّمة ونظائرها في القرآن الكريم، ويدلّ عليه الدليل العقليّ.

وقال تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلا﴾(١).

فهو الربّ والمدبر، أمّا غيره فهو مربوبٌ، عاجزٌ، فقيرٌ، والعاقل هو مَـنْ يعتمـد على الربّ في تدبير أموره، ولا يعتمد على المربوب الّذي لا يملك القدرة على تدبير أموره، فضلاً عن أمور غيره.

والسعيد - كلّ السعيد - من لقَّن قلبه بهذه الحقيقة بعد علمه العقليّ، وهـؤلاء السعداء هم القلّة في كلّ زمانٍ ومكانٍ؛ لأنّهم الصفوة من البشر، فهـم الّـذين اهتمّـوا بهذه المسألة، ولقّنوا بها عقولهم وأفئدتهم؛ لينالوا سعادة الدنيا والآخـرة، والطمأنينـة والراحة فيهما؛ إذ يرون أنفسهم يعيشون في كنف الرحمن تعالى، فلا داعي للخـوف، أو الوجل، أو الاعتماد على غيره، حتّى في أصعب الظروف، لذا امتدحهم الباري تعالى فقال: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾(٢).

تجلّيات الوكيل سبحانه:

عن الحسين بن علوان قال: «**كنّا في مجلسٍ نطلب فيه العلم، وقد نفدت نفقتي**

---

(١) سورة المزمل: الآية ٩.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٧٣.

في بعض الأسفار، فقال لي بعض أصحابنا: مَنْ تؤمّل لما قد نزل بك؟

فقلت: فلاناً.

فقال: إذن والله لا تسعف[١] حاجتك، ولا يبلغك أملك، ولا تنجح طلبتك.

قلتُ: وما علمك - رحمك الله -؟

قال: إنّ أبا عبد الله عليه السلام حدّثني أنّه قرأ في بعض الكتب أنّ الله عزّ وجلّ يقول:

وعزّتي، وجلالي، ومجدي، وارتفاعي على عرشي، لأقطعنّ أمل كلّ مؤمّلٍ من الناس غيري باليأس، ولأكسونّه ثوب المذلّة عند الناس، ولأنحّينّه[٢] من قربي، ولأبعدنّه من فضلي، أيأمل غيري في الشدائد؟! والشدائد بيدي[٣].

ويرجو غيري، ويقرع بالفكر باب غيري[٤]؟! وبيدي مفاتيح الأبواب، وهي مغلّقةٌ، وبابي مفتوحٌ لمن دعاني، فمن ذا الّذي أمّلني لنوائبه فقطعته دونها؟! ومَنْ ذا الّذي رجاني لعظيمةٍ فقطعتُ رجاءه منّي؟! جعلتُ آمال عبادي عندي محفوظةً، فلم يرضوا بحفظي، وملأتُ سماواتي ممّن لا يملّ من تسبيحي، وأمرتهم أنْ لا يغلقوا الأبواب بيني وبين عبادي، فلم يثقوا بقولي، ألم يعلم [أنّ] من طرقته نائبةٌ من نوائبي أنّه لا يملك كشفها أحدٌ غيري إلا من بعد إذني؟! فما لي أراه لاهياً عنّي؟! أعطيته

---

(١) أسعف حاجته: أي: قضاها له. " هامش المصدر "، كذلك ما يأتي.

(٢) أي: لأبعدنه: أزيلنه.

(٣) أي: تحت قدرتي.

(٤) تشبيه الفكر باليد مكنية، وإثبات القرع له تخييلية، وذكر الباب ترشيح.

بجودي ما لم يسألني، ثمّ انتزعته عنه، فلم يسألني ردّه، وسأل غيري، أفيراني[1] أبداً بالعطاء قبل المسألة ثمّ أُسأل فلا أجيب سائلي؟! أبخيلٌ أنا فيبخّلني عبدي[2]؟! أو ليس الجود والكرم لي؟! أو ليس العفو والرحمة بيدي؟! أو ليس أنا محلّ الآمال؟! فمن يقطعها دوني؟! أفلا يخشى المؤمّلون أنْ يؤمّلوا غيري؟! فلوا أنَّ أهل سماواتي وأهل أرضي أمَّلوا جميعاً، ثمّ أعطيتُ كلّ واحدٍ منهم مثل ما أمّل الجميع، ما انتقص من ملكي مثل عضو ذرَّةٍ، وكيف ينقص ملكٌ أنا قيّمه؟! فيا بؤساً للقانطين من رحمتي، ويا بؤساً لمن عصاني، ولم يراقبني»[3].

العبد والوكيل:

وحظّ العبد من هذا الاسم الشريف في جهتين: التوكّل والاعتماد عليه، وتجسيد خلافة الله في الأرض.

أ- التوكّل على الله تعالى:

في حديثٍ مرفوعٍ إلى النبيّ صلى الله عليه وآله قال: «**جاء جبرئيل، فقال: يا رسول الله، إنَّ الله أرسلني إليك بهديّةٍ لم يعطها أحداً قبلك.**

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما هي؟

قال: الصبر، وأحسن منه.

---

(١) في بعض النسخ " أفتراني ".

(٢) بخّله بالتشديد، أي: نسبه إلى البخل.

(٣) الكافي- الشيخ الكليني ج ٢، ص ٦٦- ٦٧، ح٧.

قال: وما هو؟

قال: الرضا، وأحسن منه.

قال: وما هو؟

قال: الزهد، وأحسن منه.

قال: وما هو؟

قال: الإخلاص، وأحسن منه.

قال: وما هو؟

قال: اليقين، وأحسن منه.

قلت: وما هو يا جبرئيل؟

قال: إنَّ مدرجة ذلك التوكّل على الله عَزَّوَجَلَّ.

فقلت: وما التوكّل على الله؟

قال: العلم بأنَّ المخلوق لا يضرّ، ولا ينفع، ولا يعطي، ولا يمنع، واستعمال اليأس من الخلق، فإذا كان العبد كذلك لا يعمل لأحدٍ سوى الله، ولم يرجُ ولم يخفْ سوى الله، ولم يطمعْ في أحدٍ سوى الله، فهذا هو التوكّل...»[(١)].

يكشف هذا الحديث - بوضوحٍ - أنَّ مقام المتوكّلين على الله – تعالى - خيرٌ

---

(١) وسائل الشيعة– الشيخ الحر العاملي ج ١٥، ص ١٩٤،ح٣١.

من مقام الصابرين، والراضين، والزاهدين، والمخلصين، وأصحاب اليقين، بصريح الحديث الشريف، فمقام التوكّل من المقامات المنقطعة النظير، إلا أنَّ هذا المقام الشامخ لا يأتي من خلال الادّعاء، والقول، والتمنّي، ما لم يجسّده الإنسان في الميدان العمليّ، وفي يوميّات حياته، وموارد المدّ والجزر فيها.

وطريق تحصيل التوكّل على الله – تعالى – هو من خلال التأمّل بما ورد في بحث "تجلّيات الوكيل"، والتدبّر جيداً فيه، والاستشهاد له بما هو حاصلٌ في يوميّاتنا، فتزداد يقيناً وتجسيداً لمعنى التوكّل في حياتنا المعنويّة، رزقنا الله مقامهم، ومرتبتهم.

وأمّا «علامة حصوله في النفس، واتّصاف العبد به يتّضح من خلال عدم اضطراب قلبه»، ولا يبطل سكونه بفقد أسباب نفسه، وحدوث أسباب ضُرّه، فلو سُرقت بضاعته، أو خسرت تجارته، أو تعوّق أمرٌ من أموره، كان راضياً به، ولم تبطل طمأنينته، ولم تضطرب نفسه، بل كان حال قلبه في السكون قبله وبعده واحداً، فإنَّ مَنْ لم يسكن إلى شيءٍ لم يضطرب بفقده، ومَنْ اضطرب لفقد شيءٍ فقد سكن إليه، واطمأنّ به ". كما أفاد الشيخ النراقيّ في كتابه القيّم "جامع السعادات"[1].

التوكّل لا الاتّكال:

واعلم – أيّها العزيز – أنَّ السعي وراء الأسباب لتحقيق أهدافنا وأغراضنا «**لا ينافي التوكّل، بعد أنْ يكون وثوقه واعتماده بالله دون الأسباب، فمن ظنَّ أنَّ معنى التوكّل ترك الكسب بالبدن، وترك التدبير بالعقل رأساً، والسقوط على الأرض**

(١) جامع السعادات – الشيخ النراقي ج ٣، ص٢٣٢– ٢٣٣.

كالخرقة الملقاة، فقد أبعد عن الحقّ؛ لأنَّ ذلك محرّمٌ في الشرع الأقدس، فإنَّ الشارع كلّف الإنسان بطلب الرزق بالأسباب الّتي هداه الله إليها، من زراعةٍ، أو تجـارةٍ، أو صناعةٍ، أو غير ذلك ممّا أحلّه الله، وبإبقاء النسل بالتزويج، وكلّفه بأنْ يـدفع عـن نفسه الأشياء المؤذية بالتوسّل إلى الأسباب المعنيّة لدفعها، كما أنّ العبادات أمورٌ أمر الله – تعالى – عباده بالسعي فيها؛ ليحصل لهم بها التقرّب إليه، والسـعادات في دار الآخرة، فكذلك طلب الحلال، ودفع الضرر والألم عن النفس، والأهل، والعيال، أمورٌ أمرهم الله تعالى؛ ليحصل لهم بها التوسّل إلى العبـادات، ومـا يـؤدّي إلى التقـرّب والسعادة، لكنّه – سبحانه – كلّفهم – أيضـاً – بـألاّ يثقـوا إلاّ بـه سـبحانه، ولا يعتمدوا على الأسباب.

كما أنّه – سبحانه – كلّفهم بألاّ يتّكلوا على أعمالهم الحسنة، بل على فضله، ورحمته، فمعنى التوكّل المأمور به في الشريعة: اعتماد القلب على الله – تعالى – في الأمور كلّها، وانقطاعه عمّا سواه، ولا ينافيه تحصيل الأسباب إذا كان لم يسكن إليها، وكان سكونه إلى الله – سبحانه – دونها مجوّزاً في نفسه أنْ يؤتيه الله مطلوبـه مـن حيث لا يحتسب، دون هذه الأسباب الّتي حصلها، وأنْ يقطع الله هذه الأسباب عن مسبّباتها»[1].

ب- تجسيد خلافة الله في الأرض:

هل تعلم – أيّها العزيز الكريم – أنَّ الباري قد اختـارك، واختـار بـني نوعـك

---

(١) جامع السعادات – الشيخ النراقي ج ٣، ص٢٢٦.

الإنسانيّ من سائر مخلوقاته لشرف خلافته في الأرض؟! ولتكون وكيلاً، وسفيراً، وخليفةً له؟! وهل تعلم أنَّه بذل إليك كلّ وسائل الكمال والنعيم، ابتداءً من منحه إيّاك الجوارح، والجوانح، ومروراً بالسماء، والأرض، وما فيهما من الخيرات؛ لتكون كلّها آلياتٍ ووسائل تستفيد منها في مصبّ الخلافة، وتصبّ في مصبّ التخويل والتوكيل الإلهيّ؟! أي: تتصرّف فيها بما يملي عليك حقّ التوكيل والخلافة الإلهيّة في الأرض، لا بما تشتهي فعله وإن قبح، أو حرم.

فهدف إعطائك إيّاها كي تستعملها في طاعته بعبادته، وخدمة عباده، أي: كي ترتقي وتسعى في ارتقاء مجتمعك، ولم يعطِك لكي تستعملها في معصيته، أو إيذاء عباده وخلقه، أو في انحطاطك، وانحطاط مجتمعك، وعالمك.

والّذي يدلّ على أنَّه يريد منك استعمال هذه الأمور فيما يرضيه - وفي طاعته، وأنَّك خليفته، ووكيله في استعمال هذه الأمور في مرضاته وطاعته - مجموعةٌ من الآيات والأحاديث الشريفة، الّتي منها:

١- قال تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾(١).

فبعد أنْ ذكّرهم بالنعم الإلهيّة المفاضة عليهم، يأمرهم - مباشرةً - بضرورة الوفاء بالعهد الإلهيّ، والانقياد لأمره، ونهيه، وذلك بجعل النعم تصبّ في مصبّ طاعته، والخوف من عدله، والرهبة منه دون غيره.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٤٠.

٢- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾[١].

خطابٌ للبشريّة جمعاء "يا أيّها الناس"، إنَّ ما أنتم فيه من الخيرات والنعم لا تعدو كونها "**نعمة الله**"، أفاضها - ومنحها - إليكم، فهو الخالق والموجِد لكم، ولكلّ ما ترون، وما لا ترون، ولا خالق غيره، فيتعيّن أنْ تعبدوه، وتنقادوا إليه، شكراً لأنعمه ورزقه لكم، وتجعلوا أنفسكم - وما تملكون من ملكيّةٍ اعتباريّةٍ - في طاعته وخدمته، ويقبح أنْ تعبدوا ما لا ينبغي أنْ يعبد، أو تفعلوا ما لا ينبغي فعله.

فالمستفاد ممّا تقدّم أمران:

الأوّل: إنَّ ما نملكه ليس إلا ملكيّة اعتباريّة، والمالك الحقيقيّ هو الله تعالى، بقرينة قوله تعالى: (نعمة الله) و(نعمتي)، و...

الثاني: إنّما نحن مخوّلون في صرف هذه النعم في مرضات الله، وفي طاعته لا غير، وذلك بقرينة ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾[٢]، ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾[٣]،﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾[٤].

---

(١) سورة فاطر: الآية ٣.

(٢) سورة البقرة: الآية ٤٠.

(٣) سورة البقرة: الآية ٤٠.

(٤) سورة فاطر: الآية ٣.

والّذي يدلّ - بوضوحٍ أكثر - على أنّنا خلائف، ووكلاء، وسفراء له في الأرض، وأنّه ينبغي العمل على وفق ذلك، - مجموعةٌ أخرى، من قبيل:

قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٣).

وقوله تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾(٤).

أمّا الأحاديث والأخبار فكثيرةٌ، نكتفي بحديثين:

الحديث الأوّل: رُوي عن صحف إبراهيم الخليل عليه السلام: يقول الله تعالى:

«يا ابن آدم، ما أنصفتني! خلقتك ولم تك شيئاً، وجعلتك بشراً سويّاً، خلقتك من سلالةٍ من طينٍ، ثمّ جعلتك نطفةً في قرارٍ مكينٍ، ثمّ خلقت النطفة علقةً، فخلقت

(١) سورة البقرة: الآية ٣٠.

(٢) سورة يونس: الآية ١٤.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٦٥.

(٤) سورة ص: الآية ٢٦.

العلقة مضغةً، فخلقت المضغة عظاماً، فكسوت العظام لحماً، ثمّ أنشأتك خلقاً آخر.

يا ابن آدم! هل يقدر على ذلك غيري؟! ثمّ خفّفت ثقلك على أمّك؛ حتّى لا تتبرّم بك وتتأذّى، ثمّ أوحيت إلى الأمعاء أنْ اتّسعي، وإلى الجوارح أنْ تفرّقي، فاتّسعت الأمعاء من بعد ضيقها، وتفرّقت الجوارح من بعد تشبيكها، ثمّ أوحيت إلى الملك الموكّل بالأرحام أنْ يخرجك من بطن أمّك، فاستخلصك[١] على ريشةٍ من جناحه، فاطّلعت عليك، فإذا أنت خلقٌ ضعيفٌ، ليس لك سنٌّ يقطع، ولا ضرسٌ يطحن، فاستخلصت لك في صدر أمّك ثدياً[٢]، يدرّ لك لبناً، بارداً في الصيف، حارّاً في الشتاء، واستخلصته من بين جلدٍ، ولحمٍ، ودمٍ، وعروقٍ، وقذفت لك في قلب والدتك الرحمة، وفي قلب أبيك التحنُّن، فهما يكدّان، ويجهدان، ويربّيانك، ويغذّيانك، ولم يناما حتّى ينوّمانك.

ابن آدم! أنا فعلت ذلك بك لا بشيءٍ استأهلتَه به منّي، أو لحاجةٍ استعنت على قضائها.

ابن آدم! فلمّا قطع سنّك، وطلع ضرسك، أطعمتك فاكهة الصيف، وفاكهة الشتاء في أوانهما، فلمّا عرفتَ أنّي ربّك عصيتني، فالآن إذ عصيتني فادعني، وإنّي قريبٌ مجيبٌ، وادعني؛ فإنّي غفورٌ رحيمٌ»[٣].

---

(١) في المصدر: فاستخلصتك، " هامش المصدر ".

(٢) في المصدر: عرقا. " هامش المصدر ".

(٣) بحار الأنوار– العلامة المجلسي ج ٥٧، ص ٣٦٢– ٣٦٣، ح٥٥.

لاحظ - أيّها الكريم - كيف يسرد لك الباري بعض ما أسدل إليك من النعم، ثمّ يكشف الستار عن ردٍّ فعلك بما أنعم وأسدل عليك، وهي المعصية والمخالفة! وحيث إنَّه لم يخلقك لمخالفته، فإنَّه فتح لك باب التوبة والعودة إليه، بأسلوبٍ ملؤه الحبّ والحنان، فقال عزَّ اسمه: " فالآن إذ عصيتني فادعني، وإنِّي قريبٌ مجيبٌ، وادعني؛ فإنِّي غفورٌ رحيمٌ". فعيبٌ علينا أنْ نواجه كلّ هذا اللطف بالإساءة، فإنَّه لا ينسجم مع شيم النبلاء.

الحديث الثاني: عن رسول الله صلى الله عليه وآله: **«ما من يومٍ يمرُّ إلا والباري عزّ وجلّ ينادي:**

عبدي، ما أنصفتني، أذكرك وتنسى ذكري، وأدعوك إلى عبادتي وتذهب إلى غيري، وأرزقك من خزائني، وآمرك لتتصدق لوجهي، فلا تطيعني، وأفتح عليك أبواب الرزق، وأستقرضك من مالي فتَجْبَهُني، وأُذهب عنك البلاء، وأنت معتكفٌ على فعل الخطايا.

يا ابن آدم، ما يكون جوابك لي غداً إذا أجبتني؟!»(١).

نعم، ماذا سيكون جوابك يوم القيامة، حينما تُسأل: (لماذا عصيتَ الله بنعمة الله؟)؟!

(١) ذيل تاريخ بغداد- ابن النجار البغدادي ج ٤، ص ١٣٥.

الموضوع الرابع والأربعون:

البَرُّ

١- تجلّيات البرّ.

٢- العبد والبرّ.

البَرُّ

قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾[1].

قال الشيخ الطريحيّ في مجمعه:

«البرّ: من أسمائه تعالى، وهو العطوف على عباده، الّذي عمَّ برّه جميع خلقه، يحسن إلى المحسن بتضعيف الثواب، وإلى المسيء بالصفح، والعفو، وقبول التوبة»[2].

وقال الغزاليّ: «البرّ: هو المحسن، والبرّ المطلق هو الّذي منه كلّ مبرَّةٍ وإحسانٍ»[3].

تجلّيات البَرّ:

إنَّ إحسان المولى جلّ وعلا على العبادة عظيمٌ، ورحمته ونعمه لا تُعدّ، ولا تُحصى، قال – تعالى – مشيراً إلى هذه الحقيقة: ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا

---

(١) سورة الطور: الآية ٢٨.

(٢) مجمع البحرين- الشيخ الطريحي ج ١، ص ١٨٤.

(٣) المقصد الأسنى- الغزالي، ص٢٢٠.

تُحۡصُوهَا إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾[١].

وقد أشرنا إلى العديد من هذه النعم الإلهيّة، والآن نشير إلى بعض جوانب أخرى؛ تتميماً للفائدة:

أ- روي أنّ ضريراً سمع دعاء أمير المؤمنين عليه السلام: «**اللهم إنّي أسألك يا ربّ الأرواح الفانية، وربّ الأجساد البالية، أسألك بطاعة الأرواح الراجعة إلى أجسادها، وبطاعة الأجساد الملتئمة إلى أعضائها، وبانشقاق القبور عن أهلها، وبدعوتك الصادقة فيهم، وأخذك بالحقّ بينهم إذا برز الخلايق، ينتظرون قضاءك، ويرون سلطانك، ويخافون بطشك، ويرجون رحمتك، يوم لا يغني مولىً عن مولىً شيئاً، ولا هم يُنصرون، إلا من رحم الله، إنّه هو البرّ الرحيم، أسالك - يا رحمن - أنْ تجعل النور في بصري، واليقين في قلبي، وذكرك بالليل والنهار على لساني، أبداً ما أبقيتني، إنّك على كلّ شيءٍ قدير.**

قال: فسمعها الأعمى، وحفظها، ورجع إلى بيته الّذي يؤويه، فتطهّر للصلاة، وصلّى، ثمّ دعا بها، فلما بلغ إلى قوله: أنْ تجعل النور في بصري، ارتدّ الأعمى بصيراً بإذن الله»[٢].

ب - روى الصدوق رحمه الله - بإسناده عن سديرٍ - قال: «**قلتُ لأبي عبد الله عليه السلام: جُعلت فداك، يا ابن رسول الله، هل يُكره المؤمن على قبض روحه؟**

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٣٤.

(٢) مناقب آل أبي طالب- ابن شهر آشوب ج ٢، ص ١١٩.

قال: لا، إذا أتاه ملك الموت لقبض روحه جزع لذلك، فيقول له ملك الموت: يا وليَّ الله، لا تجزع؛ فو الّذي بعث محمّداً بالحقّ لأنا أبّر بك، وأشفق عليك من الوالد البَرّ الرحيم بولده، افتحْ عينيك وانظرْ.

قال: فيتمثّل له رسول الله، وأمير المؤمنين، وفاطمة، والحسن، والحسين، والأئمّة صلوات الله عليهم، فيقول: هؤلاء رفقاؤك، فيفتح عينيه، وينظر إليهم، ثمّ تنادي نفسه: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ إلى محمّدٍ وأهل بيته عليهم السلام، ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ بالولاية، ﴿مَرْضِيَّةً﴾ بالثواب، ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ يعني محمّداً، وأهل بيته، ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[1]، فما من شيءٍ أحبّ إليه من انسلال روحه، واللحوق بالمنادي»[2].

حـ- يُنقل عن ابن عبّاسٍ، ووهب، وغيرهما من أهل الكتب: «كان في بني إسرائيل رجلٌ صالحٌ له ابنٌ طفلٌ، وكان له عجلٌ، فأتى بالعجل إلى غيضةٍ[3]، وقال: اللهمّ إنّي استودعتك هذه العجلة لابني حتّى يكبر، ومات الرجل، فشبّت العجلة في الغيضة، وصارت عواناً، وكانت تهرب من كلّ من رامها، فلمّا كبر الصبيّ كان بارّاً بوالدته، وكان يقسّم الليلة ثلاثة أثلاثٍ، يصلّي ثلثاً، وينام ثلثاً، ويجلس عند رأس أمّه ثلثاً، فإذا أصبح انطلق، واحتطب على ظهرٍ، ويأتي به السوق، فيبيعه بما شاء الله،

---

(١) سورة الفجر: الآيات ٢٧- ٣٠.

(٢) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٢٤، ص ٩٤، ح٧.

(٣) الغيضة: الأجمة، مجتمع الشجر في مغيض الماء. " هامش المصدر ".

ثمّ يتصدّق بثلثه، ويأكل ثلثه، ويعطي والدته ثلثاً.

فقالتْ له أمّه يوماً: إنَّ أباك ورّثك عجلةً، وذهب بها إلى غيضة كذا، واستودعها، فانطلقْ إليها، وادعُ إله إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق أنْ يردّها عليك، وإنَّ من علامتها أنّك إذا نظرتَ إليها يخيَّل إليك أنَّ شعاع الشمس يخرج من جلدها، وكانت تسمّى المذهَّبة؛ لحسنها؛ وصفوتها؛ وصفاء لونها.

فأتى الفتى الغيضة، فرآها ترعى، فصاح بها، وقال: أعزم عليك بإله إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، فأقبلتْ تسعى، حتّى قامت بين يديه، فقبض على عنقها، وقادها، فتكلَّمت البقرة بإذن الله، وقالت: أيّها الفتى البارّ بوالدته، اركبني، فإنَّ ذلك أهون عليك.

فقال الفتى: إنَّ أمّي لم تأمرني بذلك، ولكن قالت: خذ بعنقها.

قالت البقرة: بإله بني إسرائيل لو ركبتني، ما كنتَ تقدر عليَّ أبداً، فانطلقْ، فإنّك لو أمرت الجبل أنْ ينقلع من أصله، وينطلق معك، لفعل؛ لبرِّك بوالدتك، فصار الفتى بها، فاستقبله عدوّ الله إبليس في صورة راعٍ.

فقال: أيّها الفتى، إنّي رجلٌ من رعاة البقر، اشتقتُ إلى أهلي، فأخذتُ ثوراً من ثيراني، فحملتُ عليه زادي ومتاعي، حتّى إذا بلغتُ شطر الطريق ذهبتُ لأقضي حاجتي، فعدا وسط الجبل وما قدرت عليه، وإنّي أخشى على نفسي الهلكة، فإنْ رأيت أنْ تحملني على بقرتك، وتنجيني من الموت، وأعطيك أجرها بقرتين مثل بقرتك، فلم يفعل الفتى. وقال: اذهب، فتوكّل على الله، ولو علم الله – تعالى – منك اليقين لبلّغك بلا زادٍ ولا راحلةٍ.

فقال إبليس: إنْ شئت فبعنيها بحكمك، وإنْ شئت فاحملني عليها، وأعطيك عشرةً مثلها.

فقال الفتى: إنَّ أمّي لم تأمرني بهذا، فبينا الفتى كذلك إذ طار طائرٌ من بين يدي البقرة، ونفرت البقرة هاربةً في الفلاة، وغاب الراعي، فدعاها الفتى باسم إله إبراهيم، فرجعت البقرة إليه.

فقالتْ: أيّها الفتى البارّ بوالدته، ألم ترَ إلى الطائر الّذي طار؟! فإنَّه إبليس عدوّ الله، اختلسني، أما إنَّه لو ركبني لما قدرت عليّ أبداً، فلمّا دعوت إله إبراهيم، جاء ملكٌ فانتزعني من يد إبليس، وردّني إليك؛ لبرّك بأمّك؛ وطاعتك لها، فجاء بها الفتى إلى أمّه، فقالتْ له: إنَّك فقيرٌ لا مال لك، ويشقُّ عليك الاحتطاب بالنهار، والقيام بالليل، فانطلقْ فبعْ هذه البقرة، وخذ ثمنها.

قال لأمّه: بكم أبيعها؟

قالتْ: بثلاثة دنانير، ولا تبعها بغير رضاي ومشورتي، وكان ثمن البقرة في ذلك الوقت ثلاثة دنانير، فانطلق بها الفتى إلى السوق، فعقّبه الله – سبحانه – ملكاً؛ ليري خلقه قدرته؛ وليختبر الفتى كيف برّه بوالدته، وكان الله به خبيراً.

فقال له الملك: بكم تبيع هذه البقرة؟

قال: بثلاثة دنانير، وأشترط عليك رضى أمّي.

فقال له الملك: ستة دنانير، ولا تستأمر أمّك.

فقال الفتى: لو أعطيتني وزنها ذهباً لم آخذه إلا برضا أمّي، فردّها إلى أمّه

وأخبرها بالثمن.

فقالت: ارجعْ، فبعها بستّة دنانير على رضاً منّي، فانطلق الفتى بالبقرة إلى السوق، فأتى الملك، فقال: استأمرتَ والدتك؟

فقال الفتى: نعم، إنَّها أمرتني أنْ لا أنقصها من ستّة دنانير على أنْ أستأمرها.

قال الملك: فإنّي أعطيك اثني عشر، على أنْ لا تستأمرها، فأبى الفتى، ورجع إلى أمّه، وأخبرها بذلك.

فقالتْ: إنَّ ذاك الرجل الّذي يأتيك هو ملكٌ من الملائكة، يأتيك في صورة آدميٍّ؛ ليجربّك، فإذا أتاك فقل له: أتأمرنا أن نبيع هذه البقرة أم لا؟

ففعل ذلك، فقال له الملك: اذهبْ إلى أمّك وقل لها: أمسكي هذه البقرة؛ فإنَّ موسى يشتريها منكم لقتيلٍ يُقتل في بني إسرائيل، فلا تبيعوها إلا بملْء مسكها دنانير، فأمسكا البقرة، وقدّر الله – تعالى – على بني إسرائيل ذبح تلك البقرة بعينها؛ مكافأةً على برِّه بوالدته؛ فضلاً منه ورحمةً، فطلبوها، فوجدوها عند الفتى، فاشتروها بملْء مسكها ذهباً، وقال السدّي: اشتروها بوزنها عشر مرّاتٍ ذهباً»[1].

العبد والبَرُّ:

كلّما كان العبد ساعياً في خدمة الناس والإحسان لهم، كان حظّه من هذا الاسم الشريف أكثر وأوفر، وكلّما كان إحسانه لذوي عشيرته، وقرابته، وأسرته أعظم،

---

(١) بحار الأنوار– العلامة المجلسي ج ١٣، ص ٢٧٥– ٢٧٧.

كان تخلّقه بالبرّ أجلى، وأجره عند خالقه أوفر، وأكمل؛ إذ يكون ممتثلاً لطلبين مولويَّين معاً، وهما:

الأوّل: التخلُّق بالإحسان والبر.

والثاني: الاهتمام بالقرابة القريبة؛ إذ هم أولى بالمعروف والإحسان في الشرع الأقدس.

ومن أهمّ القُرابات والصِلات هي صلة الوالدين، وبالخصوص الأمّ الّتي جُعلتْ الجنّة تحت أقدامها، تعظيماً، وتقديراً من الإسلام لمقامها، وما بذلتْ للتكامل الإنسانيّ في جميع الأصعدة، فهي المتمّم لنصف دين الرجل، والمربّية لرجال الماضي، والحال، والمستقبل، وهي السند والعضد لكلّ رجلٍ عظيمٍ، وشريفٍ، وموفّقٍ، وهي كما قال الشاعر:

الأم مدرسةٌ إذا أعددتها   أعددت شعباً طيّب الأعراق

ويكفيك مدحاً لها أنْ جعلها الشارع باب رحمةٍ لكلّ أسرةٍ صغيرةٍ، ولكلّ فردٍ يطمع الفوز بالجنان، وحسن المآب، فكانت تلك الجنّة الّتي عرضها السماوات والأرض - والّتي أعدّت للمتّقين - تحت قدميها، ومشروطةً برضاها، فهي فرصة العمر، وفي متناول أيدينا، إلا أنّ العبد - للأسف- لا يعرف قدرها ومكانتها، فكان الجهل بها منشأً لخسران الكثير من الجزاء والثواب.

وأمّا الأب فهو الركن الركين للأسرة، وعمودها الفقريّ، الّذي لولاه لخيّم اليتم والضياع على البيت، وهذا نراه بالوجدان في الأسر الّتي فقدت ربّ أسرتها، وعاشوا يتامى.

ولكي تعرف المزيد من مكانتهما وقدرهما في الإسلام، أذكر لك بعض الروايات الإسلاميّة؛ لكي تحظى بشرف البرّ والإحسان لهما، فتلتحق بركب الكمّل والأبـرار، فتنال بعضاً ممّا نالوه من مقامٍ كريمٍ.

أ – عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**النظر إلى الكعبة عبادةٌ، والنظـر إلى الوالـدين عبادةٌ، والنظر إلى الإمام عبادةٌ**»(١).

فهل هناك أيسر من النظر في عالم الأفعال؟! فالعين ترى ملايين الصور في اليـوم من دون تعبٍ وجهدٍ، فكان من جود بحر رحمة الله وبرّه أنْ يهب عباده هذه الكرامة واللطف العظيم، بجعل نظرتك لهما عبادةً، وتقرّباً، وتزلّفاً له تعالى.

من ذلك: فإنَّك إنْ نظرت إلى سعة رحمة الله وجوده من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى لو علمت ما لنظرتك الّتي يملأها الحبّ والحنان مـن أثـرٍ في كيانهمـا ونفسـيهما، لمـا استقللت الجزاء الإلهيّ، إنَّ تلك النظرة المشوبة بـالعطف والحنـان تجعلـهما ينسـيان هموم الدنيا، وكروبها، وعسرها، وشدّتها، وتنقلب تعاستهما إلى سعادةٍ، وترجع لهمـا نشاطهما، وبهجتهما، وشبابهما بتلك النظرة الخاطفة.

جرّب وانظر بتأمّلٍ لهما؛ لترى صدق مقولتي.

وعنه صلى الله عليه وآله: «**النظر في ثلاثـة أشـياءٍ عبـادةٌ: النظـر في وجـه الوالـدين، وفي المصحف...**»(٢).

---

(١) وسائل الشيعة– الشيخ الحر العاملي ج ١٣، ص ٢٦٣،ح٤.

(٢) بحار الأنوار– العلامة المجلسي ج ١٠، ص ٣٦٨، ح١٠.

فهنا يجعل الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله منزلتهما منزلة الثقل الأكبر في الأجر لمن نظر إليهما، ولعلَّ البدء بهما لأفضليتهما في الأجر على النظر في المصحف، فيكون البدء بهما من باب البدء بالأهمّ والأجزل ثواباً.

ب- ولقداسة برِّهما - والإحسان لهما - جعل الإمام الصادق عليه السلام البرّ لهما من أفضل الأعمال، ووضع برَّهما بين أهمّ فرعين من فروع الدين، بين الصلاة الّتي هي عمود الدين، والجهاد الّذي يحفظ للإسلام عزَّته وكرامته، فقد سُئل عليه السلام عن أفضل الأعمال، فقال: «**الصلاة لوقتها، وبرُّ الوالدين، والجهاد في سبيل الله عزّ وجلّ**»[1].

جـ- يتصوّر الكثير منّا أنّ مسألة برِّ الوالدين منوطةٌ بعالَم الدنيا فقط، فإذا ماتا سقط التكليف عنّا بانقطاع حياتهما، مع أنّهما انتقلا إلى عالمٍ آخر هُم بأمسِّ الحاجة إلى برِّ الأولاد لهما فيه[2]، من هنا تجد الروايات جاءت لتأكّد ضرورة برِّ الوالدين

---

(١) وسائل الشيعة- الحر العاملي ج،١٥ ص ١٩،ح ٢٨.

(٢) ففي الخبر: أنَّ «الموتى يأتون في كل جمعة من شهر رمضان، فيقفون، وينادي كل واحد منهم بصوت حزين باكياً: يا أهلاه، ويا ولداه، ويا قرابتاه، اعطفوا علينا بشيء يرحمكم الله، اذكرونا، ولا تنسونا بالدعاء، وارحموا علينا، وعلى غربتنا، إنَّا قد بقينا في سجنٍ ضيقٍ، وغم طويل، وغم، وشدة، فارحمونا، ولا تبخلوا بالدعاء والصدقة لنا، لعل الله يرحمنا قبل أنْ تكونوا مثلنا، فوا حسرتا، قد كنا قادرين مثلما أنتم قادرون، فيا عباد الله، اسمعوا كلامنا، ولا تنسونا، فإنَّكم ستعلمون غداً، فإنَّ الفضول التي في أيديكم كانت في أيدينا، فكنا لا ننفق في طاعة الله، ومنعنا عن الحق، فصار وبالاً علينا، ومنفعته لغيرنا، أعطفوا علينا بدرهمٍ، أو رغيفٍ، أو بكسرةٍ.
ثم ينادون: ما أسرع ما تبكون على أنفسكم، ولا ينفعكم، كما نحن نبكي ولا ينفعنا، فاجتهدوا قبل أنْ تكونوا مثلنا». مستدرك الوسائل- الميرزا النوري ج ٢، ص ١٦٢- ١٦٣، ح٤٦.

بعد موتهما، ورفع اللبس عن ذلك التصوّر الخاطئ، كما في هذا الحديث المرويّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**سيّد الأبرار يوم القيامة رجلٌ برٌّ والديه بعد موتهما**»(١).

فهذا البارُّ لوالديه بعد موتهما لا ينال مقام الأبرار فقط ـ مع ما لهم من مقامٍ شامخٍ(٢)ـ بل إنَّه سيَّدهم، وموضع افتخارٍ لهم.

وأما كيفيّة برِّ الوالدين في حياتهما - وبعد موتهما - فهذا ما يبيّنه الحديث المرويّ عن الإمام الباقر عليه السلام: «**إنَّ العبد ليكون بارّاً بوالديه في حياتهما، ثمّ يموتان، فلا يقضي عنهما ديونهما، ولا يستغفر لهما، فيكتبه الله عاقّاً، وإنَّه ليكون عاقّاً لهما في حياتهما، غير بارٍّ بهما، فإذا ماتا قضى دينهما، واستغفر لهما، فيكتبه الله عزّ وجلّ بارّاً**»(٣).

واعلم - أيّها العزيز - أنّه إنْ لم يحرّك همّتك ما أسلفناه من الأخبار، فاعلم - علم اليقين - أنّه كما لا يقبل الله عملاً مع الشرك به، فكذلك لا يقبل الله عملك مع عقّك لوالديك، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**ثلاثةٌ لا ينفع معهنّ عملٌ: الشرك بالله،**

---

(١) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٧١، ص ٨٦، ح ١٠٠.

(٢) هذا بعض مقام الأبرار الوارد في سورة المطففين، قال - تعالى - مادحاً الأبرار: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (٢١) إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ (سورة المطففين: الآيات ١٨- ٢٧).

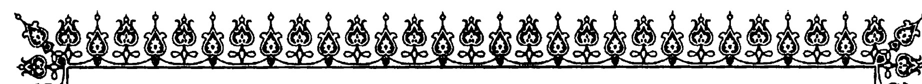
(٣) وسائل الشيعة- الشيخ الحر العاملي ج ١٨، ص ٣٧١- ٣٧٢، ح١.

وعقوق الوالدين، والفرار من الزحف»[١].

وعن أبي عبد الله عليه السلام: **«مَنْ نظر إلى أبويه نظر ماقتٍ وهما ظالمان له، لم يقبل الله له صلاةً»**[٢].

(١) كنز العمال- المتقي الهندي ج ١، ص ٣٧٧، ح ١٦٤٠.

(٢) الكافي- الشيخ الكليني ج ٢، ص ٣٤٩،ح ٥.



الموضوع الخامس والأربعون:

التَّوَّاب

١- تجلّيات التوّاب.

٢- العبد والتَّوَّاب.

أ- التائب مع التَّوَّاب.

ب- التائب مع الخَلْق.

٣- ذِكرُ التَّوَّاب.

التـوّاب

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(1).

وقال سبحانه: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(2).

وقال ﷻ: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(3).

قال السيد عبد الأعلى السبزواريّ - تفسيراً للآية الأخيرة المتقدِّمة -:

«التوب: هو الرجوع، فإذا وُصف به الله يكون إمّا بمعنى: إلهام التوبة إلى العبد، وتوفيقه لها، أو بمعنى: رجوع الله وإقباله على العبد بعد مخالفته وعصيانه، وإذا وُصف

---

(1) سورة التوبة: الآية ١٠٤.

(2) سورة البقرة: الآية ١٦٠.

(3) سورة البقرة: الآية ٣٧.

به العبد يكون بمعنى: الندم عمَّا فعل، وعن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: «**كفى بالندم توبةً**»(١)، ولا يلزم أنْ تكون التوبة من الذنب، بل تصحّ عن التوجّه إلى غير الله تعالى، ولو كان مباحاً، فإنَّ «حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين».

وكلّ توبةٍ من العبد تلازم أموراً ثلاثةً:

الأوّل: توفيق الله عبده للتوبة برجوعه – تعالى – عليه بعد العصيان، قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(٢).

الثاني: توبة العبد، وندمه عن المعصية.

الثالث: قبوله – تعالى – توبة العبد...

والتوّاب: إمّا بمعنى: قبول التوبة عن عباده كثيراً بحسب كثرة التائبين، أو: أنّه عزّ وجلّ يقبل توبة العبد الواحد، وإنْ صدر الذنب عنه متعدّداً، أو يكون بمعنى كلٍّ منهما، وجميع ذلك صحيحٌ»(٣).

تجلّيات التوّاب:

عن أبي عبد الله – أو عن أبي جعفر عليه السلام – قال: «**إنَّ آدم عليه السلام قال: يا ربّ، سلّطت عليّ الشيطان، وأجريته منّي مجرى الدم، فاجعل لي شيئاً.**

---

(١) التوحيد– الشيخ الصدوق، ص ٤٠٨.

(٢) سورة التوبة: الآية ١١٨.

(٣) مواهب الرحمن، آية الله العظمى السيد عبد الأعلى السبزواري ج١، ص٢٠٥.

فقال: يا آدم، جعلت لك أنَّ مَنْ هَمَّ من ذرّيّتك بسيّئةٍ لم تُكتب عليه، فإنْ عملها كُتبت عليه سيّئةٌ، ومَنْ هَمَّ منهم بحسنةٍ فإنْ لم يعملها كُتبت له حسنةٌ، فإنْ هو عملها كُتبت له عشراً.

قال: يا ربّ زدني.

قال: جعلت لك أنّ مَنْ عمل منهم سيّئةً، ثمّ استغفر له، غفرتُ له.

قال: يا ربّ زدني.

قال: جعلتُ لهم التوبة - أو قال: بسطت لهم التوبة - حتّى تبلغ النفس هذه.

قال: يا ربّ حسبي»(١).

ورُوي أنَّ أعرابيّاً قال: «يا رسول الله، مَنْ يحاسب الخلق يوم القيامة؟

قال: الله عزّ وجلّ.

قال: نجونا وربّ الكعبة.

قال: وكيف ذاك يا أعرابيّ؟!

قال: لأنَّ الكريم إذا قدر عفا»(٢).

---

(١) الكافي- الشيخ الكليني ج ٢، ص ٤٤٠، ح١.

(٢) ميزان الحكمة- الشيخ محمد الري شهري ج ٦، ص ٣٧٦، ح ١٢٩٣٨.

العبد والتَّوَّاب:

حظّ العبد من هذا الاسم الشريف في جهتين؛ مع خالقه، ومع الخلق.

أ- التائب مع خالقه التوّاب:

فحظّ العبد مع خالقه أنْ يعرف:

أنَّ التوبة بابٌ مِن أبواب رحمة الله تعالى، وهي من أعظم أنحاء لطفه بعباده، ومن أقرب الطرق إليه عَزَّوَجَلَّ، وهي أوّل منازل السائرين إلى الله سبحانه، وأساس درجات السير والسلوك الإنسانيّ، وهي مفتاح التقرُّب إليه عَزَّوَجَلَّ، والوصول إلى المقامات العالية.

بل لا تتحقّق التخلية عن الصفات الرذيلة، والتحلية بالصفات الحسنة إلاَّ بها، ويكفي في فضلها أنَّها من صفات الباري عَزَّوَجَلَّ، فإنَّه "التوّاب الرحيم"، وقد مَنَّ على عبيده أنْ تقرّب إليهم بالتوبة عليهم، بعد البعد عنه - تعالى - بالمعاصي والذنوب، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(١).

وقد ورد في عظيم فضلها نصوصٌ كثيرةٌ، ففي الكافي: عن أبي عبيدة، عن أبي جعفر عليه السلام: **«إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أشدّ فرحاً بتوبة عبده من الرجل أضلّ راحلته وزاده في ليلةٍ ظلماء، فوجدها، فالله أشدّ فرحاً بتوبة عبده من ذلك الرجل براحلته حين**

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٥٤.

وجدها»[1].

ورُوي عنهم عليهم السلام: «إنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ أعطى التائبين ثلاث خصالٍ، لو أعطى خصلةً منها جميع أهل السماوات والأرض لنجوا بها، قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[2]، فمَنْ أحبَّه الله لم يعذّبه. وقوله تعالى: ﴿...فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾[3]، وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[4]»[5].

وإنَّ للجنّة باباً من أوسع أبوابها يُسمّى: (باب التائبين)، وذلك من مظاهر رحمانيّته ورحيميّته، اللتين هما من أتمّ صفات الله – تعالى – العليا، بل لا حدّ لهما أبداً، والبحث عن التوبة في جهاتٍ كثيرةٍ:

التوبة، وتعريفها، وحقيقتها:

التوبة معروفةٌ عند كلّ مَنْ يقترف ذنباً، ويعترف به عند الله تعالى، وهي بمعنى: الاعتذار المقرون بالاعتراف، المستلزم للرجوع إليه تعالى، بعد البُعد عنه بسبب الذنب، وهذا هو المعنى اللغويّ.

---

(١) الكافي – الشيخ الكليني ج ٢، ص ٤٣٥، ح٨.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٢٢.

(٣) سورة غافر: الآية ٧.

(٤) سورة الفرقان: الآية ٧٠.

(٥) الكافي – الشيخ الكليني ج ٢، ص ٤٣٢،ح٥.

وقد عرَّفها علماء الكلام والأخلاق بتعاريف متعدِّدةٍ، هي الأقرب إلى المعنى اللغويّ، ونحن نذكر تعريفين منها:

الأوّل: ما عن بعض علماء الكلام: أنَّها الندم على معصيةٍ من حيث هي، مع العزم على أنْ لا يعود إليها إذا قدر عليها.

الثاني: ما عن بعض علماء الأخلاق: أنَّها الرجوع إلى الله – تعالى –، بحلٍّ عقدة الإصرار عن القلب، ثمّ القيام بكلٍّ حقوق الربّ.

وهذان التعريفان مقتبسان ممّا ورد في الكتاب الكريم، والسُّنّة المقدَّسة.

والمستفاد من النصوص الواردة في المقام هو أنَّ حقيقة التوبة هي: الندم على الذنب، كما ورد في الأثر عنه عليه السلام: «**كفى بالندم توبةً**»(١).

وذلك لأنَّ الإنسان مزيج قوىً متخالفةٍ، ومركّبٌ من شهواتٍ متعدِّدة، تجذب كلّ قوّةٍ ما يلائمها من الخير أو الشرّ، كما هو مفصّلٌ في علم الأخلاق، فالقوّة العاقلة تجذب الإنسان إلى الفضيلة، وتمنعه عن الرذيلة، والقوّة الشهويّة ترغّبه إلى ما تشتهيه، والقوى الغضبيّة تورده إلى المهالك والأخطار، إنْ لم يمسكها بزمام العقل.

والإنسان الكامل هو المدبِّر لهذه القوى المتخالفة، وهو الملائم بينها بالتوفيق بينها، بحيث لا تخرج كلّ قوّةٍ عن الحدّ الّذي عُيِّن لها، فيجلب بذلك سعادة الدارين، وهو في مسيره الاستكماليّ لا يسلم من الموانع والعوائق الّتي تعيقه عن سيره إذا لم يتغلَّب عليها بالحكمة، والتدبير.

---

(١) التوحيد– الشيخ الصدوق، ص ٤٠٨.

ومن جملة تلك الموانع: المعاصي والذنوب، فإذا اعترض على الإنسان ذنبٌ يرى نفسه بين أمرين مخيّراً بينهما، إمّا الفعل وما يتعقّبه من الآثار، أو الترك وما يلزمه من راحة النفس، والفوز بالسعادة، وهذا وجدانيٌّ لكلِّ فاعلٍ مختارٍ، فإذا عزم على الفعل، وأقدم على الارتكاب، تحصل في نفسه حالةٌ خاصّةٌ توجب الندامة، والخجل، والحياء المسمّى بـ "تأنيب الضمير" في علم النفس المعاصر، وقد اعتبر الشارع هذه الحالة هي التوبة، قال نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: «**التوبة ندامةٌ**»، وعن الصادق عليه السلام: «**كفى بالندم توبةً**»(١).

والسرُّ في ذلك: أنَّ هذه الحالة تكشف عن تغليب العقل والقوى الخيّرة على الجانب الآخر، وهي تدعو إلى ترك الذنب في المستقبل، والارتداع عن المعصية، ولذا قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**إنَّ الندم على الشرّ يدعو إلى تركه**»(٢)، وتتكرّر هذه الحالة النفسيّة عقيب كلّ ارتكابٍ للمعصية، ما لم تترسَّخ المعاصي في النفس، فيهون عنده ارتكاب الذنوب، واقتراف الآثام، فيستولي عليه الفساد بالإصرار، ويقسو قلبه، وهذه هي حالة إحاطة الخطيئة بالإنسان، كما ورد في القرآن الكريم، وقد أشار الله - تعالى - إليها بقوله عزّ وجلّ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(٣).

وتزول هذه الحالة بإتيان الأعمال الصالحة، ومزاولة الطاعات، وتقوية النفس بالحسنات، وترويضها بالأخلاق الفاضلة.

---

(١) الكافي - الشيخ الكليني ج ٢، ص ٤٢٦، ح١.

(٢) الكافي - الشيخ الكليني ج ٢، ص ٤٢٧، ح٧.

(٣) سورة المطفّفين: الآية ١٤.

ومِن ذلك يُعلم أنَّ تعريف التوبة بالندم هو أقرب إلى ما يُتحصَّل من الروايات، وأمّا تعريفها بالرجوع والارتداع عن المعصية في المستقبل، فهو تعريفٌ باللازم الحاصل من الندم.

وإذا عرفت أنَّ التوبة حقيقةً هي الندم، فلا بدّ وأنْ يكون - هذا الندم - منبعثاً عن حرقة القلب، والشعور بالحياء منه عَزَّوَجَلَّ، والخجل عمّا صدر منه، كما في بعض الروايات: «**إنَّ الرجل يذنب، فلا يزال خائفاً، ماقتاً لنفسه، فيرحمه الله، فيدخله الجنّة**»[1].

وأمّا إذا كان الندم حاصلاً من اطّلاع الغير عليه، أو خوفه من إعراض المجتمع عنه، أو سقوط منزلته عند الناس، فلا أثر له، بل لا بدّ من أنْ تسوء سيّئته، كما ورد في الخبر[2].

وجوب التوبة:

التوبة من الذنب واجبةٌ على الإنسان بالأدلّة الأربعة:

الأوّل: الكتاب الكريم: وتدلّ عليه آياتٌ كريمةٌ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى

(١) وسائل الشيعة- الشيخ الحر العاملي ج ١٦، ص ٦١، ح٢. ما وجدناه هذا متنه: عن بعض أصحابه، عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: سمعته يقول:«إنَّ الرجل ليذنب الذنب فيدخله الله به الجنة. قلت: يدخله الله بالذنب الجنة؟! قال: نعم، إنَّه يذنب فلا يزال خائفاً، ماقتاً لنفسه، فيرحمه الله، فيدخله الجنة».

(٢) مواهب الرحمن، آية الله العظمى السيد عبد الأعلى السبزواري ج ٢، ص٢٣٣- ٢٣٥.

اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ...﴾[2]، إلى غير ذلك من الآيات، وتدلّ عليه الآيات الكثيرة الدالّة على إتيان الحسنات، بضميمة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾[3]، ومن أجلِّ الحسنات الفرائض.

الثاني: السنة الشريفة، والأخبار في وجوبها متواترةٌ بين الفريقين بمضامين مختلفة:

ففي الكافي: عن جابر الجعفيّ، عن أبي جعفر عليه السلام - في قول الله عزّ وجلّ: ﴿...وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[4] - قال: «**الإصرار هو أن يذنب الذنب، فلا يستغفر الله، ولا يحدِّث نفسه بتوبةٍ، فذلك الإصرار**»[5].

وفي مهج الدعوات: عن الرضا عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: اعترفوا بِنعم الله ربّكم، وتوبوا إلى الله من جميع ذنوبكم، فإنَّ الله يحبّ الشاكرين من عباده**»[6].

---

(١) سورة النور: الآية ٣١.

(٢) سورة التحريم: الآية ٨.

(٣) سورة هود: الآية ١١٤.

(٤) سورة آل عمران: الآية ١٣٥.

(٥) الكافي- الشيخ الكليني ج ٢، ص ٢٨٨، ح٢.

(٦) وسائل الشيعة- الشيخ الحر العاملي ج ١٦، ص ٧٦، ح١٦.

وفي الكافي: - أيضاً - عن أبي الحسن الماضي عليه السلام قال: «**ليس منّا مَنْ لم يحاسب نفسه في كلِّ يومٍ، فإنْ عمل حسناً استزاد الله، وإنْ عمل سيّئاً استغفر الله منه، وتاب إليه**»(١).

وفي الكافي: عن أبي بصيرٍ قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا...﴾(٢)؟ قال: «**هو الذنب الّذي لا يعود فيه أبداً، قلتُ: وأيّنا لم يعدْ؟! فقال: يا أبا محمّدٍ، إنّ الله يحبّ من عباده المفتن التوّاب**»(٣).

الثالث: إجماع المسلمين على وجوب التوبة، وهو لا ريب فيه.

الرابع: دليل العقل: فإنَّ حدوث المخالفة والبقاء عليها قبيحٌ عقلاً، وترك كلّ قبيحٍ واجبٌ عقلاً، وشرعاً، ولا يتحقّق ذلك إلا بالتوبة.

وبتقريبٍ آخر: إنَّ المعاصي من المهلكات، وإنّها تجلب الضرر على العاصي، ولا ريب في وجوب دفع الضرر عقلاً.

فوريّة وجوب التوبة:

بعدما ثبت أصل وجوبها، يكون هذا الوجوب فوريّاً، وتدلّ عليه أُمورٌ:

الأوّل: ظاهر أدلّة وجوب التوبة عن المعاصي.

---

(١) الكافي- الشيخ الكليني ج ٢، ص ٤٥٣، ح٢.

(٢) سورة التحريم: الآية ٨.

(٣) الكافي- الشيخ الكليني ج ٢، ص ٤٣٢، ح٤.

الثاني: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[1].

الثالث: أنَّ بقاء العصيان في النفس من أقذر القذارات المعنويّة، والفطرة تحكم بفوريّة إزالتها.

الرابع: الإجماع القائم على الفورية.

الخامس: الأخبار الكثيرة الدّالّة عليها، ومنها رواية مسعدة بن صدقة، عن جعفر بن محمّدٍ عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: طوبى لِمَنْ وجد في صحيفة عمله يوم القيامة تحت كلّ ذنبٍ: (أستغفر الله)**»[2].

وفي وصيّة النبيّ صلى الله عليه وآله لأبي ذرٍّ قال: «**اتّقِ الله حيثما كنت، وخالق الناس بخلقٍ حسنٍ، وإذا عملت سيّئةً فاعمل حسنةً تمحوها**»[3]، وفي وصيّة لقمان لابنه: «**يا بنيّ، لا تؤخّر التوبة؛ فإنّ الموت يأتي بغتةً...**»[4].

ومنها الروايات الكثيرة الدالّة على إمهال العاصي سبع ساعات، فقد ورد في الكافي: عن أبي بصيرٍ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**مَنْ عمل سيّئةً أُجِّلَ فيها سبع ساعاتٍ من النهار، فإنْ قال: (أستغفر الله الّذي لا إله إلا هو، الحيّ، القيّوم) ثلاث**

---

(١) سورة النساء: الآية ١٧.

(٢) وسائل الشيعة – الشيخ الحر العاملي ج ١٦، ص ٦٩، ح ١٤.

(٣) مسند احمد – الإمام احمد بن حنبل ج ٥، ص ١٧٧.

(٤) بحار الأنوار – العلامة المجلسي ج ١٣، ص ٤٢٦،ح٢١.

مرّاتٍ، لم تُكتب عليه»[(١)].

ويُستفاد من مجموع هذه الأخبار أنَّ التوبة من الطاعات، ومن الأمور العباديّة.

شروط التوبة:

قد ذكر العلماء للتوبة شروطاً كثيرةً، وهي على قسمين: شروطٌ لصحّة التوبة، فلا تصحّ إلا إذا اجتمعت فيها تلك الشروط، وشروطٌ لكمالها، ومع فقدها لا تكون كاملةً، ولا مقبولةً.

أمّا القسم الأوّل: فهي ثلاثةٌ:

الأوّل: الندم، وقد ذكرنا سابقاً أنَّ حقيقة التوبة هي الندم على الذنب، ويدلّ على اعتبار هذا الشرط ما تقدّم من الأخبار، وقوله صلى الله عليه وآله: «**كفّارة الذنب الندامة**»[(٢)]، وما رواه في الكافي عن الصادق عليه السلام: «**مَن سرّته حسنته، وساءته سيّئته، فهو مؤمنٌ**»[(٣)]، إلى غير ذلك من الأخبار.

الثاني: أنْ ينوي عدم العود إلى ذلك الذنب؛ لأنَّ حقيقة الندم لا تتحقّق إلا بذلك - كما تقدّم -، وتدلّ عليه جملةٌ من الأخبار - كما سيأتي -، والمعتبر من هذا الشرط ترك العود إلى الذنب الّذي سبق مثله، وأمّا الذنب الّذي لم يسبق صدوره منه، فنيَّة تركه لا يكون من التوبة، بل هي من التقوى.

---

(١) الكافي- الشيخ الكليني ج ٢، ص ٤٣٧، ح٢.

(٢) المعجم الكبير- الطبراني ج ١٢، ص ١٣٤.

(٣) الكافي- الشيخ الكليني ج ٢، ص ٢٣٢، ح ٦.

ثمَّ إنَّ العزم على ترك المعصية في المستقبل بعد تحقُّق الندم عنها فعلاً، إنْ كان كاشفاً عن تحقّق حقيقة الندم من كلّ جهةٍ، فلا ريب في اعتباره؛ لأنَّه مع عدمه لا تتحقّق حقيقة الندم الفعليّ كما عرفت.

وأمّا إذا تحقّق الندم فعلاً، ولم يتحقّق العزم على الترك لعدم التوجّه إليه، فلا دليل على اعتباره حينئذٍ، بل يُستفاد من بعض النصوص عدمه، فقد روى الكلينيّ في الكافي عن أبي بصيرٍ: «**قلتُ لأبي عبد الله** عليه السلام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا...﴾[1] **قال: هو الذنب الّذي لا يعود فيه أبداً، قلت: وأيّنا لم يعدْ؟! فقال: يا أبا محمّدٍ، إنّ الله يحبّ من عباده المفتن التوّاب**»[2].

والمراد من المفتن: مَنْ يذنب، ويتوب، ثمّ يعود.

ونحوه من الأخبار.

الثالث: أداء الحقوق، وردّها إلى أهلها، وفي الحديث: «**لا توبة حتّى تؤدّي إلى كلّ ذي حقٍّ حقّه**»[3]، وفي حديثٍ آخر: «**الظلم الّذي لا يدعه الله، فالمداينة بين**

---

(١) سورة التحريم: الآية ٨.

(٢) الكافي- الشيخ الكليني ج ٢، ص ٤٣٢، ح٤.

(٣) روى الكافي عن شيخ من النخع قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: «إنّي لم أزل والياً منذ زمن الحجاج إلى يومي هذا، فهل لي من توبة؟ قال: فسكت، ثم أعدت عليه، فقال: لا، حتى تؤدّي إلى كل ذي حقّ حقّه». الكافي- الشيخ الكليني ج ٢، ص ٣٣١،ح٣.

العباد»[١]، إلى غير ذلك من الأخبار.

وأمّا القسم الثاني:

وهي شروط الكمال، فقد جمع أمير المؤمنين عليه السلام المهمّ منها في قوله: «...الاستغفار درجة العليّين، وهو اسمٌ واقعٌ على ستّة معانٍ:

أوّلها: الندم على ما مضى.

والثاني: العزم على ترك العود إليه أبداً.

والثالث: أنْ تؤدّي إلى المخلوقين حقوقهم، حتّى تلقى الله عزّ وجلّ أملس، ليس عليك تبعةٌ.

والرابع: أنْ تعمد إلى كلّ فريضةٍ عليك ضيّعتها، فتؤدّي حقّها.

والخامس: أنْ تعمد إلى اللحم الّذي نبت على السحت، فتذيبه بالأحزان، حتّى يلصق الجلد بالعظم، وينشأ بينهما لحمٌ جديدٌ.

والسادس: أنْ تذيق الجسم ألم الطاعة، كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول: أستغفر الله»[٢].

---

(١) عن أبي جعفر عليه السلام قال: «الظلم ثلاثة: ظلم يغفره الله، وظلم لا يغفره الله، وظلم لا يدعه الله، فأما الظلم الذي لا يغفره فالشرك، وأما الظلم الذي يغفره فظلم الرجل نفسه فيما بينه وبين الله، وأما الظلم الذي لا يدعه فالمداينة بين العباد «.- الكافي- الشيخ الكليني ج ٢، ص ٣٣٠، ح١.

(٢) وسائل الشيعة- الشيخ الحر العاملي ج ١٦، ٧٧، ح٤.

ولا يخفى أنّه عليه السلام جمع في كلامه كلا القسمين من الشروط.

ومن شروط الكمال أنْ يترك المعصية لأجل المعصية، لا لأجل شيءٍ آخر من حياءٍ، أو خجلٍ، أو غير ذلك، بل تركها لأجل نقصٍ في عضوٍ، أو عدم الإمكان، لا يُسمَّى توبةً، وهذا ظاهرٌ.

قبول التوبة:

إذا تحقَّقت التوبة من العبد، وكانت مستجمعةً للشرائط، تكون مقبولةً لا محالة، ويدلّ على ذلك أمورٌ:

الأوّل: قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(١).

وتُستفاد من هذه الآية قاعدةٌ كليّةٌ، وهي أنَّ كلّ ما هو من صغريات الرحمة بينه عزّ وجلّ وبين عباده، يكون واجباً عليه عزّ وجلّ؛ لأنّه كتب على نفسه ذلك، فقبول التوبة الجامعة للشرائط ممّا أوجبه الله على نفسه، فيُستغنى بذلك عن قاعدة اللطف الّتي أثبتوها في علم الكلام.

ويدلّ عليه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾(٢).

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٥٤.

(٢) سورة النساء: الآية ١١٠.

الثاني: الأخبار الكثيرة الدالّة على لزوم قبول التوبة، ففي الحديث عن نبيّنا الأعظم ﷺ أنّه قال: «**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**»[١]، وفي الخبر عن محمّد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**يا محمّد بن مسلم، ذنوب المؤمن - إذا تاب منها- مغفورةٌ له، فليعمل المؤمن لما يستأنف بعد التوبة والمغفرة، أما والله إنّها ليست إلا لأهل الإيمان.**

قلتُ: فإنْ عاد بعد التوبة والاستغفار من الذنوب، وعاد في التوبة؟!

فقال: يا محمّد بن مسلم، أترى العبد المؤمن يندم على ذنبه، ويستغفر منه، ويتوب، ثمّ لا يقبل الله توبته؟!

قلتُ: فإنّه فعل ذلك مراراً، يذنب، ثمّ يتوب، ويستغفر [الله].

فقال: كلّما عاد المؤمن بالاستغفار والتوبة، عاد الله عليه بالمغفرة، وإنَّ الله غفورٌ رحيمٌ، يقبل التوبة، ويعفو عن السيّئات، فإيّاك أنْ تقنّط المؤمنين من رحمة الله»[٢].

وروى ابن بابويه في ثواب الأعمال عن أبي بصيرٍ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**أوحى الله عزّ وجلّ إلى داود النبيّ عليه السلام: يا داود، إنَّ عبدي المؤمن إذا أذنب ذنباً ثمّ رجع، وتاب من ذلك الذنب، واستحيا منّي عند ذكره، غفرتُ له، وأنسيته الحفظة، وأبدلته الحسنة، ولا أبالي، وأنا أرحم الراحمين**»[٣]، والروايات في ذلك كثيرةٌ.

---

(١) عيون أخبار الرضا- الشيخ الصدوق ج ١، ص ٧٩، ح٣٤٧.

(٢) الكافي- الشيخ الكليني ج ٢، ص ٤٣٤، ح٦.

(٣) ثواب الأعمال- الشيخ الصدوق، ص ١٣٠.

الثالث: يمكن الاستدلال عليه بالدليل العقليّ أيضاً، وهو أنَّ الإنسان السائر في مسير الاستكمال الأبديّ - والّذي هو أشرف موجودات هذا العالم، بل لم يُخلق العالم إلا لأجله، ومع ذلك فهو ضعيفٌ، كما قال تعالى: ﴿...وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾[1] - قرين النفس الأمّارة، ومحاطٌ بالشهوات المادّيّة، والشيطان يحوط به إحاطة العروق بالدم، وجميع ذلك له دخلٌ في نظام التكوين، والتشريع، كما ثبت بالبراهين القطعيّة في الفلسفة العمليّة، وحينئذٍ، فلو كان صرف وجود العصيان مانعاً دائميّاً عن إفاضة المُبدئ القيّوم فيضه عليه، لزم تعطيل أعظم المخلوقات عمّا خُلق له، وهو قبيحٌ، والقبيح محالٌ بالنسبة إليه عزّوجلّ، فيحسن قبول التوبة منه تعالى، ويرشد إلى ذلك ما في القدسيّات: «بمعصية ابن آدم عمرت العالم» منه يظهر سرّ ابتلاء آدم بما ابتُلي به في بدأ الهبوط، كما يظهر شرح قوله عليه السلام: «**إنَّ الله يحبّ المفتن التوّاب**»[2].

فاليأس عن قبول التوبة معصيةٌ كبيرةٌ، ولو عصى العبد مرّاتٍ عديدة؛ لأنّهٌ يَئس من رحمة الله تعالى، وهو من المعاصي الكبيرة، وعن عليٍّ عليه السلام في بعض دعواته الشريفة: «**اللهمّ إنَّ استغفاري إيّاك - وأنا مصرٌّ على ما نهيت - قلّة حياءٍ، وتركي الاستغفار - مع علمي بسعة حلمك - تضييعٌ لحقّ الرجاء...**»[3] [4].

---

(١) سورة النساء: الآية ٢٨.

(٢) الكافي- الشيخ الكليني ج ٢، ص ٤٣٢، ح٤. تقدمت هذه الرواية في شروط التوبة، فلاحظ.

(٣) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٨٤، ص ٢٨٥،ح٧٧.

(٤) مواهب الرحمن، آية الله العظمى السيد عبد الأعلى السبزواري ج ٢، ص ٢٣٩- ٢٤١.

موارد التوبة:

تصحُّ التوبة من جميع الذنوب والخطايا، سواءً كانت من الكبائر أم الصغائر، وهي توجب محوها إذا اجتمعت فيها الشرائط، وتدلّ على ذلك آياتٌ من الكتاب الكريم، ورواياتٌ من السُنَّة الشريفة.

أمّا الآيات: فمنها قوله تعالى: ﴿...مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾(٢).

ويدلّ على خصوص التوبة عن الكبائر قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾(٣).

وأمّا ما يدلّ على صحّة التوبة عن الصغائر فهو كثيرٌ، قال تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا

---

(١) سورة النور: الآية ٣١.

(٢) سورة النساء: الآية ١١٠.

(٣) سورة الفرقان: الآيات ٦٨- ٧١.

كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾[١]، والآيات في ذلك كثيرةٌ.

وأمّا الروايات: فهي مستفيضةٌ، منها ما رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: **«اعترفوا بنعم الله ربّكم، وتوبوا إلى الله من جميع ذنوبكم، فإنَّ الله يحبّ الشاكرين من عباده»**[٢].

وفي تفسير القمّي: عن زرارة، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: **«لمّا أعطى الله إبليس ما أعطاه من القوّة، قال آدم: يا ربّ، سلَّطت إبليس على وِلْدي، وأجريته منهم مجرى الدم في العروق، وأعطيته ما أعطيته، فمالي ولوِلْدي؟**

قال: لك ولوِلْدك السيّئة بواحدةٍ، والحسنة بعشر أمثالها.

قال: يا ربّ، زدني.

قال: التوبة مبسوطةٌ إلى أنْ تبلغ النفس الحلقوم.

قال: يا ربّ، زدني.

قال: أغفر ولا أبالي.

قال: حسبي»[٣].

ورُوي في الكافي عن سليمان بن خالد، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «﴿إِنَّ

---

(١) سورة النساء: الآية ٣١.

(٢) وسائل الشيعة – الشيخ الحر العاملي ج ١٦، ص ٧٦، ح١٦.

(٣) وسائل الشيعة – الشيخ الحر العاملي ج ١٦، ص ٨٨، ح٥.

اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾[(١)] **الكبائر فما سواها، قال: قلتُ: دخلت الكبائر في الاستثناء؟ قال: نعم»**[(٢)].

والروايات الدالّة على صحّة التوبة من الكبائر والصغائر كثيرةٌ جداً، تقدّم بعضها.

ثمّ إنّه ورد أنّه لا تقبل التوبة عن بعض الذنوب، منها ما ورد من عدم قبول توبة من أحدث ديناً، وما ورد من عدم قبول التوبة عن الشرك، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ...﴾[(٣)]، وعدم قبول توبة المرتدّ.

ولكنّ الحقّ أنْ يُقال: إنَّ جميع تلك الموارد لا بدّ وأنْ تُحمل إمّا على عدم وقوع التوبة مستجمعةً للشرائط، أو الموت على الشرك، وعدم التوبة منه، وإلا فإنَّ الإسلام يهدم الشرك بلا إشكال، وتدلّ على ذلك رواياتٌ.

منها: صحيحُ عن أبي بصير، عن أبي جعفر عليه السلام في حديث الإسلام والإيمان، قال: **«ومن شهد أنْ لا إله إلا الله – إلى أنْ قال: – ولم يلقَ الله بذنبٍ أوعد عليه النار، فهو مؤمنٌ.**

قال أبو بصير: جُعلت فداك، وأيّنا لم يلقَ الله بذنبٍ أو عد عليه النار؟ فقال: ليس هو حيث تذهب، إنّما هو من لم يلقَ الله بذنبٍ أوعد عليه النار ولم يتبْ

---

(١) سورة النساء: الآية ٤٨.

(٢) الكافي- الشيخ الكليني ج ٢، ص ٢٨٤، ح١٨.

(٣) سورة النساء: الآية ٤٨.

منه»[١].

وأمّا المرتدّ: فتُقبل توبته مطلقاً، فطريّاً كان أو مِلّيّاً، على ما فصّلناه في الفقه، ومَنْ شاء فليراجع كتابنا " مهذّب الأحكام "، ويدلّ على القبول صحيح محمّد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام قال: **«مَنْ كان مؤمناً فعمل خيراً في إيمانه، ثمّ أصابته فتنةٌ، فكفر، ثمّ تاب بعد كفره، كتب له، وحوسب بكلّ شيءٍ كان عمله في إيمانه، ولا يبطله الكفر إذا تاب بعد كفره»**[٢].

إنْ قلتَ: إنَّه قد ورد في بعض الأخبار نفي الإيمان عمَّن يذنب بعض الذنوب، وإثبات الكفر له، ففي الخبر عن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: **«لا يزني الزاني وهو مؤمنٌ، ولا يسرق السارق وهو مؤمنٌ»**[٣]، ومثله غيره.

قلتُ: يُحمل ذلك على نفي بعض مراتب الإيمان، أو إثبات بعض مراتب الكفر، ويدلّ عليه ما رواه زرارة قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: **«أرأيتَ قول رسول الله صلى الله عليه وآله: لا يزني الزاني وهو مؤمن؟**

قال: يُنزع منه روح الإيمان»[٤].

ولا يدلّ ذلك على سلب الإيمان منهم بالكلّيّة، أو أنَّ العاصي بذلك لا مؤمنٌ

---

(١) معاني الأخبار- الشيخ الصدوق، ص ٣٨١، ح١٠.

(٢) الكافي- الشيخ الكليني ج ٢، ص ٤٦١، ح١.

(٣) الكافي- الشيخ الكليني ج ٢، ص ٢٨٤، ح٢١.

(٤) وسائل الشيعة- الشيخ الحر العاملي ج ١٥، ص ٣١٧، ح٩.

ولا كافرٌ، كما يقوله بعض المعتزلة، وللكلام تتمّةٌ، تأتي في المحلّ المناسب إنْ شاء الله تعالى[١].

التوبة وزمانها:

إنّ من رحمته – تعالى – ومَنّه على عبده، أنْ فتح لهم باب التوبة بمصراعيه، ومن عظيم لطفه جعله مفتوحاً أمام العاصين، حتّى تبلغ النفس إلى الحلقوم، ويدلّ على ذلك رواياتٌ مستفيضةٌ، منه ما رواه الكلينيّ في الكافي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: **«مَنْ تاب قبل موته بسنةٍ قبل الله توبته، ثمّ قال: إنّ السنة لكثيرٌ، مَنْ تاب قبل موته بشهرٍ قبل الله توبته، ثمّ قال: إنّ الشهر لكثيرٌ، ثمّ قال: مَنْ تاب قبل موته بجمعةٍ قبل الله توبته، ثمّ قال: وإنّ الجمعة لكثيرٌ، مَنْ تاب قبل موته بيومٍ قبل الله توبته، ثمّ قال: إنّ يوماً لكثيرٌ، مَنْ تاب قبل أنْ يعاين قبل الله توبته»**[٢].

ورُوي في الكافي – أيضاً – عن أحدهما عليه السلام: **«إنّ الله عزّ وجلّ – قال لآدم عليه السلام:... جعلت لك أنّ مَنْ عمل منهم سَيّئةً ثمّ استغفر له، غفرتُ له.**

قال: يا ربّ، زدني.

قال: جعلت لهم التوبة – أو قال: بسطت لهم التوبة – حتّى تبلغ النفس هذه.

قال: يا ربّ حسبي»[٣].

---

(١) مواهب الرحمن– آية الله العظمى السيد عبد الأعلى السبزواري ج ٢، ص ٢٤٢– ٢٤٣.

(٢) وسائل الشيعة– الشيخ الحر العاملي ج ١٦، ص ٨٧، ح ٣.

(٣) الكافي– الشيخ الكليني ج ٢ ص ٤٤٠،ح١.

إلى غير ذلك من الروايات الكثيرة...[١]

السبل لمحو الذنوب:

تقدَّم أنَّ الذنوب – كلّها – قابلةٌ للتكفير عنها، ومحوها، والتوبة عنها، ولذلك طرقٌ كثيرةٌ، وهي إمّا أنْ تكون محدّدةً ومعيّنةً في الشرع، فلا تصحّ بغيرها، وإمّا ألاّ تكون كذلك.

والجامع بين القسمين هو الندامة، والمجاهدة على ترك الذنب، وإرضاء صاحب الحقّ – خالقاً كان أو مخلوقاً –، فطرق التوبة على قسمين:

القسم الأوّل: الطرق الّتي عيّنها الشارع، وجعل لها حدوداً وشروطاً، لا تصحّ التوبة بغيرها، وهي كثيرةٌ:

منها: الإسلام، فإنَّه يهدم الشرك، والآيات والروايات فيه متواترةٌ، ويكفي في ذلك قوله صلى الله عليه وآله – المشهور بين الفريقين –: «**الإسلام يجبّ ما قبله**»[٢].

ومنها: قضاء الطاعات الواجبة، مثل الصلاة، والصوم، والحجّ، والزكاة، والخمس، فإنَّ التوبة – المقرّرة في الشريعة – عن الذنب الحاصل من تركها هي قضاؤها، على ما هو المفصَّل في علم الفقه.

ومنها: أداء حقوق الناس إنْ ضيَّعها، سواءً كان الحقّ ماليّاً، أو جنايةً على

---

(١) مواهب الرحمن – آية الله العظمى السيد عبد الأعلى السبزواري ج ٢، ص ٢٤٣– ٢٤٤.

(٢) مستدرك الوسائل – الميرزا النوري ج ٧، ص ٤٤٨،ح٢.

النفس،أو حقّاً أدبيّاً أخلاقيّاً، والتوبة عن الذنب الحاصل من تضييعها أداؤها، والاسترضاء من صاحب الحقّ، أو القصاص، أو إخراج الدية، كما هو مفصّلٌ في كتب الفقه.

ومنها: إظهار الخلاف، وإعلام الناس ببطلان ما أظهره، كما لو استحدث ديناً جديداً، فطريق التوبة إظهار خلافه، وإعلام الناس ببطلانه، والإصلاح بعد الإفساد، قال تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(١).

وأمّا ما ورد عن الرضا عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**إنّ الله عزّ وجلّ غافر كلّ ذنبٍ، إلا مَنْ أحدث ديناً، أو أغصب أجيراً أجره، أو رجلٌ باع حرّاً**»(٢)، فإنّه محمولٌ على عدم تحقّق شرائط التوبة منه، بقرينة غيره من الروايات المتقدّمة.

القسم الثاني: الطرق العامّة الّتي جعلها الله – تعالى – وسيلةً للتوبة، والتكفير عن الذنوب والخطايا، وهي أيضاً كثيرةٌ.

ومنها: اجتناب الكبائر، فإنّه موجبٌ لمحو الصغائر، قال تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيمًا﴾(٣).

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٦٠.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام – الشيخ الصدوق ج ١، ص ٣٦، ح٦٠.

(٣) سورة النساء: الآية ٣١.

وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾(١).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾(٢).

وروى ابن بابويه في الفقيه عن الصادق عليه السلام: **«من اجتنب الكبائر كفّر الله عنه جميع ذنوبه، وذلك قوله** عزّ وجلّ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾(٣)»(٤).

وفي رواية محمّد بن الفضيل، عن أبي الحسن عليه السلام قال: **«... من اجتنب الكبائر ما أوعد الله عليه النار - إذا كان مؤمناً - كفّر الله عنه سيّئاته»**(٥)، ونحوهما غيرهما.

ومنها: إتيان الأعمال الصالحة، فإنّه كفّارةٌ للذنوب، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾(٦).

وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله: **«الصلوات الخمس - والجمعة - تكفّر ما بينهنّ إنْ**

(١) سورة الطلاق: الآية ٥.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٢٩.

(٣) سورة النساء: الآية ٣١.

(٤) مَن لا يحضره الفقيه- الشيخ الصدوق ج ٣ ن ص ٥٧٥، ح٤٩٦٧.

(٥) وسائل الشيعة- الشيخ الحر العاملي ج ١١، ص ٢٥٠، ح٥.

(٦) سورة هود: الآية ١١٤.

اجتنبت الكبائر»[١].

وقال عَلَيْهِ وَآلِه: **«أتبِع السيّئة الحسنة تمحُها...»**[٢].

وفي وصيّة النبيّ عَلَيْهِ وَآلِه لأبي ذرٍّ: **«اتّقِ الله حيثما كنت، وخالق الناس بخلقٍ حسنٍ، وإذا عملت سيّئةً فاعملْ حسنةً تمحوها»**[٣].

وفي صحيح يونس بن ظبيان، عن أبي عبد الله عليه السلام: **«... ومن عمل سيّئةً في السرّ، فليعمل حسنةً في السرّ، ومن عمل سيّئةً في العلانية، فليعملْ حسنةً في العلانية»**[٤].

وفي صحيح محمّد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعتُه يقول: **«ما أحسن الحسنات بعد السيئات، وما أقبح السيئات بعد الحسنات»**[٥].

ومنها: الاستغفار، فإنّه المحاة، وإنّه دواء الذنوب كما في الأثر، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[٦]، وقال تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا

---

(١) ما وجدته من حديث هو: أنّ رسول الله عَلَيْهِ وَآلِه قال: «الصلوات الخمس والجمعة كفارات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر». مسند أحمد- الإمام احمد بن حنبل ج ٢، ص ٤١٤.

(٢) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٦٨، ص ٣٩٣،ح٦٣.

(٣) وسائل الشيعة- الشيخ الحر العاملي ج ١٦، ص ١٠٤، ح٥.

(٤) معاني الأخبار- الشيخ الصدوق، ص ٢٣٦- ٢٣٧، ح١.

(٥) الكافي- الشيخ الكليني ج ٢ ص ٤٥٨، ح١٨.

(٦) سورة النساء: الآية ١١٠.

رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ...﴾[2].

وفي الحديث: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله يستغفر الله في كلّ يومٍ سبعين مرّةً، يقول: أستغفر الله ربّي، وأتوب إليه. وكذلك أهل بيته عليهم السلام، وصالح أصحابه، يقول الله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾[3]»[4].

وفي الحديث - أيضاً - قال رجلٌ: «**يا رسول الله، إنّي أذنب، فما أقول إذا تبتُ؟**

قال: استغفر الله. فقال: إنّي أتوب، ثمّ أعود.

فقال: كلّما أذنبت استغفر الله.

فقال: إذن تكثر ذنوبي.

قال: عفو الله أكثر، فلا تزال تتوب حتّى يكون الشيطان هو المدحور»[5].

وعن عمّار بن مروان قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «**مَن قال: أستغفر الله. مائة مرّة في يومٍ، غفر الله له سبعمائة ذنبٍ، ولا خير في عبدٍ يذنب في يومٍ سبعمائة**

(١) سورة هود: الآية ٩٠.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٣٥.

(٣) سورة هود: الآية ٩٠.

(٤) وسائل الشيعة - الشيخ الحر العاملي ج ١٦، ص٨١، ح٥.

(٥) وسائل الشيعة - الشيخ الحر العاملي ج ١٦، ص٨١، ح٥.

ذنبٍ»(١).

وفي رواية عبد الصمد بن بشير، عن أبي عبد الله عليه السلام أيضاً: «**إنَّ المؤمن ليذكر ذنبه بعد عشرين سنة، حتّى يستغفر ربّه، فيغفر له، وإنَّ الكافر لينساه من ساعته**»(٢).

والروايات في كون الاستغفار موجباً لمحو الذنوب كثيرةٌ جدّاً.

ومنها: الاستعانة بالله - بالصلاة والصيام - في غفران الذنوب، ففي الخبر عنهم عليهم السلام: «ما مِن عبدٍ أذنب ذنباً، فقام، فتطهَّر، وصلّى ركعتين، واستغفر الله، إلاَّ غفر له، وكان حقّاً على الله أنْ يقبله؛ لأنَّه سبحانه قال: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾(٣)»(٤).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «**ما أهمّني ذنبٌ أمهلت بعده، حتّى أصلّي ركعتين**»(٥).

وقد وردت رواياتٌ كثيرةٌ تدلّ على أنَّ صوم أيّام الأسبوع - أو أيّاماً من السنة - يوجب محو الذنوب، فراجع كتاب الصوم من الوسائل.

---

(١) وسائل الشيعة - الشيخ الحر العاملي ج ١٦، ص ٨٥، ح٣.

(٢) وسائل الشيعة - الشيخ الحر العاملي ج ١٦، ص ٨١، ح١.

(٣) سورة النساء: الآية ١١٠.

(٤) وسائل الشيعة - الشيخ الحر العاملي ج ١٦، ص ٧٩، ح٣.

(٥) وسائل الشيعة - الشيخ الحر العاملي ج ١٦، ص ٧٩،ح٢.

التبعيض في التوبة:

تصحّ التوبة عن بعض الذنوب دون بعضٍ؛ لتعدّد الذنوب؛ وتعدّد آثارها شرعاً، وعدم الارتباط بينها كذلك، سواءً كانت الذنوب الّتي يتوب عنها موافقةً - بالنوع - مع الذنوب الّتي لا يريد التوبة عنها، أو مخالفةً لها، كأنْ يريد التوبة عن الكذب دون الغيبة، أو يتوب عن شرب الخمر دون الزنا مثلاً، والدليل عليه - مضافاً إلى ذلك - إطلاقات الأدلّة وعموماتها، وتُسمَّى هذه بالتوبة المفصّلة.

وذهب بعض العلماء إلى عدم صحّة التوبة كذلك، بل يجب العموم - كما هو مذهب المسيحيّين - في التوبة؛ لأنّها إنّما تكون لسقوط استحقاق العقاب، ومع ثبوت الاستحقاق الفعليّ لسائر المعاصي لا موضوع للتوبة حينئذٍ.

وهو مردودٌ بأنّ اختلاف الجهة يدفع ذلك، فيرتفع الاستحقاق من جهةٍ، ويبقى من جهةٍ أُخرى، ولا تنافي بين الجهتين، كما لا يخفى.

نعم، لو كان بقاؤه على بعض المعاصي كاشفاً عن عدم تحقّق الندامة بالنسبة إلى ما تاب عنها، فلا تتحقّق التوبة حينئذٍ، وبه يمكن الجمع بين الكلمات، فراجع.

ومن جميع ما تقدّم يظهر - أيضاً - صحّة التوبة المؤقتّة، بأنْ يتوب عن الذنب مدّةً معيّنةً، ولا يذنب فيها[1].

---

(١) مواهب الرحمن- آية الله العظمى السيد عبد الأعلى السبزواري ج ٢، ٢٤٧- ٢٤٨.

صيغ التوبة:

للتوبة عباراتٌ متعدّدةٌ، منها: «أتوب إلى الله»، و«أستغفر الله»، و«أستغفر الله وأتوب إليه»، وغير ذلك ممّا تثبت التوبة بكلّ واحدةٍ منها، بعد تحقّق الندم من مرتكب المعصية - كما تقدَّم -، وليست فيها صيغةٌ خاصة[1].

أقسام التوبة:

التوبة على أنواعٍ:

منها: توبة الإنابة، وهي عبارةٌ عن الخوف من الله - جلَّ شأنه - لأجل قدرته على العاصي.

ومنها: توبة الاستجابة، وهي عبارةٌ عن الحياء من الله؛ لقربه من العبد.

ومنها: توبة العوامّ ، وهي ناشئةٌ عن الخوف من عذاب الله تعالى.

ومنها: توبة الخواصّ من الغفلة، وتوبة الأنبياء من ترك الأولى، والعجز عمّا ناله غيره، وهي أخصّ الخواص...[2].

مراتب التوبة:

أمّا مراتب التوبة فهي ثلاثٌ:

---

(١) مواهب الرحمن- آية الله العظمى السيد عبد الأعلى السبزواري ج ٢، ص ٢٤٨.

(٢) مواهب الرحمن- آية الله العظمى السيد عبد الأعلى السبزواري ج ٢، ص ٢٤٨.

الأولى: أنْ يتوب العبد عن الذنوب كلّها، ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره، ولا تصدر عنه المعاصي إلا اللمم والزلات، الّتي لا يخلو عنها غير المعصومين، وهي التوبة النصوح، المعبّر عنها في الروايات: «**أنْ يكون ظاهره كباطنه**»

الثانية: أنْ يتوب عن الذنوب، ويستقيم على الطاعات، إلاَّ أنَّه لا يخلو في حياته عن بعض ذنوبٍ قد تصدر منه، ولكنّه يندم، ويأسف على كلّ ما صدر عنه، وهذا هو معنى التوَّاب.

الثالثة: مثل السابقة، ولكنّه لا يحدِّث نفسه بالتوبة، ولا يأسف على ما صدر عنه[1].

التوبة في الأديان السماويّة:

لا تختصّ التوبة والتطهير عن الأدناس والخطايا بدين الإسلام فقط، بل تعمُّ جميع الأديان، وإنْ اختلفت في الكيفيّة والشروط، وقد ورد في القرآن الكريم توبة آدم عليه السلام، قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[2]، وقول موسى عليه السلام: ﴿...فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ...﴾[3]، وقال تعالى - حكايةً عن هود عليه السلام -:

---

(١) مواهب الرحمن- آية الله العظمى السيد عبد الأعلى السبزواري ج ٢، ص ٢٤٩.

(٢) سورة البقرة: الآية ٣٧.

(٣) سورة البقرة: الآية ٥٤.

﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ...﴾(١)، إلى غير ذلك من الآيات المباركة الدالّة على ذلك، ولكنّ التوبة عند أكثر المسيحيّين أحد أسرار الكنيسة السبعة، على تفصيلٍ مذكورٍ عندهم(٢).

ب- التائب مع الخلق:

ما تقدَّم كان الحديث عن حظّ العبد التائب مع خالقه التّوّاب الرحيم، وما يتعلّق بذلك المحور، أمّا حظّ العبد بلحاظ الخلق، وكيف ينبغي أنْ يكون العبد التائب الراغب إلى الله تعالى مع خلقه، فإنَّ الروايات أشارت أنَّ عليه التعامل معهم بكلّ رفقٍ، ورحمةٍ، وإحسانٍ، وتجاوزٍ عن كلّ خطيئةٍ صدرتْ منهم، صغيرةً كانت - تلك الخطيئة - أو كبيرةً؛ إذ أنَّ ذلك موجبٌ لتعامل الخالق معنا بكلّ رأفةٍ، ورحمةٍ، وإحسانٍ، بعد أنْ يرى منّا الإحسان والتجاوز عن المخطئين؛ حبّاً منّا لله، أو طمعاً منّا في مغفرته، وهذا ما كشفت عنه الروايات الكثيرة جدّاً، فنشير إلى بعض ذلك:

١- عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إذا أُوقف العباد نادى منادٍ: ليقم من أجره على الله، وليدخل الجنّة، قيل: مَنْ ذا الّذي أجره على الله؟**

قال: العافون عن الناس»(٣).

وعنه صلى الله عليه وآله: «**إذا عنت لكم غضبةٌ فأدُّوها بالعفو، إنّه ينادي منادٍ يوم القيامة:**

---

(١) سورة هود: الآية ٥٢.

(٢) مواهب الرحمن- آية الله العظمى السيد عبد الأعلى السبزواري ج ٢، ص ٢٤٩.

(٣) ميزان الحكمة- الشيخ محمد الري شهري ج ٦، ص ٣٦٧، ح١٢٨٧٣.

من كان له على الله أجرٌ فليقم، فلا يقوم إلا العافون، ألم تسمعوا قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ ؟!»(١).

إنَّ تعدّد خطابات الرسول ﷺ في هذا الموضوع بأنحاء متعدّدةٍ - وفي مواضع مختلفةٍ - دليلٌ على حرصه ﷺ لبيان أهمّيّة التخلّق بهذه الأخلاق الفاضلة، الّتي كانت - ولا زالت - نادرةً، بل تكاد أنْ تكون مفقودةً بين الناس.

وما هذا التكريم النموذجيّ العظيم لهم في دار الآخرة، وسهولة دخولهم الجنان، إلا لأنّهم بصعوبةٍ بالغةٍ تحمّلوا، وتجاوزوا، وعفوا عن الناس، من أجل الله تعالى، فكانوا نموذجيّين في الدنيا بأخلاقهم، فأكرمهم أكرم الأكرمين بذلك.

٢- عن رسول الله ﷺ: **«مَنْ لا يَرْحَم لا يُرْحَم، ومَنْ لا يَغْفِر لا يُغْفَر له، ومَنْ لا يتوب لا يتوبُ الله عليه»**(٢).

وعن الإمام عليٍّ عليه السلام: **«عجبتُ لِمَن يرجو رحمة مَنْ فوقه، كيف لا يرحم مَنْ دونه؟!»**(٣).

وعنه عليه السلام: **«ارحم مَنْ دونك، يرحمك مَنْ فوقك، وقس سهوه بسهوك، ومعصيته لك بمعصيتك لربّك، وفقره إلى رحمتك بفقرك إلى رحمة ربّك»**(٤).

---

(١) ميزان الحكمة- الشيخ محمد الري شهري ج ٦، ص ٣٦٧، ح١٢٨٧٤.

(٢) ميزان الحكمة- الشيخ محمد الري شهري ج ٤، ص ٦٩، ح٦٩٦٧.

(٣) ميزان الحكمة- الشيخ محمد الري شهري ج ٤، ص ٦٩، ح٦٩٦١.

(٤) ميزان الحكمة- الشيخ محمد الري شهري ج ٤، ص ٦٨، ح٦٩٦٠.

ففي هذه الروايات إشارةٌ واضحةٌ إلى التلازم الحاصل بين عفوك ورحمتك للآخرين - الّذين هم دونك -، وبين نيلك العفو والرحمة ممّن هو فوقك، وولّيٌّ لنعمتك، أي: أنّها تقول لك - وبكلّ اختصارٍ -: «كما تُدِين تُدَان».

٣- هناك دعوةٌ للتخلُّق بهذه الأخلاقيّات الرفيعة، الّتي وصف بها ربّ العزَّة نفسه المقدّسة، وتخلَّق بها أكرم عباده من الأنبياء، والأوصياء، والأمثل فالأمثل، فمَنْ كان حبّه لله أكثر، كان حظّه من هذه الصفات العليا أتمّ، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله: **«إنّ الله عفوٌّ يحبّ العفوّ»**[(١)]، وعنه صلى الله عليه وآله: **«إنّما يرحم الله من عباده الرُّحَماء»**[(٢)].

وعنه صلى الله عليه وآله: **«والّذي نفسي بيده، لا يدخل الجنّة إلا رحيمٌ.**

قالوا: كلّنا رحيمٌ.

قال: لا، حتّى ترحم العامّة»[(٣)].

فهذه الأحاديث الثلاثة تدلّ على منزلة وأهمّيّة التخلُّق بأخلاق الله تعالى، من العَفْو، والرحمة، والرحمانيّة، أمّا أنّها ديدن العظماء، فهذا واضحٌ، لا يحتاج إلى شاهدٍ، فسيرة الأنبياء، والأوصياء، والأولياء من بعدهم، هو التجاوز عن المسيئين، والإحسان لهم، وتاريخهم خير شاهدٍ على ذلك، ومع ذلك نشير إلى روايةٍ واحدةٍ من باب التبرّك بآثارهم عليهم السلام، فعن الإمام الصادق عليه السلام: **«إنّا أهل بيتٍ مروّتنا العفو عمّن**

---

(١) ميزان الحكمة- الشيخ محمد الري شهري ج ٦، ص ٣٦٧، ح١٢٨٧٧.

(٢) ميزان الحكمة- الشيخ محمد الري شهري ج ٤، ص ٦٩، ح ٦٩٦٨.

(٣) ميزان الحكمة- الشيخ محمد الري شهري ج ٤، ص ٦٩، ح ٦٩٦٩.

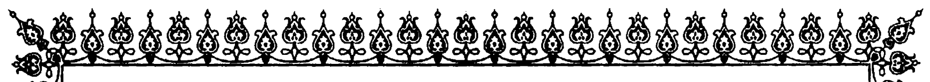
ظلمنا»[١].

ذِكرُ التَّوَّاب:

جاء في المصباح للشيخ الكفعميّ - نقلاً عن الشيخ البُرسيّ - أنَّه: «مَـن أكثـر ذكره - التوّاب - تاب الله عليه»[٢].

(١) ميزان الحكمة - الشيخ محمد الري شهري ج ٦، ص ٣٦٧، ح ١٢٨٨٠.

(٢) المصباح - الكفعمي، ص ٤٨٠.



الموضوع السادس والأربعون:

الجَلِيل

١- تجلّيات الجليل.

٢- فوائد الماء، والسبب في كثرته.

٣- العبد والجليل.

٤- الآخوند الخراسانيّ رحمه الله.

٥- الشيخ مرتضى الأنصاريّ رحمه الله.

٦- ذكر الجليل.

الجَلِيل

هذا الاسم الشريف لم يرد في القرآن الكريم بنصّه، ككثيرٍ من أسماء الله الحسنى، الّتي أشرنا إلى بعضها في السابق، إلا أنّه ورد في خطابات المعصومين عليهم السلام وأدعيتهم، وهو كافٍ في إثبات نسبة هذا الاسم لله تعالى، ومن جملة ما يمكن الاستشهاد به هو وروده في الحديث النبويّ المشهور، المتقدّم مراراً، حيث عدّه صلى الله عليه وآله من جملة أسماء الله الّتي من أحصاها دخل الجنّة[1].

كما ورد في دعاء المجير، والجوشن[2].

قال الغزاليّ:

«**الجليل:** هو الموصوف بنعوت الجلال... ونعوت الجلال هي الغنى، والملك،

---

(1) عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ لله تبارك وتعالى تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً، مَنْ أحصاها دخل الجنة، وهي: الله، الإله، الواحد، الأحد، الصمد، الأول،... التوّاب، الجليل..». التوحيد- الشيخ الصدوق، ص ١٩٤- ١٩٥،ح٨.

(٢) ورد في المجير: «سبحانك يا جليل، تعاليت يا جميل، أجرنا من النار يا مجير». مفاتيح الجنان – الشيخ عباس القمي ص ١٨٧.

والتقدّس، والعلم، والقدرة، وغيرها من الصفات الّتي ذكرناها، فالجامع لجميعها هو الجليل المطلق، والموصوف ببعضها جلالته بقدر ما نال من هذه النعوت.

فالجليل المطلق هو الله تعالى فقط، فكأنّ الكبير ترجع إلى كمال الذات، والجليل إلى كمال الصفات، والعظيم يرجع إلى كمال الذات والصفات، والعظيم يرجع إلى كمال الذات والصفات جميعاً، منسوباً إلى إدراك البصيرة إذا كان بحيث يستغرق البصيرة، ولا تستغرقه البصرة...»(١).

وقال الراغب الأصفهانيّ: «والجليل: العظيم القدر، ووصْفُهُ – تعالى – بذلك إمّا لخلقه الأشياء العظيمة، والمستَدَلّ بها عليه، أو لأنَّه يجلُّ عن الإحاطة به، أو لأنَّه يجلُّ أنْ يدرك بالحواسّ...»(٢).

تجلّيات الجليل:

إنَّ العبد – ومن خلال إعمال الفكر في عالم الإمكان والتكوين – ليتيقّن يقيناً لا يشوبه شكٌّ ولا ريبٌ أنَّ هذه المخلوقات العظيمة والجليلة لم تكن – ولن تبقى – إلا بموجدٍ عظيمٍ جليلٍ، أنشأها، ويرعاها، وما تقدَّم من أبحاثٍ في تجلّيات الأسماء خير دليلٍ، وهي قطرةٌ من بحر عجائب الخلق، وجليل قدرته ﷻ – وفي التعبير تسامحٌ –، وهنا – أيضاً – نشير إلى بعض تلك الجوانب، مستلهمين من رواية الإمام الصادق مع مفضّل بن عمر.

---

(١) المقصد الأسنى – الغزالي، ص ١٨٦.

(٢) المفردات في غريب القرآن – الراغب الأصفهاني، ص ٩٥.

فوائد الماء، والسبب في كثرته:

«ومِن تدبير الحكيم جَلَّوَعَلَا في خلقه الأرض، أنَّ مهبّ الشمال أرفع من مهب الجنوب(١)، فلِمَ جعل الله عَزَّوَجَلَّ كذلك إلا لتنحدر المياه على وجه الأرض، فتسقيها، وترويها، ثمّ تفيض آخر ذلك إلى البحر، فكما يرفع أحد جانبي السطح، ويخفض الآخر لينحدر الماء عنه، ولا يقوم عليه، كذلك جعل مهبّ الشمال أرفع من مهب الجنوب؛ لهذه العلة بعينها، ولو لا ذلك لبقي الماء متحيّراً على وجه الأرض، فكان يمنع الناس من أعمالها، ويقطع الطرق والمسالك، ثمّ الماء لو لا كثرته – وتدفّقه – في العيون، والأودية، والأنهار، لضاق عمّا يحتاج إليه الناس لشربهم، وشرب أنعامهم، ومواشيهم، وسقي زروعهم، وأشجارهم، وأصناف غلاّتهم، وشرب ما يرده من الوحوش، والطير، والسباع، وتتقلّب فيه الحيتان، ودوابّ الماء، وفيه منافع أخر أنت بها عارفٌ، وعن عظيم موقعها غافلٌ، فإنّه(٢) سوى الأمر الجليل المعروف من عظيم غنائه في إحياء جميع ما على الأرض من الحيوان والنبات، يمزج الأشربة، فتلذّ،

(١) أي: بعد ما خرجت الأرض من الكروية الحقيقية، صار ما يلي الشمال منها في أكثر المعمورة أرفع مما يلي الجنوب، ولذا ترى أكثر الأنهار – كدجلة، والفرات، وغيرهما – تجري من الشمال إلى الجنوب؛ لأن الماء الساكن في جوف الأرض تابع للأرض في ارتفاعه وانخفاضه، ولذا– أيضا – صارت العيون المتفجرة تجري هكذا من الشمال إلى الجنوب.. ومن أجل ذلك حكموا بفوقية الشمال على الجنوب. ويظهر لك مما بينه الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه لا ينافي كروية الأرض. (من تعليقات البحار). "هامش المصدر – وكذا ما يأتي – من هوامش هذا البحث".

(٢) الضمير راجع إلى الماء، وهو اسم إن، ويمزج خبرها.. أي: للماء سوى النفع الجليل المعروف، وهو كونه سببا لحياة كل شيء، ومنافع أخرى، منها: أنه يمزج مع الأشربة.

وتطيب لشاربها، وبه تنظّف الأبدان والأمتعة من الدرن[١] الّذي يغشاها، وبه يبلّ[٢] التراب، فيصلح للأعمال، وبه يكفّ عادية النار إذا اضطرمت، وأشرف الناس على المكروه، وبه يستحمّ المتعب الكالّ[٣]، فيجد الراحة من أوصابه، إلى أشباه هذا من المآرب الّتي تعرف عظم موقعها في وقت الحاجة إليها.

فإنْ شككت في منفعة هذا الماء الكثير المتراكم في البحار، وقلت ما الأرب فيه؟

فاعلم أنّه مكتنفُ –ومضطربُ– ما لا يُحصى من أصناف السمك، ودوابّ البحر، ومعدن اللؤلؤ، والياقوت، والعنبر، وأصنافٍ شتّى، تستخرج من البحر، وفي سواحله منابت العود اليلنجوج[٤]، وضروبٌ من الطيب، والعقاقير، ثمّ هو بعدُ مركَب للناس، ومحملٌ لهذه التجارات الّتي تجلب البلدان البعيدة، كمثل ما يُجلب من الصين إلى العراق، ومن العراق إلى الصين، فإنَّ هذه التجارات لم يكن لها محملٌ إلا على الظهر لبارت[٥]، وبقيت في بلدانها، وأيدي أهلها؛ لأنَّ أجر حملها يجاوز أثمانها، فلا يتعرّض أحدٌ لحملها، وكان يجتمع في ذلك أمران:

أحدهما: فقد أشياءٍ كثيرةٍ تعظم الحاجة إليها.

---

(١) الدرن– بفتحتين–: هو الوسخ، جمعه أدران.

(٢) بله الماء: نداه.

(٣) الكال: اسم فاعل من كل: تعب واعيا.

(٤) اليلنجوج: العود الطيب الرائحة.

(٥) أي: كسدت.

والآخر: انقطاع معاش من يحملها، ويتعيّش بفضلها»[١].

العبد والجليل:

كلّما كانت صفات الروح أقرب إلى الكمال، كان حظّه من هذا الاسم أكثر وأوفر.

وبعبارةٍ أخرى: كلّما كان الإنسان متحلّياً بمكارم الأخلاق، وفضائلها المتنوّعة، كان حظّه من الاسم الجليل أوفر، والتخلّق به آكد، فهو كالماء في نقائه وطهارته، يتطهّر كلّ من عاشره - أو صحبه - من شدّة طهارته، وكماله، فوجوده رحمةٌ من الباري لمجتمعه وبيئته، فهو كالماء في عدم إمكان استغناء الناس عنه؛ لكثرة أفضاله وخيراته على الأنام، فما من مسكينٍ، أو محتاجٍ، أو متعلّمٍ، أو متحيّرٍ، أو..... إلاّ وهو يقرع بابه؛ طمعاً ورغبةً فيه، فيزوّدهم بما منحه الله – تعالى – من عطايا، فيسخّرها في طاعة خلقه وعياله؛ تقرّباً إلى وليّ نعمته، لا يريد من الخلق جزاءً ولا شكوراً.

وإليك موقفين من مواقفهم، وقطرةً من بحر أخلاقهم:

الآخوند الخراسانيّ رحمه الله:

جاء حول الآخوند الخراسانيّ رحمه الله:

«كان يتحمّل كلّ الإساءات الّتي كانت توجَّه إليه من علماء السوء، بل إنّه - لشدة حيائه - كان يهتمّ بالقيام بالآداب الاجتماعيّة تجاه مصادر السوء أولئك، بل

---

(١) التوحيد- المفضل بن عمر الجعفي، ص ٩١-٩٣.

كان ذلك يزداد، وإذا واجه أحدهم مشكلةً ما، كان يبذل جهده لمساعدته، وكـان إذا جرى ذكرهم في مجلسه، يذكر أسماءهم مقرونةً بالتعظيم، ولم يكـن يجـرؤ أحـدٌ أنْ يذكرهم بسوءٍ في مجلسه.

في أحداث "المشروطة"، عندما وقع الخلاف بين الروحانيّين، كثيراً ما كان يتّفـق أنْ يضطرّ بعض أفراد الطـرف الآخـر إلى اللجـوء للآخونـد لحـلّ مشـاكل كانـت تواجههم، فكان يلبّي طلباتهم بكلّ رحابة صدرٍ.

ذات مرَّةٍ جاء شخصٌ، وكان من أشدّهم وقيعةً فيه، وذمّاً له، كان هذا الشخص من خطباء كربلاء المعروفين، وأراد أنْ يبيع بيته؛ ليسدّد ديونه، قال له المشتري: إذا وقَّع الآخوند على سند بيتك اشتريته، وإلاّ فلا.

ولم يكن ذلك الخطيب مستعدّاً أبـداً للـذهاب إلى الآخونـد؛ لأنَّـه قـد هـاجم الآخوند مراراً، وعلى رؤوس الأشهاد؛ لدفاعه عن المشروطة، ومن جهةٍ أخرى كان يخشى أنْ يتعرّض له أحدٌ من مؤيّديه عند الذهاب إليه، فيكون قد عـرّض نفسـه للخطر، ولكنّ ضغط الدَّيْن ألجأه إلى ذلك، فجاء مـن كـربلاء إلى النجـف، والْتقـى الشيخ الآخوند، احترمه الشيخ كثيراً، وأجلسه في صـدر المجلـس، وجلـس دونـه، وعبَّر عن سروره بلقائه، وبيَّن ذلك الشخص سبب مجيئه قائلاً: أرجو أنْ توقِّع هـذا السند؛ لأستطيع أنْ أبيع بيتي.

تناول الشيخ السند من يده، وقرأه، ثمَّ وضعه تحت الفراش.

اعتمل الحقد في قلب الخطيب، كان يقول في نفسه: أرأيـت؟! لقـد كشـف هـذا الرجل عن حقيقته، لم يوقّع السند، بل أخذه منّي، ولن أستطيع بيع البيت أبداً، وفي

هذه الأثناء قام الشيخ، وأخرج من خزانته عدَّة أكياسٍ من الليرات، ودفعها إلى ذلك الخطيب قائلاً: أنت من أهل العلم، وأنا لا أرضى أبداً بضغط الحاجة على أهل العلم، خذ هذا المبلغ، وأدِّ ديونك، ولا تبعْ بيتك، فتشرِّد عائلتك، وإذا احتجت -لا سمح الله- فتفضّل إلى هنا، إذا كان عندي ما تحتاجه فسأكون ممتنّاً.

يضيف ناقل القصَّة: عندما رأى الخطيب ذلك وسمع، غمره الحياء، وسيطر عليه الخجل، إلى حدٍّ أنَّه أصبح بعد ذلك من أنصار الشيخ ومحبّيه»[1].

الشيخ مرتضى الأنصاريّ رحمه الله:

كان رحمه الله يعتبر مساعدة الفقراء والمعوزين من وظائفه الحتميّة، وكان ذلك دأبه من صباه، وقد تواتر عن ثقاةٍ أنّه كان يوجد في مزار "مير محمّد" في محلّة حيدر خانه بدزفول فقيرٌ عاجزٌ، وكان الشيخ يقدِّم طعام عشائه كلّ ليلةٍ إلى ذلك الفقير، وينام جائعاً، أو يكتفي بأقلّ شيءٍ.

قال أحد كبار العلماء: «ذهبتُ إلى الشيخ، وقلتُ له: السيّد الفلانيّ – الّذي هو من فضلاء العصر – مضطرٌّ جدّاً، وامرأته مريضةٌ، فتفضّل بمساعدته.

قال الشيخ: ليس لديّ شيءٌ إلا مبلغ للصلاة والصوم الاستئجاريّين، فلأعطه سنتَي عبادة.

قلتُ: إنّه ابن عائلةٍ من العوائل الشريفة والكبيرة، ولم يعتدّ ذلك، وهو بالإضافة إلى ذلك يدرس، وهذه الأمور تنافي الدراسة.

---

(١) سيماء الصالحين– الشيخ رضي مختاري، ص ٢٧٧– ٢٧٩.

ففكَّر الشيخ قليلاً، وقال: أنا أؤدّي سنتَي العبادة، وخذ المال، وادفعه له. وهكذا كان، رغم كلّ مشاغله – كالتدريس، وأجوبة الاستفتاءات، وصلاة الجماعة، وعيادة المرضى، وزيارة الناس له، وردّ الزيارات، وتشييع الجنائز، والذهاب إلى بيوت الفقراء، والعبادات الشخصية، وإدارة الأمور الماليّة، وإصلاح المفاسد العامة – كان يؤدّي العبادة الاستئجاريّة، ويدفع أجرتها إلى الطلاّب.

كذلك ينقل السيّد علي الدزفولي – الّذي عُرف بالمحتاط لشدّة احتياطه – عن أحد أقربائه قوله:

ذهبتُ في النجف الأشرف تحت ضغط الفقر إلى الشيخ، وأطلعته على أحوالي.

قال الشيخ: ليس لديّ الآن شيءٌ أبداً، اذهب إلى فلان، وقل له يعطيك مبلغ سنتَي صلاةٍ، وخذ المال لك، وأنا أؤدّي السنتين.

وهكذا رضي الشيخ أنْ يصلّي هو، ويدفع المبلغ للسيّد؛ حتّى لا يردّه يائساً...»[١].

ذِكرُ الجليل:

جاء في المصباح للشيخ الكفعميّ – نقلاً عن العارف الشيخ البُرسيّ –: «مَن أكثر ذكره –الجليل– وقَّره كلّ مَنْ رآه، وهَابه»[٢].

---

(١) سيماء الصالحين– الشيخ رضي مختاري، ص ٣٠٣– ٣٠٤.

(٢) المصباح– الكفعمي، ص ٤٧٩.

الموضوع السابع والأربعون:

الـجَـوَاد

١- تجلّيات الجواد.

٢- العبد والجواد.

الجَوَاد

الجواد: هذا الاسم الشريف من جملة أسماء الله الحسنى المتسالم عليها لدى الفريقين، ولا يمنع عدم وروده في القرآن الكريم من إثباته له سبحانه، ومنشأ هذا التسالم ورود هذا الاسم الشريف في الكثير من مرويّات أهل بيت العصمة والطهارة، وأدعيتهم عليهم صلوات الله، من قبيل الحديث الشريف المرويّ عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله[1]، والأدعية من قبيل دعاء المجير[2]، ودعاء الجوشن الكبير[3]، وغير ذلك.

رُوي أنَّه سُئل أبو الحسن الأوّل عليه السلام - وهو في الطواف - عن الجواد، فقال:

---

(١) عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن لله تبارك وتعالى تسعة وتسعين اسماً، مائةً إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة، وهي: الله، الإله...الجليل، الجواد....». التوحيد- الشيخ الصدوق، ص ١٩٤- ١٩٥، ح٨.

(٢) في دعاء المجير تقرأ: «سبحانك يا جواد، تعاليت يا معاذ، أجرنا من النار يا مجير». مفاتيح الجنان- الشيخ عباس القمي، ص ١٨٧.

(٣) وفي دعاء الجوشن الكبير تقرأ: «يا حليماً لا يعجل، يا جواداً لا يبخل...». مفاتيح الجنان- الشيخ عباس القمي، ص ٢١٢، الفقرة: ١٠٠.

«إنَّ لكلامك وجهين، فإنْ كنت تسأل عن المخلوق، فإنَّ الجواد الّذي يؤدّي ما افترض الله عليه، وإنْ كنت تسأل عن الخالق، فهو الجواد إنْ أعطى، وهو الجواد إنْ منع؛ لأنّه إنْ أعطاك أعطاك ما ليس لك، وإنْ منعك منعك ما ليس لك»[1].

وقد علَّق العلاّمة المجلسيّ على هذه الرواية قائلاً:

«لعلّ المراد أنَّ المخلوق إنَّما يوصف بالبخل إنْ منع؛ لأنَّه لا يؤدي ما فرض الله عليه من حقوق الخلق، وأما الله – سبحانه – فلا يوصف بالبخل إنْ منع؛ لأنَّه ليس لأحدٍ حقٌّ على الله، فالمراد بقوله: "إنَّه جوادٌ إنْ منع" أنَّه ليس ببخيلٍ، أو أنَّه جوادٌ من حيث عطاياه الغير المتناهية الآخر، وهذا المنع لا ينافي جوده؛ لعدم لزومه عليه، ويحتمل أنْ يكون المراد بقوله: "ما ليس له" أخيراً غير ما هو المراد به أوّلاً؛ أي: ما لا يستحقّ التفضّل عليه به وليس صلاحه في إعطائه، فجوده من جهة هذا المنع – أيضاً – ثابتٌ، لأنَّ إعطاء ما يضرّ السائل ليس بجودٍ، بل منعه عنه عين الجود»[2].

فالجواد: معناه: المحسن، المنعم، الكثير الإنعام والإحسان[3].

تجلّيات الجواد:

إنَّ كلّ عالم الوجود تجلٍّ من تجلّيات الجود والكرم الإلهيّ، والبشر عاجزون عن

---

(١) الكافي– الشيخ الكليني ج ٤ ص ٣٨، ح١، وبحار الأنوار– العلامة المجلسي ج ٤، ص ١٧٢، ح١.

(٢) بحار الأنوار– العلامة المجلسي ج ٤ ص ١٧٢– ١٧٣، ح١.

(٣) التوحيد– الشيخ الصدوق ص ٢١٥.

إحصاء وعدّ أنواع هذه الخيرات والنعم، سواءً كان في الأرض أم في البحر، هذا فضلاً عمّا في السماء، وما لا تراه أعيننا، ولا تدركه عقولنا.

بل الإنسان - مع أنّه جزءٌ حقيرٌ، وبمثابة اللاشيء بلحاظ ما في الكون، وعالم التكوين من مخلوقاتٍ - تجد فيه العجائب والغرائب ممّا لا يمكن حصره من النعم والأفضال الإلهيّة، وهذا يرفع راية العجز والجهل أمام أصناف وأنواع هذه النعم الظاهرة، فكيف يمكنه إدراك النعم الخفيّة عليه؟! أو النعم المنتشرة في كلّ جزءٍ جزءٍ في عالم الدنيا بلا حصر له؟! وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة، وعجْز الإنسان من إحصاء نعم الله - تعالى - عليه قائلاً: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(١).

وقال سبحانه: ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾(٢).

«إنّ كلّ دقيقةٍ تمرُّ مِن عمرنا نكون فيها مدينين لفعّاليّات ملايين الموجودات الحيّة في داخل بدننا، وملايين الموجودات الحيّة - وغير الحيّة - في خارجه، والّتي لا يمكننا أنْ نحيا - ولو للحظةٍ واحدةٍ - بدونها.

ولكنّ ضبابيّة الغفلة حالت دون معرفتنا لهذه النعم الجمَّة، الّتي كلّما خطا العلم

---

(١) سورة النحل: الآية ١٨.

(٢) سورة إبراهيم: الآية ٣٤.

الحديث خطوةً إلى الإمام، كلّما اتّضحت لنا أبعادٌ، وانفتحت لنا آفاقٌ جديدةٌ في معرفة النعم الإلهيّة، وكلّ ما ندركه في هذا المجال قليل جداً ممّا قدّره الباري لنا، فهل بإمكان المحدود أنْ يعدّ ما أعطاه المطلق الحقّ؟!»(١).

العبد والجواد:

يتجلّى دور العبد من هذا الاسم الشريف من خلال رواية إبراهيم بن محمد، عن أبي عبد الله عليه السلام: «**ما مِن عبدٍ تظاهرت عليه مِن الله نعمةٌ إلاّ اشتدّت مؤونة الناس عليه، فمَن لم يقم للناس بحوائجهم فقد عرّض النعمة للزوال.**

قال: فقلتُ: جُعلت فداك، ومَن يقدر أنْ يقوم لهذا الخلق بحوائجهم؟!

فقال: إنّما الناس - في هذا الموضع - والله المؤمنون»(٢).

فحظّك أنْ تجود على المؤمنين بما جاد المولى عليك من النعم والخيرات، وهو موجبٌ لبقاء النعمة، واستدامتها عندك - كما يظهر من الرواية -، بل لعلّ يُستفاد منها أمرٌ أعظم من ذاك، وهو أنَّ إسباغ النعم - وتضافرها - على بعض البشر إنّما كان بسبب التخلّق بالجود والسخاء بما جاد الله عليه من النعم والخيرات، فكان ذلك سبباً لاستقرار النعمة لديه، وزيادتها، وأنَّ زوال بعض النعم من بعضهم الآخر هو نتاج عدم تخلّقهم بهذا الخلق الإلهيّ العظيم.

ومِن شدّة حبّ الله - تعالى - لهذه الصفة - ومَن تخلّق بها - تجد أنّ الروايات

---

(١) تفسير الأمثل، الشيخ ناصر الشيرازي ج٨، ص١٤٢.

(٢) الكافي- الشيخ الكليني ج ٤، ص ٣٧، ح٢.

تشير إلى أمورٍ كثيرةٍ فيها يتحيّر العقل، وينبهر من فضائل الجود، وفيما يلي إشارةٌ إلى بعضها:

أ- عن مسعدة بن صدقة قال: قال أبو عبد الله عليه السلام لبعض جلسائه: **«ألا أخبرك بشيءٍ يقرّب مِن الله، ويقرّب مِن الجنّة، ويباعد مِن النار؟**

فقال: بلى.

فقال: عليك بالسخاء؛ فإنّ الله خلق خلقاً برحمته لرحمته، فجعلهم للمعروف أهلاً، وللخير موضعاً، وللناس وجهاً، يُسعى إليهم لكي يُحيوهم كما يُحيي المطر الأرض المجدبة، أولئك هم المؤمنون الآمنون يوم القيامة»(١).

فيُستفاد من هذه الرواية المباركة عدّة نقاطٍ:

الأولى: إنّ أهل الجود والسخاء قريبون إلى الله تعالى، وإلى جنّته، بمقدار جودهم وسخائهم، فكلّما كان جودهم أكثر، كان قربهم من الله - وجنّته - أكثر.

الثانية: إنّ الجود والسخاء من أسباب نجاة العبد من النار، والابتعاد منها أكثر فأكثر.

الثالثة: إنّهم ممّن اختارهم الله من خلقه لخلقه، فهم مِن جملة صفوة خلق الله تعالى، الّذين خصّهم برحمته؛ ليفيضوا بها على عباده، فكانوا أهلاً للمعروف، وموضعاً للخير، ومحلاً - ومقصداً - لكلّ قاصدٍ ومحتاجٍ.

الرابعة: دورهم في المجتمع دور المنقذ الحكيم، ينجي مجتمعه من كلّ آفات

---

(١) الكافي- الشيخ الكليني ج ٤، ص ٤١، ح ١٢.

الحرمان، والفساد، والضياع، كما هو دور المـاء في الحيـاة، أو في الصـحراء القاحلـة، فينقذهم بسقيهم، وينبت زرعهم، وينظّف – ويطّهر – أبدانهم، و...

الخامسة: هم ميّزاتٌ قلَّ مَن يحصل عليها يوم القيامة، وهي الأمن والأمان يوم الفزع الأكبر، فقلوبهم مطمئنّةٌ وآمنةٌ حتّى يدخلوا الجنان، بينما تجد البعض في ذلك الموقف قد هيمن عليهم الفزع، والحسرة، والندامة.

ب- رُوي أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لرجلٍ من المشـركين: «**لـو لا أنَّ جبرئيـل أخبرني عن الله عزّ وجلّ أنّك سخيٌّ، تطعم الطعام، لشرّدتُ بك، وجعلتُك حـديثاً لمَـنْ خلفك.**

فقال له الرجل: وإنَّ ربّك ليحبّ السّخاء؟

فقال: نعم.

قال: إنّي أشهد أنْ لا إله إلا الله، وأنّك رسول الله صلى الله عليه وآله»(١).

وفي هذه الرواية عدَّة نقاطٍ:

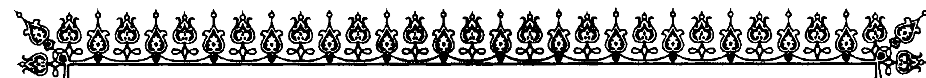
الأولى: إنَّ السخيّ والجواد ممّن تشملهم عناية السماء ولطفه.

الثانية: احترام الإسلام للسخيّ وإن كان مشركاً؛ لاتّصافه بصفة الكمال.

الثالثة: سرعة انجذاب أهل السخاء والجود لتعاليم السـماء؛ لانسـجام تعـاليم السماء مع سجيّتهم وفطرتهم.

---

(١) وسائل الشيعة- الشيخ الحرّ العامليّ ج ٩، ص ١٧،ح٤.



الموضوع الثامن والأربعون:

الشَّكُور

١- تجلّيات الشكور.

٢- العبد والشكور.

٣- العبد مع خالقه الشكور.

٤- شكر المخلوق.

٥- مع الشكور.

الشَّكُور

قال تعالى: ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾[2].

وقال ﷻ: ﴿...وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[4].

«الشكور: هو الّذي يجازي بيسير الطاعات كثير الدرجات، ويعطي بالعمل في

---

(١) سورة التغابن: الآية ١٧.

(٢) سورة فاطر: الآية ٣٤.

(٣) سورة الشورى: الآية: ٢٣.

(٤) سورة فاطر: الآية ٣٠.

أيّامٍ معدودةٍ نعيماً في الآخرة غير محدودٍ، ومَن يجازي الحسنة بأضعافها يُقال: إنّه شكر تلك الحسنة، ومَن أثنى على المحسن أيضاً يُقال: إنّه شكره.

فإنْ نظرت إلى معنى الزيادة في المجازاة لم يكن الشكور المطلق إلا الله تعالى؛ لأنَّ زياداته في المجازاة غير محصورةٍ ولا محدودةٍ؛ فإنَّ نعيم الجنّة لا آخر له، والله – تعالى – يقول: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾(١).

وإنْ نظرت إلى معنى الثناء، فثناء كلّ مُثنٍ على غيره، والربّ – تعالى – إذا أثنى على أعمال عباده فقد أثنى على فعل نفسه؛ لأنَّ أعمالهم مِن خلقِه، فإنْ كان الّذي أعطى فأثنى شكوراً، فالّذي أعطى وأثنى على المعطي فهو أحقّ بأنْ يكون شكوراً، فثناء عَزَّوَجَلَّ على عباده – كقوله: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾(٢)، وكقوله: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾(٣)، وما يجري مجراه – ... وكلّ ذلك عطيّةٌ منه»(٤).

وقال الشيخ الصدوق رَحِمَهُ اللهُ:

«الشكور: والشاكر، معناهما: أنّه يشكر للعبد عمله، وهذا توسُّعٌ؛ لأنَّ الشكر في اللغة: عرفان الإحسان، وهو المحسن إلى عباده، المنعم عليهم، لكنّه – سبحانه – لمّا كان مجازياً للمطيعين على طاعاتهم، جعل مجازاته شكراً لهم على المجاز، كما سُمّيت

---

(١) سورة الحاقة: الآية ٢٤.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٣٥.

(٣) سورة ص: الآية ٤٤.

(٤) المقصد الأسنى – الغزالي، ص ١٧٠– ١٧١.

مكافأة المنعم شكراً»[١].

وقال الشيخ الطريحيّ في مجمعه:

«الشَّكُور بالفتح: من أسمائه تعالى، وهو الّذي يزكو عنده القليل من أعمال العباد، فيضاعف لهم الجزاء، فشكره لعباده: مغفرته لهم»[٢].

تجلّيات الشكور:

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «سجدة الشكر واجبةٌ على كلّ مسلمٍ، تتمّ بها صلاتك، وترضي بها ربّك، وتعجب الملائكة منك، وإنَّ العبد إذا صلّى ثمّ سجد سجدة الشكر، فتح الربّ عزّ وجلّ الحجاب بين العبد وبين الملائكة، فيقول:

يا ملائكتي، انظروا إلى عبدي، أدّى قربتي، وأتمَّ عهدي، ثمّ سجد لي؛ شكراً على ما أنعمت به عليه، ملائكتي، ماذا له عندي؟!

قال: فتقول الملائكة: يا ربّنا رحمتك.

ثمّ يقول الربّ عزّ وجلّ: ثمّ ماذا له؟!

فتقول الملائكة: يا ربّنا جنّتك.

فيقول الربّ تعالى: ثمّ ماذا؟!

فتقول الملائكة: يا ربّنا كفاية مهمّهِ.

---

(١) التوحيد- الشيخ الصدوق، ص ٢١٦.

(٢) مجمع البحرين- الشيخ الطريحي ج ٢، ص ٥٣٥.

فيقول الربّ تعالى: ثمّ ماذا؟!

فلا يبقى شيءٌ من الخير إلا قالته الملائكة.

فيقول الله تعالى: يا ملائكتي، ثمّ ماذا؟!

فتقول الملائكة: يا ربّنا لا علم لنا.

فيقول الله تعالى: لأشكرنَّه كما شكرني، وأقبل إليه بفضلي، وأريه رحمتي»[(١)].

وفي روايةٍ أخرى عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**أوحى الله إلى موسى** عليه السلام: **أتدري لمَ اصطفيتُك بكلامي دون خلقي؟!**

قال: يا ربّ، ولم ذاك؟

قال: فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: يا موسى، إنّي قلّبتُ عبادي ظهراً لبطنٍ، فلم أجد فيهم أحداً أذلّ لي نفساً منك، يا موسى، إنّك إذا صلّيْتَ وضعتَ خدّيك على التراب، أو قال: على الأرض»[(٢)].

العبد والشكور:

ويمكن بيان حظّ العبد من هذا الاسم الشريف من خلال جهتين: العبد مع خالقه، والعبد مع خلْق الله تعالى.

---

(١) وسائل الشيعة – الشيخ الحر العاملي ج ٧، ص ٦– ٧، ح٥.

(٢) وسائل الشيعة – الشيخ الحر العاملي ج ٧، ص ١٠،ح٣.

العبد مع خالقه الشكور:

لا يتسنّى للعبد شكر خالقه إلاّ إذا علم أنَّ ما فيه من النعم الظاهرة والباطنة - والّتي تحيطه من كلّ حدبٍ وصوبٍ، أو الّتي حصل عليها من الآخرين - ما هي إلاّ فيض من فيوضات الله تعالى، ونعمة من نعم الباري عليه، وما هذه الأمور إلا وسيلة من الوسائل، وآلة من آلات الباري، الّتي استعملها لتمكينه من تلك النعمة، وهي وسائل إلهيّةٌ سخّرها الله - تعالى - لعباده، ولولا الإرادة الإلهيّة، ومشيئته الربّانيّة لذلك، لما كان لينعم عليك زيد ولا عمرو من البشر، فشأنهم شأن القلم والقرطاس الّذي وقّع فيه ملكٌ من ملوك الدنيا بإعطائك مبلغاً من المال، فهل تجد نفسك تقدِّس الورقة أو القلم الّتي كتب به ذلك العطاء من قبل الخادم، الّذي صرف المال، ونفّذ إرادة مولاه؟! أم أنَّ الثناء وكلّ الحبّ والتقديس هو لذلك الملك الكريم، الّذي أسدى لك الخير، وأنعم عليك بتلك النعم والخيرات؟!

فمن عرف أنَّ الكون - وما فيه - رهن إرادة الله - تعالى - لا غير، ولا شيء يخرج من إرادته، وسلطانه، وقدرته، عَلِم عِلْمَ اليقين أنّ ما فيه من نِعَم، وما يحصل له من خيراتٍ، ما هي إلا فيضٌ من فيوضات الباري، ومنحةٌ من منحه ﷻ عليه، وما البشر وغيرهم إلاّ آلات مسخَّرة في طاعة الله، ومنح عباده بإرادةٍ وتوفيقٍ من الكريم اللطيف.

وهذا العلم يترشّح منه عدَّة أمورٍ:

الأوّل: حالٌ، وكيفٌ، وبهجةٌ من العبد، وذلك إمّا للمال - وهي النعمة -، فينشغل بالنعمة عن المنعم، أو يبتهج ويفرح؛ لعلمه بالعناية الربّانيّة والإلهيّة له، من

خلال إنعامه بتلك النعم، أو أن ابتهاجه من أجل تسخيره ذلك المال للتقرّب من الملك، والتزلّف عنده، فهو مبتهجٌ لأنَّه يجعل النعمة طريقاً للتقرّب للملك والمولى، وفي هذه الصور الثلاث تجد العبد غير شاكرٍ في الصورة الأولى؛ إذ أنّه منشغلٌ بالنعمة عن المنعم بها، فلا يؤدّي حقّ المنعم.

هذا بخلاف الصورتين الأخيرتين، فابتهاج العبد بعناية الملك له هو نوع معرفته بأنّ ما فيه من النعم من فيض الباري نحو شكرٍ وتقديسٍ(١)، وهو حال الصالحين في عبادتهم لله تعالى، إذ يعبدون الله، ويشكرونه؛ خوفاً من عقابه؛ ورجاءً لثوابه.

والصورة الأخيرة هي أرقى وأكمل، بلحاظ أنه يفرح العبد ويبتهج بالنعم بجعلها وسيلةً للتقرّب من الله أكثر، لا رغبةً في النعم، بل حبّاً في المنعِم، وشوقاً إليه، فيجعل النعم قرباناً للقرب الإلهيّ.

وعلامة أولئك أنّهم لا يفرحون بشيءٍ من زخارف الدنيا، ولا يبتهجون بها، إلا من خلال كونها طريقاً ومزرعةً للآخرة، وسبيلاً لكسب مرضاة الله تعالى، فهو لم يحبّ المال للمال وللذته، ولا لتجلي عناية الله له من خلال المال والنعمة، بل لأن المال - أو النعمة - وسيلةٌ لنيل القرب من صاحب المال وواهبه ، فيسخّر المال لصاحب المال، وإن خسر المال، ويسخّر كلّ ما أوتي من خيرٍ من أجل الله، وكسب

(١) عن أبي عبد الله عليه السلام قال: فيما أوحى الله عزّ وجلّ إلى موسى عليه السلام: » يا موسى، اشكرني حق شكري. فقال، يا رب، وكيف أشكرك حقّ شكرك، وليس من شكرٍ أشكرك إلا وأنت أنعمت به علي؟ قال: يا موسى، الآن شكرتني حين علمت أنَّ ذلك مني «. الكافي- الشيخ الكليني ج ٢، ص ٩٨، ح٢٧.

رضاه تعالى.

ومِن هنا تعرف سرّ لذَّة الأنبياء، والأئمّة الأطهار، والأولياء في إفناء ذواتهم في طاعة الله، وعدم اكتراثهم بما يتعرّضون من متاعب وآلام في طريق ذات الشوكة، فكم هو فرقٌ بين من يريد الله – تعالى – لينعم عليه، وبين من يريد نعمة الله ليصل بها إلى الله تعالى، وتحصيل القربى، والزلفى لديه تعالى؟!

عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**كان رسول الله صلى الله عليه وآله عند عائشة ليلتها، فقالت: يا رسول الله، لم تتعب نفسك وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟**

فقال: يا عائشة، ألا أكون عبداً شكوراً؟!

قال: وكان سول الله صلى الله عليه وآله يقوم على أطراف أصابع رجليه، فأنزل الله تعالى: ﴿طه (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾[1]»[2].

الثاني: عدم انشغال القلب بالشكر والثناء على غير الله تعالى، وعدم التزلّف لغيره سبحانه؛ لقطعه – ويقينه – أنَّ هؤلاء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرّاً من دون مشيئة الله تعالى، فعدم امتلاكهم لغيرهم من بابٍ أولى وأجلى.

شكر المخلوق:

عن عمّار الدهنيّ قال: سمعت عليّ بن الحسين عليه السلام يقول: «**إنَّ الله يحبّ كلّ قلبٍ حزينٍ، ويحبّ كلّ عبدٍ شكورٍ، يقول الله عزّ وجلّ لعبدٍ من عبيده يوم القيامة:**

(١) سورة طه: الآيتان ٢،١.

(٢) الكافي– الشيخ الكليني ج ٢، ص ٩٥،ح٦.

أشكرت فلاناً؟!

فيقول: بل شكرتك يا ربّ، فيقول: لم تشكرني إذ لم تشكره. ثمّ قال: أشكركم لله، أشكركم للنّاس»(١).

وفي روايةٍ أخرى، يقول الإمام الرضا عليه السلام: **«من لم يشكر المنعم من المخلوقين لم يشكره عزّ وجلّ»**(٢).

بهذه الروايات – وأمثالها – يتّضح جليّاً أهمّيّة شكر المخلوق المتفضِّل عليك بالإنعام والخيرات، وأن جفاءه – وعدم شكره – بمنزلة جفاء الله وعدم شكره؛ فنزّل الباري شكر العباد بمنزلة شكره والثناء عليه، وهنا لا بدّ من بيان أمرين:

الأوّل: أنَّ هذا الحثّ الشرعيّ على شكر العباد على ما أنعموا وتفضّلوا به، ينبغي أنْ يكون لكونهم هم الأسباب الظاهريّة، ولا ينبغي نسيان أنَّ الباري هو السبب الأساس في إنعامه وتفضّلاته على العبد، فقبيحٌ أنْ يستأنس العبد بالأسباب الظاهريّة، وينسى مسبّب الأسباب، وعليه أنْ يشكر العباد بمنطلق أنَّ الدين الحنيف قد أمرنا – وأرشدنا – بلزوم شكر المنعم، وهذا ما عليه العقلاء، وسيرتهم جاريةٌ على ذلك، وقد أمضاه الشارع الأقدس.

الثاني: الّذي يتجلّى – من خلال بعض الروايات – أنَّ من الحكم الداعية لهذا الحثّ الشرعيّ هو نشر فعل المعروف، وعدم الزهد فيه، فالفطرة الإنسانيّة

---

(١) الكافي – الشيخ الكليني ج ٢، ص ٩٩،ح ٣٠.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام – الشيخ الصدوق ج ١، ص ٢٧، ح٢.

وسجيّتها مفطورةٌ على حبّ التقدير، والاستئناس بالمدح، والثناء على أفعاله، وشكر الآخرين له على أفعاله القيّمة يجعله يرغب في المزيد من المبّرات والخيرات، فيحصل بذلك التكافل، والتعاون الاجتماعيّ، وأمّا إذا لم يكترث بإحسان المحسن، أو ردّ إحسانه بالإساءة - لا سمح الله -، فإنَّ ذلك قد يوجب نفرة أهل الخير من الخير، وهذا ما يحصل كثيراً - للأسف - في المجتمعات الإسلاميّة، والإسلام منهم بريءٌ.

والّذي يدلّ على ما قلناه مجموعةٌ من النصوص، نكتفي بواحدةٍ للاختصار، فقد رُوي عن الصادق عليه السلام: «**لعن الله قاطعي سبيل المعروف، وهو الرجل يُصنع به المعروف فتكفّره، فيمنع صاحبه من أنْ يصنع ذلك إلى غيره**»[1].

وهذه الرواية واضحةٌ في أنّ قاطع طريق المعروف خارجٌ من رحمة الله تعالى؛ إذ كان - بسوء تصرّفه ومعاملته مع أهل الخير - مانعاً من تكرار الخير منهم.

ومع هذا التأكيد الشرعيّ لشكر المنعم على إنعامه، تجد أنَّ الروايات ترشد المنعم والمتفضّل بالإحسان إلى عدم انتظار المدح والثناء من البشر؛ إذ هو يتعامل مع الله تعالى، ويرجو بذلك القربى والزلفى لديه سبحانه، ويكفيه فخراً وشرفاً نيل القرب الإلهيّ، ومدح الباري له من خلال إحسانه، وتفضّله على خلق الله.

بل عليه هو أن يشكر عباد الله - تعالى - أنْ كانوا هم السبيل لكسب مرضاة الله تعالى، ولو لاهم لما أمكنه نيل مقام القرب إلى الله تعالى، وكسب الثواب.

هذا وأضفْ عليه أنه لو أمعن النظر لوجد أنّ كلّ ما يملك هي من ممتلكات الله، وما هي إلاّ عارية في يديه من قبل المولى جلّ وعلا، وشأنه شأن ساعي البريد، أو

---

(١) ميزان الحكمة، الشيخ محمد الري شهري ج٥، ص١٥٥، ح٩٦٤٥.

الوكيل، قد أُمِرَ بصرفها في مواردها ومصارفها، فلا فخر له بتوصيل نعم الله لخلق الله وعياله.

وحيث إنَّ الأكثريّة الساحقة من البشر لا يرون الملكيّة الحقيقيّة لله، تجدهم ينتظرون المدح والثناء، أو يظهر منهم البخل والحرص على هذه الأموال والنعم، ومنع الحقوق، والكثير من الآفات الأخلاقيّة والدينيّة.

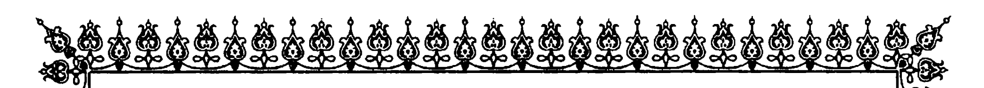
مع الشكور:

عن إسماعيل بن الفضل قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «**إذا أصبحت وأمسيت فقل عشر مرّاتٍ: "اللهمّ ما أصبحت بي من نعمةٍ أو عافيةٍ من دينٍ أو دنيا فمنك وحدك، لا شريك لك، لك الحمد، ولك الشكر بها عليّ، يا ربّ حتّى ترضى، وبعد الرضا. فإنّك إذا قلت ذلك كنت قد أدّيت شكر ما أنعم الله به عليك في ذلك اليوم، وفي تلك الليلة**»[1].

أقول: إنَّ أداء شكر ما أنعم الله عليه من خلال هذا الدعاء وأمثاله هو تفضّلٌ من الباري علينا، وهو يحتاج إلى شكرٍ، وإلا لو سجد العبد طول عمره لما وفّى حقّ خالقه، كيف وهو ساجدٌ بنعمته – تعالى –، على نعمة الله، وبإرادة الله، وتوفيقه، والعبد لا يملك منها شيئاً، بل وشكره يحتاج إلى شكرٍ؛ لتوفيقه وقبوله إيّاه أن يكون من داعيه ومناجيه تبارك وتعالى.

---

(١) الكافي، الشيخ الكليني ج٢،ص٩٩،ح٢٨.



الموضوع التاسع والأربعون:

الشَّافِي

١- تجلّيات الشافي.

٢- العبد والشافي.

٣- شفاء الذات والمجتمع.

٤- مع الشافي.

الشَّافِي

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾[2].

الشافي: هذا الاسم الشريف من جملة أسماء الله الحسنى المتسالم عليها لدى الفريقين، وهو برغم عدم وروده نصّاً في القرآن الكريم، إلاّ أنّه ورد مضمونه فيه من قبيل ما ذكرناه من آياتٍ، ومنشأ هذا التسالم هو ورود هذا الاسم الشريف في الكثير من مرويّات أهل بيت العصمة والطهارة، وأدعيتهم (عليهم صلوات الله)، كالحديث النبويّ الشريف المرويّ مراراً[3]، وفي الأدعية من قبيل دعاء المجير[1]، ودعاء الجوشن

(١) سورة الشعراء: الآية ٨٠.

(٢) سورة التوبة: الآية ١٤.

(٣) عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن لله تبارك وتعالى تسعة وتسعين اسماً، مائةً إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة، وهي: الله، الإله، الجليل، الجواد... الشافي..». التوحيد- الشيخ الصدوق، ص ١٩٤- ١٩٥، ح٨.

الكبير[٢]، وغير ذلك.

وقال الشيخ الصدوق رحمه الله:

«**الشافي**: معناه معروفٌ، وهو من الشفاء، كما قال الله عزّوجلّ حكايةً عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾...»[٣].

وقال الشيخ الكفعميّ رحمه الله:

«**الشافي**: هو رازق العافية والشفاء، ومنه ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾، وشفاه الله من كذا أي: أصحَّ بدنه...»[٤].

تجلّيات الشافي:

لا ريب أنَّ الشفاء والصحة والعافية من جملة النعم الإلهيّة العظيمة المجهولة عند الإنسان، يعرف قدرها حينما تزول ويحلّ المرض مكانها، فالله هو الشافي لهذه

---

(١) جاء في دعاء المجير: «سبحانك يا كافي، تعاليت يا شافي، أجرنا من النار يا مجير». مفاتيح الجنان- الشيخ عباس القمي، ص١٨٨.

(٢) وفي دعاء الجشن الكبير تقرأ: «اللهم إني أسألك باسمك، يا كافي، يا شافي، يا وافي، يا معافي، يا هادي، يا داعي، يا قاضي، يا راضي، يا عالي، يا باقي». مفاتيح الجنان- الشيخ عباس القمي، ص ٢٠١. الفقرة: ٣٧.

(٣) التوحيد- الشيخ الصدوق، ص ٢١٧.

(٤) المصباح، الكفعمي، ص٤٦١.

الأمراض، الروحيّة منها والجسديّة، فهو «**اسمه دواءٌ، وذكره وشفاءٌ**»[١]، فاسمه المبارك شفاءٌ لكلّ داءٍ ومرضٍ، سواء أصاب الروح أو الجسد، وذكره في القلب واللسان شفاءُ لكلّ ألمٍ ومرضٍ وسقمٍ عجز عن مداواته وشفائه علماء الأخلاق والأبدان.

وللطفه بالعباد لم يخلق شيئاً من الأمراض والأسقام - خطيرةً كانت أم حقيرةً - إلاّ وقد خلق بجانبها الدواء الشافي، والمعافي من ذلك السقم والبلاء، كما ورد عن النبيّ صلى الله عليه وآله برواية الفريقين: «**تداوَوا عباد الله، ما مِن داءٍ إلا وله دواءٌ...**»[٢].

وإذا أمعن الإنسان في المرض، وجد أنّه نعمةٌ عظيمةٌ في صورة بلاءٍ وسقمٍ، يضجر منه أصحاب الدنيا، ويرضى به مَن كان مِن أهل الآخرة، نعم، إنّ المؤمن لا يطلب المرض، ولكنّه في الوقت نفسه لا يبغض ذلك، بل تراه في رضاً تامٍّ حينما يُبتلى به؛ لما انكشف له أجر المرض والعواقب الطيّبة المترتّبة عليه، من خلال ما ورد فيه من الأخبار، والّتي نذكر بعضها:

أ- عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**قال الله عزّ وجلّ: أيّما عبدٍ ابتليتُه ببليّة فكتم ذلك، عوّاده ثلاثاً، أبدلته لحماً خيراً من لحمه، ودماً خيراً من دمه، وبشراً خيراً من بشره، فإنْ أبقيته أبقيته ولا ذنب له، وإنْ مات مات إلى رحمتي**»[٣].

فهذه الرواية لا تكتفي بإثبات أنّ الشافي هو الله -تعالى- فقط، بل تشير إلى أنّ

---

(١) دعاء كميل، راجع مفاتيح الجنان، الشيخ عباس القمي، ص ١٥٥.

(٢) التحفة السنية- الجزائري، ص ٣٤٤.

(٣) وسائل الشيعة- الشيخ الحر العاملي ج ٢، ص ٤٠٥، ح١.

لبعض الآداب الإسلاميّة ـ ككتمان أمر المرض، وعدم الشكوى للعباد ـ دوراً في الشفاء من بعض الأمراض، وأنّ الله ﷻ يعوّض هؤلاء المرضى المتأدّبين بآداب الشريعة بجوارح أفضل وأكمل من جوارحهم قبل المرض والابتلاء، مضافاً لغفران ذنوبهم وخطاياهم، فيكونوا كيوم ولدتهم أمّهاتهم، وإنْ مات ـ الواحد منهم ـ وفاضت نفسه، كانت بجوار الله، وفي رحمته تعالى.

ب- عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**مَن مرض ليلةً فقبلها بقبولها، كتب الله عزّ وجلّ له عبادة ستّين سنة.**

فقيل له: وما معنى قبلها بقبولها؟

قال: لا يشكوا ما أصابه فيها إلى أحدٍ»(١).

هذه الرواية تشير إلى مريضٍ تأدّب بآدابٍ هي أسمى وأرفع من المريض الّذي كتم مرضه، وهو المريض الّذي لم يكتم مرضه فقط، بل كان راضياً - تمام الرضا - بما أصابه من مرضٍ وبلاءٍ، فأُعطي من الأجر ما يفوق أجر ذاك، وهي عبادة ستّين سنةٍ لليلةٍ واحدةٍ من المرض، وهو راضٍ بما أُصيب.

حـ- في وصيّة النبيّ صلّى الله عليه وآله لعليٍّ عليه السلام قال: «**يا عليّ، أنين المؤمن تسبيحٌ، وصياحه تهليلٌ، ونومه على الفراش عبادةٌ، وتقلّبه من جنبٍ إلى جنبٍ جهادٌ في سبيل الله، فإنْ عوفي مشى في الناس وما عليه من ذنبٍ**»(٢).

---

(١) وسائل الشيعة- الشيخ الحر العاملي ج ٢، ص ٤٠٦، ح٥.

(٢) وسائل الشيعة- الشيخ الحر العاملي ج ٢، ص ٤٠٠، ح١١.

وما هذا الاختلاف في درجات أجر المرضى إلاّ بلحاظ شدّة وضعف مرضه، ومدى تأدُّبه مع الله – تعالى – في مرضه.

رزقنا الله العافية والتأدّب في محضر الله – تعالى – على كلّ حالٍ، في السرّاء والضرّاء، والصحّة والسقم، آمّين ربّ العالمين.

العبد والشافي:

للعبد من هذا الاسم الشريف نصيبٌ كسائر أسمائه ﷻ، ويمكن بيان حظّ العبد منه في جهتين على أقلّ تقديرٍ:

الأوّل: تحصيل الشفاء للذّات والمجتمع.

الثاني: التأدّب بآداب المريض في المرض.

ونكتفي بالإشارة اليسيرة الّتي مرت في المبحث السابق لهذه الجهة، والكلام في الجهة الأولى.

شفاء الذات والمجتمع:

أحد أبرز أسباب انحطاط المجتمع سلوكيّاً هو أنّه مع معرفة المجتمع بمرضه، وأنّه مبتلىً بعشرات الأمراض الروحيّة والخلقيّة، إلا أنّه ـ ولهيمنة جهله عليه ـ تجده يتمادى فيها، ولا يبالي بعلاجها، فيؤدّي ذلك إلى استفحال أمراضه عليه، حتّى تسلك به المسالك الّتي لا تحسن عقباها، والفرق بين الأولياء – وغيرهم – هو في التفات أولئك إلى أمراضهم في بداية الطريق، فيسعون في علاجها الواحدة تلو

الأخرى، إلى أن تصبح أرواحهم نقيّةً طاهرةً، فتكون منزلاً لائقاً لتجلّي نور الرحمن فيها، فاتّخذهم الله أحبّةً بعد أن اتّخذوه حبيباً، لا يسعني أرضي، ولا سمائي...

فمَن أراد الشفاء من هذه الأمراض، والسير نحو المحبوب الّذي لا يقبل إلاّ القلب السليم منه - كما قال في محكم كتابه: ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1]-، فعليه بما يلي:

أوّلاً: رفع ستار الجهل المركّب من على عقله، وأن ينظر نظرة البصير إلى أمراضه الّتي لا تُحصى ولا تُعدّ، والّتي تسترها النفس الأمّارة بالسوء بسبب كسلها، وعدم ميلها في تهذيب نفسها؛ لما فيه من جهادٍ وتمرينٍ تستكرهه هذه النفس؛ لحرمانها بعض ما ترغب خلال جهاد النفس، مع أنّها تعلم علم اليقين أنَّ كلّ الخير والسعادة هو في جهادٍ يسيرٍ تعقّبها راحةٌ دائمةٌ خالدةٌ، ولكن هيهات أنْ تسمع - أو تصغي - لنداء العقل أو الفطرة السليمة، فتكون مقرّها النار و﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[2].

فجوابهم على تساؤل الملائكة لهم صريحٌ، وهو أنَّ منشأ سوء عاقبتهم هو عدم

---

(١) سورة الشعراء: الآيات ٨٨- ٩٠.

(٢) سورة الملك: الآيات ٦- ١١.

سماعهم لقول الأنبياء والحجج على العباد من العلماء والصالحين، وكذلك عدم العمل بنور العقل، ورفع الجهل والأوهام الّتي لا أصل لها ولا واقع، ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ، فكان مآلهم هو مآل أهل الجهل في عدم التعقّل، وعدم سماع نصح الناصحين.

ثانياً: العمل، وذلك بعد رفع الجهل، ولكنّه - ومع الأسف الشديد - تجد أنَّ أكثرنا مبتلىً بكثرة الكلام مع قلّة العمل، مع أنّ المطلوب هو العكس، فلا خير في كثيرٍ من الكلام من دون العمل، ولذا ورد الذمّ منه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[٢]، فالعلم الّذي ينتج الكلام في كثيرٍ من الأحيان - ما لم يتجسّد في واقعه العمليّ - هو وبالٌ على صاحبه، سواءً قبل أم لم يقبل هذه الحقيقة المُرَّة الواقعيّة.

ثالثاً: استمرار العمل، فمن جملة المشاكل المبتلى بها العباد عدم الجدّيّة والاستمرار في علاج الأمراض، الّتي تجذّرت فيه منذ صغره حتّى حاضره، فيكون قد مرّت عليه السنين الطوال، ولكنك تجد ذلك الجاهل يتصوّر أنَّ علاجها في يومٍ، أو يومين، أو أسبوعٍ، أو أسبوعين على أكثر تقديرٍ، مع أنَّ للتخلّي والتحلّي مراتب

---

(١) سورة الصف: الآيتان ٢،٣.

(٢) سورة البقرة: الآية ٤٤.

متنوعةً ومختلفةً، تساير الإنسان إلى آخر لحظات عمره في دار الفناء، فكلّما كان في مرتبةٍ فهناك ما هي أعلى منها، فعليه التخلّي عمّا هو فيه، والتحلّي بتلك المرتبة الأسمى، وهكذا، فإنّ السير التكامليّ متواصلٌ إلى آخر لحظات عمر الإنسان، ولا يمكن للإنسان نيل هذه الدرجة من مواصلة السعي، إلا إذا كان موطّناً نفسه الجدّ والعزم على الاستمرار في طريق التحلّي، وعدم الاكتفاء - أو الرضا - بما هو فيه من مقامٍ ومرتبةٍ، والوقوف عندها، قال الصادق عليه السلام: «**مَنِ استوى يوماه فهو مغبونٌ، ومَن كان آخر يوميه شرّهما فهو ملعونٌ، ومَن لم يعرف الزيادة في نفسه كان إلى النقصان أقرب، ومَن كان إلى النقصان أقرب فالموت خيرٌ له من الحياة**»[1].

مع الشاكي:

إلهي، عبدك ببابك، وقد أمرت عبادك بدعائك، وضمنت لهم الإجابة بجودك، وكرمك، حيث قلت: ﴿...ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[2]، فها نحن ندعوك، فاستجب لنا، يا مجيب المضطرّين.

إلهي، أنا عبدك الضعيف المذنب، ومملوكك المعيب، فلا تجعلني ممّن صرفت عنه وجهك، وحجبه سهوه عن عفوك.

إلهي، هب لي كمال الانقطاع إليك، وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك، حتّى تخرق أبصار القلوب حجب النور، فتصل إلى معدن العظمة، وتصير أرواحنا معلّقةً

---

(١) الأمالي - الشيخ الصدوق، ص ٧٦٦، ح٤.

(٢) سورة غافر: الآية ٦٠.

بعزِّ قدسك.

إلهي، واجعلني ممّن ناديته فأجابك، ولاحظته فصعق لجلالك، فناجيته سرّاً، وعمل لك جهراً.

إلهي، لم أسلِّط على حسن ظنّي قنوط الأياس، ولا انقطع رجائي من جميل كرمك؟!

إلهي، إنْ دعاني إلى النار عظيم عقابك، فقد دعاني إلى الجنّة جزيل ثوابك.

إلهي، إلهي، فلك أسأل، وإليك أبتهل، وأرغب، أنْ تصلّي على محمّدٍ وآل محمّدٍ، وأنْ تجعلني ممّن يديم ذكرك، ولا ينقض عهدك، ولا يغفل عن شكرك، ولا يستخفّ بأمرك.

إلهي، وألحقني بنور عزِّك الأبهج، فأكون لك عارفاً، وعن سواك منحرفاً، ومنك خائفاً مراقباً، يا ذا الجلال والإكرام، وصلّى الله على محمّدٍ رسوله، وآله الطاهرين، وسلّم تسليماً كثيراً[1].

---

(١) إقبال الأعمال- السيد ابن طاووس الحسني ج ٣، ص ٢٩٨- ٢٩٩.

تمَّ الفراغ مِن كتابته في عصر يوم الجمعة بتاريخ ٢٧ من شوال ١٤٢٧ هـ، الموافق لذكرى استشهاد رئيس مذهبنا، مولانا الإمام أبي عبد الله الصادق عليه الصلاة والسلام، أسأل الله تعالى بحقّ هذا اليوم العظيم، أن يحيينا محياهم، ويميتنا على ما أماتهم عليه، والحمد لله ربّ العالمين.

المَصَادِرُ

المصادر

١. القران الكريم.

٢. نهج البلاغة.

٣. الاحتجاج– الشيخ أحمد بن علي الطبرسي.

٤. أسد الغابة– ابن الأثير.

٥. إشراقات قرآنية– دروس الشيخ عبدالله جوادي آملي ترجمة وتقرير السيد محي الدين المشعل.

٦. إقبال الأعمال– السيد ابن طاووس الحسني.

٧. الآداب المعنويّة للصلاة – السيد روح الله الامام الخميني.

٨. الأصول من الكافي– أبي جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني.

٩. الإلهيات– الشيخ جعفر السبحاني.

١٠. الأمالي– الشيخ محمد بن علي بن بابويه القمي الصدوق.

١١. الامثل في تفسير كتاب الله المنزل– الشيخ مكارم الشيرازي.

١٢. الأنوار النعمانية.

١٣. البداية والنهاية– ابن كثير.

١٤. البيان في تفسير القرآن– السيّد ابو القاسم الخوئيّ.

١٥. التُحفة السنية– الجزائري.

١٦. التوحيد– المفضل بن عمر الجعفي.

١٧. التوحيد- الشيخ محمد بن علي بن بابويه القمي الصدوق .
١٨. الجامع لأحكام القرآن- محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي.
١٩. الجواهر السنية - الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي.
٢٠. الخصال- الشيخ محمد بن علي بن بابويه القمي الصدوق.
٢١. الدمعة الساكبة.
٢٢. الذريعة- آقا بزرگ الطهراني.
٢٣. الرواشح السماويّة- المحقّق الداماد.
٢٤. الصحيفة السجادية - الإمام زين العابدين عليه السلام.
٢٥. الصحيفة السجّاديّة (أبطحيّ)- الإمام زين العابدين.
٢٦. الطبقات الكبرى- محمد بن سعد.
٢٧. الطريق إلى الله- الشيخ حسين البحراني.
٢٨. الغدير في الكتاب والسنة والأدب - الشيخ عبد الحسين احمد الأميني النجفي.
٢٩. الفرج بعد الشدة-القاضي أبي علي الحسن بن أبي القاسم التنوخي.
٣٠. الفصول المهمة في أصول الأئمة (تكملة الوسائل)-الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي.
٣١. الفوائد الرضويّة- المحدث الشيخ عباس القمي.
٣٢. القاموس المحيط- الشيخ مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي الشيرازي.
٣٣. القواعد والفوائد- محمد بن مكي العاملي (الشهيد الأول).

٣٤. الكامل في ضعفاء الرجال- عبد الله بن عدي الجرجاني.
٣٥. الكنى والألقاب- الشيخ عبّاس القمّيّ.
٣٦. المحجة البيضاء- الشيخ محمد بن حسن الفيض الكاشاني.
٣٧. المعجم الكبير - سليمان بن أحمد الطبراني .
٣٨. المفردات في غريب القرآن - أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني.
٣٩. المقام الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى- الشيخ تقي الدين إبراهيم بن علي الكفعمي.
٤٠. المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى- أبي حامد الغزالي.
٤١. الميزان في تفسير القران-السيد محمد حسين الطباطبائي.
٤٢. النهاية في غريب الحديث- ابن الأثير.
٤٣. بحار الأنوار - الشيخ محمد باقر المجلسيّ.
٤٤. بصائر الدرجات- محمد بن الحسن الصفار.
٤٥. تاريخ بغداد- الخطيب ابن النجار البغدادي.
٤٦. تاريخ مدينة دمشق- ابن عساكر.
٤٧. تحرير الوسيلة- السيد روح الله الامام الخميني.
٤٨. تحف العقول عن آل الرسول-الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحراني .
٤٩. تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي- محمد عبد الرحمن ابن عبد الرحيم المباركفوري.
٥٠. تفسير الصافي- الشيخ محمد بن حسن الفيض الكاشاني.

٥١. تفسير القرآن الكريم- السيد مصطفى الخميني.
٥٢. تفسير القمي- علي بن إبراهيم القمي.
٥٣. تفسير غريب القرآن- فخر الدين الطريحي.
٥٤. تفسير مواهب الرحمن- السيد عبد الأعلى السبزواري.
٥٥. تفسير نور الثقلين- الشيخ عبدعلي بن جمعة العروسي الحويزي.
٥٦. تهذيب الأحكام- الشيخ أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي .
٥٧. ثواب الأعمال- الشيخ محمد بن علي بن بابويه القمي الصدوق .
٥٨. جامع السعادات- الشيخ محمد مهدي النراقي.
٥٩. جنة الأمان الواقية وجنة الايمان الباقية المشهور بالمصباح- الشيخ تقي الدين إبراهيم بن علي الكفعمي.
٦٠. حاشية رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الابصار- محمد أمين الشهير بابن عابدين.
٦١. حياة الإمام الرضا عليه السلام- الشيخ باقر شريف القرشيّ.
٦٢. رسائل الشهيد الثاني- الشيخ زين الدين علي الجبعي العاملي (الشهيد الثاني).
٦٣. روضة الواعظين- الفتال النيسابوري.
٦٤. سنن أبي داود- ابن الأشعث السجستاني.
٦٥. سنن الترمذي- الترمذي.
٦٦. سيماء الصالحين- الشيخ رضا مختاري.
٦٧. شجرة طوبى- الشيخ محمد مهدي الحائري.

٦٨.شرح أصول الكافي- مولى محمّد صالح المازندرانيّ.

٦٩.شرح الأسماء الحسنى- الملا هادى السبزواري.

٧٠.شرح الأسماء الحسنى- الفخر الرازي.

٧١.شرح نهج البلاغة- محمد عبده.

٧٢.شرح نهج البلاغة- ابن أبي الحديد المعتزلي.

٧٣.صحيح البخاري- محمد بن اسماعيل البخاري.

٧٤.صراط النجاة- السيد ابو القاسم الخوئي، تعليق: الشيخ ميرزا جواد التبريزي.

٧٥.عبر من التاريخ- الشيخ باقر المحسني.

٧٦.عدة الداعي- احمد بن فهد الحلي.

٧٧.علل الشرائع- الشيخ محمد بن علي بن بابويه القمي الصدوق.

٧٨.عوالي اللآلي- ابن أبي جمهور الأحسائي.

٧٩.عيون أخبار الرضا- الشيخ محمد بن علي بن بابويه القمي الصدوق.

٨٠.عيون الحكم والمواعظ-عليّ بن محمّد الليثيّ الواسطيّ.

٨١.غرر الحكم- امير المؤمنين الامام علي بن ابي طالب(ع).

٨٢.فقه الرضا- علي بن بابويه القمي.

٨٣.فلسفة التوسل وحقيقته والدليل على مشروعيته- الشيخ محمد صنقور.

٨٤.في مدرسة الشيخ بهجت- اعداد لجنة ترجمة ونشر آثار الشيخ بهجت من دار الكتاب العربي.

٨٥.فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير- محمد عبد الرؤوف المناوي القاموس الفقهي- الدكتور سعدي أبو حبيب.
٨٦.قبساتٌ من حياة سيّدنا الأستاذ السيّد شهاب الدين المرعشيّ النجفيّ- السيّد عادل العلويّ.
٨٧.قصص الأبرار من بحار الأنوار- السيد مرتضى الميلاني.
٨٨.كتاب الهواتف_ عبد الله بن محمد القرشي المعروف بابن أبي الدنيا.
٨٩.كلمة التقوى- الشيخ محمد أمين زين الدين.
٩٠. كلمة الله- الشهيد السيد حسن الشيرازي.
٩١. كمال الدين وتمام النعمة- الشيخ محمد بن علي بن بابويه القمي الصدوق.
٩٢. كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال_ علي المتقي بن حسام الدين الهندي.
٩٣.لآلئ الأخبار- الشيخ محمد نبي التوسيركاني.
٩٤.لسان العرب- محمد بن مكرم ابن منظور.
٩٥. مجمع البحرين- الشيخ فخر الدين الطريحي.
٩٦. مجمع البيان في تفسير القران - أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي.
٩٧.محاسبة النفس- الشيخ تقي الدين إبراهيم بن علي الكفعمي.
٩٨.مختار الصحاح- محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي.
٩٩. مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل- ميرزا حسين النوري الطبرسي.
١٠٠. مسكن الفؤاد عند فقد الأحبة والأولاد- الشيخ زين الدين علي الجبعي العاملي (الشهيد الثاني).
١٠١. مسند أحمد- احمد بن حنبل.

١٠٢. مشكاة الأنوار في غرر الأخبار- أبي الفضل علي الطبرسي.
١٠٣. مصباح المتهجد- الشيخ أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي.
١٠٤. معاني الأخبار- الشيخ محمد بن علي بن بابويه القمي الصدوق.
١٠٥. معجم رجال الحديث- السيد ابو القاسم الخوئي.
١٠٦. مفاتيح الجنان- الشيخ عباس القمي.
١٠٧. مكارم الأخلاق- أبي الفضل علي الطبرسي.
١٠٨. مَن لا يحضره الفقيه- الشيخ محمد بن علي بن بابويه القمي الصدوق.
١٠٩. مناقب آل أبي طالب - مشير الدين أبي عبد الله محمد بن علي بن شهرآشوب .
١١٠. منتخب ميزان الحكمة- الشيخ محمد الري شهري.
١١١. منهاج الصالحين- السيد ابو القاسم الخوئي.
١١٢. منية المريد- الشيخ زين الدين علي الجبعي العاملي (الشهيد الثاني).
١١٣. ميزان الحكمة- الشيخ محمد الري الشهري.

المُحتَوَياتُ

المُحتَويات

الحَسِيب ٥
تجلّيات الحسيب ٨
العبد والحسيب ٢٤
أصناف المحاسبة يوم الحساب ٢٦
طريق النجاة ٣٤
كيف نحاسب أنفسنا؟ ٣٤
العزم على عدم العَوْد ٣٥
ذِكرُ الحسيب ٣٧

الحَمِيد ٣٩
تجلّيات الحميد ٤٢
يا موسى، الآن شكرتني ٤٤
حمدُ الله للعباد ٤٥
العبد والحميد ٤٧

إحياء العقل والفطرة ٤٩
مات الكلب حياءً ٥٠

الحَفِيّ ٥٣
تجلّيات الحَفيّ ٥٦
شواهد قرآنيّة........................ ٥٧
سعد وحبّ الدنيا........................ ٦٠
العبد والحفيّ ٦٢
العلويّة والمجوسيّ........................ ٦٧
قد أجيبت الدعوة........................ ٦٩
اهتمام الرسول بالسادة ٧١

الرّقِيب........................ ٧٣
تجلّيات الرقيب........................ ٧٧
حظّ العبد من الرقيب ٧٩
أبو ذرّ وحسن الطاعة ٨١

الرّؤوف........................ ٨٥
تجلّيات الرؤوف........................ ٨٨
جزاء الرأفة........................ ٨٩

رأفة الله بزليخا ٩٠
العبد والرؤوف ٩١
أهل بيت الرأفة والرحمة ٩٢
ذكر الرؤوف ٩٧

السّلام ٩٩
تجلّيات السلام ١٠٢
العبد والسلام ١٠٦
ذِكرُ السلام ١١٣

الجبّار ١١٥
تجليات الجبَّار ١١٨
من عجائب النملة والعنكبوت ١٢١
العبد والجبّار ١٢٤
ذكر الجبّار ١٣٠

المُتَكَبِّر ١٣١
تجليات المتكبِّر ١٣٤
العبد والمتكبّر ١٣٦
ذِكرُ المتكبّر ١٣٩

الطّاهِر ١٤١
تجلّـيات الطاهر ١٤٤
أإلهٌ مع الله؟! ١٤٥
الكتاب العزيز ونفي الجسميّة ١٤٦
العبد والطاهِر ١٤٨

العَـدْل ١٥٧
تجلّـيات العدل ١٦٠
القيامة وتجلّيات العدل ١٦٥
العبد والعدل ١٦٩
ذِكرُ العدل ١٧٣

الغِـيَاث ١٧٥
تجلّيات الغياث ١٧٨
الاستغاثة بالأولياء، والتوسُّل بهم ١٨١
الاستغاثة بالحجّة عليه السلام ١٨٣
الاستغاثة بالله تعالى ١٨٤
العبد والغياث ١٨٥

الفَالِق ١٨٩

تجلّـيات الفالق.. ١٩٣
العبد والفالق ١٩٧

القَدِيم.. ١٩٩
تجلّـيات القديم ٢٠٢
العبد والقديم ٢٠٤

القُدُّوس.. ٢١١
العبد والقدوس ٢١٥
الإمام الخمينيّ رحمه الله وترك المباحات ٢١٦
الوحيد البهبهانيّ رحمه الله ٢١٦
ذِكرُ القدّوس.. ٢١٨

القَيُّوم.. ٢١٩
تجلّـيات القيّوم ٢٢٢
العبد والقيّوم ٢٢٤
ثمار التوجّه إلى الله تعالى ٢٢٥
ذِكرُ القيّوم.. ٢٣١

المُحِيط.. ٢٣٣
تجلّـيات المحيط ٢٣٨

العبد والمحيط ٢٣٩

كاشِفُ الضُّرِّ.. ٢٤٧
تجلّيات كاشف الضرّ.. ٢٥١
العبد وكاشف الضرّ.. ٢٥٤

الوَهّاب.. ٢٥٥
تجلّيات الوهّاب ٢٥٨
الإمام الصادق عليه السلام مع مفضّل بن عمر.. ٢٥٩
العبد والوهّاب ٢٦١
ذِكرُ الوهّاب.. ٢٦٢

الوَدود.. ٢٦٣
تجلّيات الوَدُود.. ٢٦٦
العبد والودود ٢٦٧
ذكر الوَدُود.. ٢٧٢

الهَادِي.. ٢٧٣
تجلّيات الهادي.. ٢٧٥
العبد والهادي.. ٢٨٠

الوَفِـيّ ٢٨٣
تجلّـيات الوفيّ ٢٨٧
العبد والوفيّ ٢٩٣

الوَكِيل ٢٩٩
تجلّـيات الوكيل سبحانه ٣٠٤
العبد والوكيل ٣٠٦

الـبَـرُّ ٣١٥
تجلّـيات البَرّ ٣١٧
العبد والـبَـرُّ ٣٢٢

الـتّـوَّاب ٣٢٩
تجلّـيات التوّاب ٣٣٢
العبد والتَّوّاب ٣٣٤
التوبة، وتعريفها، وحقيقتها ٣٣٥
وجوب التوبة ٣٣٨
فوريّة وجوب التوبة ٣٤٠
شروط التوبة ٣٤٢
قبول التوبة ٣٤٥

موارد التوبة ٣٤٨
التوبة وزمانها.. ٣٥٢
السبل لمحو الذنوب.. ٣٥٣
التبعيض في التوبة ٣٥٩
صيغ التوبة ٣٦٠
أقسام التوبة.. ٣٦٠
مراتب التوبة.. ٣٦٠
التوبة في الأديان السماويّة.................................... ٣٦١
ذِكرُ التَّوَّاب.. ٣٦٥

الـجَـلِـيل.. ٣٦٧
تجلّـيات الجليل ٣٧٠
فوائد الماء، والسبب في كثرته ٣٧١
العبد والجليل ٣٧٣
الآخوند الخراسانيّ رحمه الله ٣٧٣
الشيخ مرتضى الأنصاريّ رحمه الله............................ ٣٧٥
ذِكرُ الجليل.. ٣٧٦

الـجَـوَاد ٣٧٧
تجلّـيات الجواد ٣٨٠

العبد والجواد ٣٨٢

الشَّكُور ٣٨٥
تجلّـيات الشكور ٣٨٩
العبد والشكور ٣٩٠
العبد مع خالقه الشكور ٣٩١
شكر المخلوق ٣٩٣
مع الشكور ٣٩٦

الشَّافِي ٣٩٧
تجلّـيات الشافي ٤٠٠
العبد والشافي ٤٠٣
شفاء الذات والمجتمع ٤٠٣
مع الشافي ٤٠٦

المصادر ٤٠٩

المحتويات ٤١٩